بسم الله الرحمن الرحيم

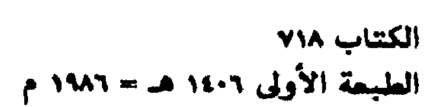
رحلتي إلى اليمن

أحمد وصفي زكريا

رحلتي إلى اليمن

دار الفكر





الكتاب ٧١٨
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

الصف التصويري : على أجهزة C.T.T. السويسرية
الإنشاء (أوفست) : في المطبعة العلمية بدمشق

تقديم

لرحلة أحمد وصفي زكريا إلى اليمن

بقلم : أحمد غسان سبانو

بقي اليمن في عزلة عن العالم لمدة طويلة وقد بقي اتصال اليمن بالدول الأجنبية عبر التجار والتجارة ، أما داخل اليمن فقد كان أسطورة بعيدة ..

في أواخر القرن الثامن عشر بدأ بعض المغامرين والرحالة والعلماء والأثريين بمحاولات للوصول إلى اليمن والتجول في أراضيه سواء بالطرق الرسمية أم بطرق خاصة[1] .

أما بالنسبة للعرب أبناء الأمة العربية فقد تأخرت زيارات العلماء والرحالة والمختصين إلى اليمن إلى مطلع القرن العشرين ، إذ كانت أول زيارة (معروفة) إلى اليمن قد تمت من قبل الصحفي (عبد المسيح الأنطاكي) صاحب مجلة العمران الصادرة في مصر ١٩٠٧ ، وقد نشر رحلته إلى الخليج العربي والسعودية واليمن على حلقات في مجلته (العمران) .

كذلك قام السيد نزيه المؤيد العظم السوري بزيارة اليمن بصحبة المستر شارلز كرين الأمريكي ، وبعدها قام بعدة رحلات ، وأصدر كتاباً عن رحلته نشر عام ١٩٣٦ ، وفيه صورة وحديث خاطف عن أحمد وصفي زكريا ونشاطه في الزراعة باليمن ، كما قامت جامعة فؤاد الأول (القاهرة) بإرسال بعثة إلى اليمن من أعضائها الدكتور سليمان حزين والدكتور خليل يحيى نامي ، وأصدر الأخير كتاباً عن اللهجات اليمنية عام ١٩٤٦[2] .

---

(١) يراجع مقالنا حول الهجرات العربية في مجلة الإكليل العدد الأول . (غ) .

(٢) كما أصدر كتابين عن النقوش المعينية اليمنية القديمة (م إ) .

ثم قام العلامة أحمد وصفي زكريا برحلة إلى اليمن ، تلك الرحلة التي نقدمها الآن . فمن هو أحمد وصفي زكريا وما هي قصة رحلته ؟

ولد في دمشق عام ١٨٨٩ ، وأتم دراسته الابتدائية والثانوية فيها ، ثم انتقل إلى استانبول والتحق بالمدرسة الزراعية العليا وتخرج فيها مهندساً عام ١٩١٢ ، ثم تقلب في وظائف عدة في سورية ولبنان والأردن وفلسطين إلى أن تم استدعاؤه عام ١٩٣٦ لليمن مستشاراً فنياً زراعياً لمدة ستة أشهر وفقاً لرغبة الإمام يحي كما سنبين فيما بعد .

وبعدها عاد ليعمل في العراق والأردن ، وفي سورية حيث أحيل على التقاعد عام ١٩٥٠ لبلوغه السن القانوني . وتفرغ بعدها لاستكمال أبحاثه ودراساته وإصدار كتبه سواء منها المهنية الزراعية وهي (الدروس الزراعية ثلاثة أجزاء ، والمفكرة الزراعية ، والمحاصيل الحقلية (جزءان) ، أو كتبه التاريخية وهي : عشائر الشام (جزءان) والريف السوري (جزءان) وجولة أثرية .

وكان عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب . وتوفي عام ١٩٦٤ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين .

ولليمن عموماً سحر على زائريه نستشفه من مؤلفات الرحالة الذين جابوا أطراف اليمن ومجاهلها ، وذاك السحر الذي يشغل بال زائرها وقلبه ، ويترك فيه الأثر الطيب وعشقاً من نوع خاص يدفع به للعودة إليها وإبقاء الصلة معها .

أصيب أحمد وصفي زكريا بعارض هذا العشق ، فعلى الرغم من قصر المدة التي أقامها فيها وعلى الرغم من النشاط الذي أبداه من إيجاد مزروعات جديدة في اليمن استجلبها من بلاد الشام والعراق وإيطالية ومصر ، بما يتوافق والبيئة الزراعية اليمنية ، وإنشاء مدرسة زراعية درب بها بعض شباب اليمن ، فإنه لم يعد يفترق عن اليمن إطلاقاً ، وإن لم يعد لزيارتها ثانية فقد بقي حتى آخر عمره يتابع

أخبار اليمن ويدرس نشاطاتها وتطوراتها سواء في حقل الزراعة أم السياسة أم التاريخ أم الآثار .

وفي بحثي ضمن إطار إعداد هذه المقالة بين مخلفات العلامة أحمد وصفي زكريا فقد عثرت على الكثير الكثير مما يخص اليمن وأخبارها ومشاريع كثيرة للكتابة عنها ، وقد علمت أن في اليمن عدة مخطوطات تعود لأحمد وصفي زكريا سواء في حقل الزراعة أم في حقل التاريخ اليمني لكني لاأعرف كنهها .

وقد عثرت على رسائل عدة من مخلفاته تتناول استمرار سؤاله عن أحوال الزراعة والحالة الزراعية هناك .

أعود للحديث عن مخلفاته عن اليمن ، فقد تبين لي بعد تدقيقها أن هناك بعض ماسبق نشره على شكل مقالات اعتباراً من عام ١٩٣٦ وما بعدها في صحف ومجلات مختلفة لصحف مصرية ، وهي تضم ستة مقالات بين كانون الثاني ١٩٣٧ وحزيران ١٩٤٠ ، ومجموعها ثلاث وأربعون صفحة .

كما نشر خلال إقامته في اليمن عدة مقالات في صحف يمنية صادرة هناك ، منها « الإيمان » الصادرة بصنعاء و « صوت اليمن » .

ونشر أيضاً في صحيفة تصدر باللاذقية باسم الجلاء .

وفي جريدة التربية الصادرة في حلب ومجلة غرفة زراعة حلب .

ونشر في بعض الصحف الدمشقية ومنها : النصر والقبس والكفاح وألف باء وغيرها .

ونشر في مجلة المعرفة السورية عن رحلته إلى اليمن أيضاً .

وألقى محاضرة عثرت على نصها الكامل بين أوراقه ، وبقيت اهتمامات أحمد وصفي زكريا في اليمن حتى وفاته ، وقد كان عاقداً النية على إصدار كتاب عن

اليمن ، يدون فيه رحلته ومشاهداته ، فقام بجمع الكثير من المصادر وحاول العثور على مخطوطات ليستند إليها في كتاباته ، وقد وجدت في مخطوطاته الكثير من أسماء الكتب والمخطوطات ، كذلك ضمت مكتبته بعض الكتب النادرة عن اليمن ولا سيا تلك المتعلقة بالرحلات والزيارات ومنها بعض المصادر التركية وبعض كتب كان قد أصدرها بعض رجالات الدولة العثمانية الموفدين لليمن . كذلك قام بإجراء اتصالات محلية سواء على المستوى الرسمي في الدولة أم على المستوى الشعبي . وأخص بالذكر تلك الاتصالات التي تمت بينه وبين بعض رجال الفكر في اليمن فاستطاع الحصول على إذن خاص بالاطلاع على مخطوطات يمنية .

وقد عثرت على صورة رسالة مرسلة من القاضي محمد الحجري إلى الشيخ حسين رجي الواسعي لإطلاعه على مخطوطات يمنية نادرة مثل « روح الروح » وتاريخ الكبسي ونفحات العنبر وسواها ، وقد سمح له بنقل ما يريد من هذه المخطوطات شريطة الموافقة المسبقة على هذا النقل وهذه صورة الرسالة الهامة المؤرخة في ١٧ المحرم عام ١٣٥٥ هـ .

بسم الله

حضرة الاخ الشيخ حسين بن محمد الواسعي حفظه

الرجاء ان تطلعوا الاخ
العزيز وصفي بك على تواريخ
اليمن الثمينة مثل روح الروح
وتاريخ الكبسي وتاريخ سيدي
يحيى الحسين بن القاسم و درر نحور
الحور العين وبغية المريد
ونحو ذلك وكذلك المصحف الشريف
العثماني الكوفي وعرضوه المخطوطات
القديمة حتى اذا احب نقل
اي كتاب من ذلك تساعدوه
في نقله واعرضوا عليه ما تروونه
من كتب الادب والاشعار اليمانية.
فهو لما تهم في فن الادب وستكون
لكم من الشاكرين والسلام ١٧ المحرم ٥٠ محمد [illegible]

واحفظوا اعرضوا على حضرته في ذلك الصفر

واستمرت جهود زكريا ومتابعته لتاريخ ومصادر تاريخ اليمن حتى قبيل وفاته ، إذ عثرت على رسالة موجهة من سفير سورية في لندن جواباً عن رسالة كان قد أرسلها زكريا إليه طالباً مصادر عن تاريخ اليمن ، والسفير السوري هو السيد عبد الرحمن العظم ورسالته مؤرخة من لندن في ١٩٦٣/١/٢٩ ، أي قبل وفاة زكريا بعدة أشهر وتقول الرسالة :

حضرة الأخ العزيز الأستاذ وصفي زكريا الأكرم .

تلقيت رسالتكم بسرور بالغ وبعد انقطاع أخباركم عنا مدة طويلة . ولكن ما يبهج النفس أن نسمع أنكم بخير وأنكم قد عزمتم على مواصلة التأليف وخدمة الثقافة العربية بالكتابة عن بلد عربي عريق ، عن اليمن . غير أن الكتب التي ألفت عن اليمن خاصة نادرة باللغة الإنكليزية ، وأكثر ما يكتب عن هذا البلد يوجد في كتب تؤلف عن شبه الجزيرة العربية أو عن الشرق الأوسط ، كما أن في الموسوعة البريطانية مقالاً ذُيل ببعض المراجع وقد أرفقت قائمة بها طياً . أما الحصول على هذه الكتب فأمر صعب جداً لأن طباعتها قديمة ، وقد نفدت ومن الممكن استعارتها من المكتبات العامة في دمشق أو في بيروت وأعتقد أن المجلس الثقافي البريطاني في بيروت قد يفيدكم في هذا الشأن .

فنأمل لكم التوفيق في هذا العمل القيم وأن نسمع عن أخباركم السارة دوماً والسلام .

لندن ١٩٦٣/١/٢٩ . **السفير عبد الرحمن العظم**

ويصف أحمد وصفي زكريا أسباب الرحلة إلى اليمن ويعرض موجزاً سريعاً عن أعماله فيها كما يلي استناداً إلى مقدمة محاضرته التي نوهنا عنها فقال :

طوحت بي الأقدار في مطلع عام ١٩٣٦ إلى اليمن الذي كان يوصف بكلمة

(الداخل إليه مفقود والخارج مولود) . وكان السبب في ذهابي أن بعض رجالات العرب الأفاضل المهتمين بالقضايا القومية العربية ذهبوا قبلي بسنة إلى اليمن لزيارة المرحوم المتوكل على الله الإمام يحيى حميد الدين الذي كان وقتئذ ملك اليمن . وكان هذا الإمام شديد التمسك بقاعدة (ليس في الإمكان أبدع مما كان) شديد التعلق بعقلية عصور الانحطاط الماضية ، فأخذ أولئك السادة خلال زياراتهم يحدثونه ويخبرونه بأن الدنيا قد تغيرت عما يعرفه هو ، والأمور قد تطورت ، وأمم الشرق والغرب قد تقدمت وسبقتنا بمراحل ، فعلينا أن نلحقها ونحذو حذوها فيما ينفع ويضر . ونصحوه وطالبوه في جملة ما طالبوه أن يلتفت إلى إصلاح مرافق بلاده الفقيرة وموارد عيشها الضئيلة ولا سيما الزراعة التي لا مورد لشعب اليمن غيرها ، على أن يرسلوا له مهندساً زراعياً يعمل في هذا الإصلاح . وبعد لأي قبل رحمه الله هذا الرأي ، ولكنه اشترط أن يتم هذا العمل المحتاج إلى عدة سنوات خلال ستة أشهر حددها ولم يزد . ولما رجع أولئك السادة وقع اختيارهم علي وكلفوني . وبعد مداولات قبلت بهذه المجازفة ، وذهبت وقمت في تلك المدة القصيرة ـ على الرغم من العراقيل والمثبطات التي صادفتها ـ بأقصى ما يمكن أن يؤتى في خدمة الزراع والغرس واستطعت أن أترك هناك آثاراً خالدة من نباتات وأشجار مثمرة وغير مثمرة ما لم يكن لليمانيين عهد بها . جلبتها من سورية وفلسطين ومصر وإيطالية ، وقدت تلاميذ يمنيين علمتهم ودربتهم في متابعة ما شرعت به . ثم رجعت عند انتهاء المدة المذكورة ، أحمد ربي على الخلاص من الإمام ، وخلال أعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء والأقضية والنواحي التي مكنوني من زيارتها كنت أتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية وغيرها . فحصلت على نبذ منها نشرتها بعد رجوعي في بعض المجلات العلمية المصرية والسورية . وقد حفزني إلى ذلك النشر وهذه المحاضرة كون اليمن لا يزال مجهولاً في جملته عندنا معشر مثقفي العرب ، ولم يكتب في اللغة العربية

كتابات كافية عن جغرافيته الطبيعية والبشرية ، وعن أحداثه وكوارثه الكثيرة التي وقعت في العهود الأخيرة . على حين ألف بعض قواد الأتراك وأطبائهم في زمن وجودهم هناك عدة كتب ورسموا خرائط . وقام قبلهم منذ مئتي سنة بعض المغامرين من الرواد الإفرنج ولا سيا الإفرنسيين والإنكليز والألمان .

كان سبب رحلة أحمد وصفي زكريا إذن بعض رجالات العرب الذين اختاروه لتقديم الخبرة والمشورة في ميدان الزراعة للحكومة اليمنية آنذاك .

وقد تم الاتفاق بين الحكومة اليمنية وزكريا عن طريق اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي العام ، وكان رئيسه الحاج أمين الحسيني مفتي الديار الفلسطينية وهو الذي قام بتوقيع العقد مع زكريا نيابة عن الحكومة اليمنية ، ونقدم فيما يلي صورة عن مسودة الاتفاق .

صورة مسودة عقد زكريا مع الحكومة اليمنية

بناءً على الطلب والاعتماد الواردين من قبل صاحب الجلالة الإمام يحي حميد الدين ملك اليمن المعظم إلى صاحب السماحة الحاج أمين أفندي الحسيني مفتي الديار الفلسطينية ورئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي العام بشأن الاتفاق مع مهندس زراعي وإرساله ليشرف على الأعمال الزراعية في القطر اليماني ، فقد جرى الاتفاق بين كل من صاحب السماحة المفتي المشار إليه فريقاً أولاً والمهندس الزراعي وصفي بك زكريا فريقاً ثانياً على المواد الآتية :

١ً - يتعهد الفريق الثاني بالذهاب إلى صنعاء اليمن والاشتغال فيها بالأعمال الزراعية الفنية الموافقة لحاجات ومطالب القطر اليماني والسعي بتعليم ونشر

أساليب الزراعة الحديثة وطرق العناية بالغراس والزروع النافعة .

٢ً ـ يتعهد الفريق الأول إلى الفريق الثاني بأن يسهل له أسباب الأعمال المذكورة في المادة الأولى ويلبي مطالبه المؤدية لتحقيقها في أوقاتها ، ويمده بالأموال والرجال الكافية لذلك .

٣ً ـ يتعهد الفريق الثاني بأن يبذل قصارى جهده في القيام بالأعمال الفنية المطلوبة منه في المادة الأولى ، وذلك بنسبة التسهيل والإمداد المذكورين في المادة الثانية بحيث لا يكون مسؤولاً عن التعطيل الذي قد يحدث من جراء التأخر بهما .

٤ً ـ إن مدة توظف الفريق الثاني في هذه المهمة ستة أشهر فقط . على أنه عند انتهاء هذه المدة إذا وافق كل من جلالة الإمام المعظم والمهندس الموما إليه على تمديدها تمدد حسب الاتفاق الذي ينظم مجدداً إذ ذاك .

٥ً ـ يتعهد الفريق الأول أن يؤدي إلى الفريق الثاني راتباً شهرياً قدره خمس وعشرون ليرة ذهبية عثمانية ، أو ما يعادلها من الورق النقدي الإنكليزي أو المصري بسعره يوم الدفع ، على أن يبدأ استحقاق قبضه هذا الراتب من يوم وصوله إلى صنعاء .

٦ً ـ يتعهد الفريق الأول أن يؤدي إلى الفريق الثاني مقدماً وعند الذهاب نفقات سفره من دمشق إلى صنعاء في الدرجة الأولى في السيارات والقطارات والبواخر ، ويتكفل بإعطائه النفقات نفسها عند انتهاء خدمته ورجوعه من صنعاء إلى دمشق .

٧ً ـ إذا كلف الفريق الأول الفريق الثاني السفر من صنعاء إلى أي بلدةٍ أو قريةٍ في داخل البلاد اليمانية أو خارجها لأجل الأعمال المتعلقة بوظيفته ، فعلى الفريق الأول أن يؤدي إلى الفريق الثاني نفقات سفره وتجوله في الرواحل

والسيارات ثم تعويض انتقال قدره عن كل يوم نصف ليرة ذهبية عثمانية في خارج البلاد اليمانية وخمسها في داخلها [أي خمس الليرة الذهبية في داخل اليمن] .

٨ً ـ إن الفريق الثاني مكلف بإنهاء مدة التوظف المذكورة في المادة الرابعة ولا يمكنه تقصيرها إلا لعذر صحي هام . وفي هذه الحالة يتقاضى رواتبه إلى حين يوم مغادرته صنعاء فضلاً عن أجرة الطريق المذكورة في المادة السادسة .

٩ً ـ إذا رأى الفريق الأول أن ينهي خدمة الفريق الثاني قبل ختام المدة ستة الأشهر المذكورة فعليه أن يدفع إلى الفريق الثاني راتب شهرين من الأشهر القادمة فضلاً عن أجرة الطريق المذكورة في المادة السادسة .

١٠ً ـ يتعهد الفريق الأول أن يخصص إلى الفريق الثاني في صنعاء محلاً في أحد المباني الأميرية ليأوي إليها خلال أوقات عمله ، على أن يكون مفروشاً بما يكفي ، ويخصص له أيضاً خادماً لمعاونته في الأعمال الرسمية ، ودابةً صالحةً لركوبه وتجواله في الأراضي والأماكن التي يدعى للعمل فيها .

١١ً ـ عقيب تصديق هذه المقاولة من الفريقين المتعاقدين يدفع الفريق الأول إلى الثاني في القدس راتب شهرين كسلفة ينفقها على تهيئة لوازم سفره ويدفع أيضاً أجرة ذهابه المنصوص عنها في المادة السادسة ، وعلى الفريق الثاني بعد استلامه ذلك أن يتوجه إلى القطر اليماني بما يمكن من السرعة .

وبقي الحاج أمين الحسيني مرجعاً لكل خلاف أثناء وجود زكريا في اليمن كما سيمر معنا في يوميات زكريا في اليمن ، وكما يتبين ذلك من مسودة الرسالة الموجهة من قبل زكريا إلى الحاج الحسيني المؤرخة في ١٩٣٦/٣/٣ لـ ١٠ ذي القعدة ١٣٥٥ هـ :

حضرة صاحب السيادة والسماحة أمين أفندي الحسني مفتي الديار الفلسطينية حفظه الله .

تحيات واحترامات وافرة . وبعد فقد مضى علي في صنعاء اليمن شهران كاملان لم أتلق خلالهما من الأخ علي أفندي الرشدي سكرتير مكتب المؤتمر

الإسلامي ، أقل جواب على رسائلي العديدة التي بعثتها من القاهرة ومن عدن ومن صنعاء ... وقد كنت وضعت في رسالتي من عدن المؤرخة / ٣١ كانون الأول / ١٩٣٥ الأوراق المثبتة للمبالغ التي أنفقتها في سبيل شراء الأغراس والأدوات والبزور العائدة لمهمتي الزراعية في اليمن .. وهي مع قائمة مفصلة لنفقات سفري ولنفقات اللوازم المذكورة معاً ، وقد ذكرت لحضرته في رسالة ثانية تاريخها ٧ كانون ثاني ١٩٣٦ أنه بقي لي في ذمة المكتب ٢٩٢،٥ قرشاً مصرياً فوق مبلغ المئة جنيه فلسطيني الذي كنت استلمته منه ، ورجوته أن يتكرم بإرسال هذا المبلغ بالبريد أو بواسطة أخرى إلى ولدي غسان زكريا في دمشق ..

ولما تأخر حضرته عن إجابتي بالكلية خابرت الأخ منيف أفندي وشكوت إليه هذا الإعراض الذي نالني من علي أفندي فنالني من هذا أيضاً ما نالني من ذاك ، وكتبت إلى حضرة الأستاذ الجليل الشيخ إسماعيل الحافظ بهذا المآل ، فلم يكن حظي من حضرته أحسن من الآخرين المشار إليهما ...

وربما كان الأولى أن أراسل سيادتكم مباشرة منذ مغادرتي ربوعكم : لولا ملاحظتي أن هذه السكرتارية مكلفة بملاحظة معروضاتي ونفقاتي حتى النهاية ، وملاحظتي أيضاً كثرة انشغال سماحتكم بأمور هي أهم وأقدم من هذه المسائل البسيطة ، وخشية تصديعكم وسط أعمالكم الكثيرة ..

أما وإن الأخ علي أفندي أوجب لي التأثر والانزعاج البالغين من إعراضه عن محادثتي وإهماله مخاطبتي بأمور هي من خصائصه الأساسية جئت بكتابي هذا ألفت نظر سماحتكم لذلك وأرجو أن تتفضلوا على الأقل بإمداد عائلتي في دمشق بإرسال المبلغ المذكور أعلاه الباقي لي في ذمة المكتب ، بالنظر للحاجة الماسة التي وقعت بها بمناسبة الكوائن العصيبة التي نشبت وما زالت ناشبة في دمشق ..

هذا ، وإن أعمالي التي أجريتها هنا منذ وصولي كنت شرحتها إلى الأخ منيف أفندي ، الذي لا بد أن يكون قد أبلغكم عنها ، وأزيد سماحتكم علماً بأنني

رجعت أمس من زيارتي الثانية في مختلف الأنحاء صحبة اثنين من أنجال جلالة الإمام ، وقد حصلت فوائد كلية من هاتين السياحتين اطلعت فيهما على معظم أحوال البلاد وحالاتها وقابلياتها الزراعية الاجتماعية و ... إلخ .

ولا أكتمكم أن الحالة العامة إجمالاً ليست مما يبعث على الانشراح والاطمئنان ، على أنني فيما يخصني من الوجهة الزراعية مثابر على القيام بكل ماسوف يؤدي إن شاء الله لبقاء الأثر الطيب للعاجز ولسماحتكم باعتباركم السبب الأصلي في ذلك ..

وختاماً ؛ تفضلوا بقبول فائق الاحترام وبتلبية رجائي بشأن إرسال المبلغ المذكور أعلاه إلى عائلتي المضطرة لذلك وأطال الله بقاءكم سيدي .

صنعاء ١٩٣٦/٣/٣ الموافق ١٠/ ذي القعدة ١٣٥٥ هـ

قام أحمد وصفي زكريا بنقل أشجار ومزروعات تصلح للبيئة اليمنية وقام بتدريب كادر فني في هذا السبيل . فقد عثرت على ورقة صغيرة تبين مناطق زرع أغراس البرتقال اليافاوي (على سبيل المثال) كما يلي :

أغراس البرتقال اليافاوي المرسلة بالأمس

أمكنة الغرس	
[illegible]	٩
[illegible]	١٥
وادي [illegible]	٨
[illegible]	٥
[illegible]	٦٧

وبقيت أخبار اليمن وزراعته الشغل الشاغل لزكريا ، ومن ذلك رسالة موجهة من أحد أصدقائه يجيب فيها على استفسار زكريا حول مزروعات اليمن وأحوالها مرسلة من صنعاء بتاريخ ١٩٣٩/٥/١٦ وهذه صورتها :

صنعاء ١٦/٥/١٩٣٩ الموافق ٢٦ / ربيع الأول ١٣٥٨

عزيزي الأستاذ وصفي بك

تحية واحتراماً : تلقيت بعد الشوق رسالتكم وكانت لي مبعث الذكرى إلى تلك الاجتماعات الأخوية الصادقة ، وكل أملي الرجوع بالوقت المناسب كي نعيد ما كنا عليه ، ولكن هيهات فالقوم هنا لا يعلمون للوقت ثمناً ولا للواجب وجوداً ، فهم في وادٍ ، ونحن في وادٍ ، ومع ذلك لا أتمكن من إغماط حقهم في وجود القابليات التي إذا هديت ووجهت إلى الطريق المستقيم رجي منها الخير وأنت أدرى بهذه البلاد .

حينما وصلت صنعاء كنت مستقلاً في أعمالي ولكن بعد تشكيل وزارة الاقتصاد انضممت إلى (السيف علي) الذي أخرج من السجن حديثاً ، والحقيقة أنه خير أبناء الإمام ، إن هو إلا شعلة من الإخلاص والحمية ، وغيرة على البلاد لا حدود لها ، أرجو أن يكون على يده من الأعمال ما يدفع هذه البلاد لكي تكون بمصاف البلاد الأخرى .

أخبرت سموه بسلامك وشكرك شكراً جزيلاً ، وأخبرني بوجود الأشجار التي غرستها في بيته ، وطلب مني مرافقته لرؤيتها وسيكون ذلك بكرة صباحاً . أما الأشجار الأخرى فمتوزعة في بيت الجرموزي وبيت المسحار وفي المقام وفي دار السيف عبد الله وفي حمام العليل وفي الروضة والصافية والروض والإهجر وكلها مع الأسف في حالة يرثى لها ، وقد كلفت الأخ طلعت الخربوطلي بملاحظتها لأنه بعد السعي الحثيث تمكنا من إقناع الإمام بوجوب تعيينه مديراً للزراعة لمدة سنتين فعسى أن يتمكن من أداء واجبه بالوجه الأفضل .

أما وضع اليمن فلا شك من تغيره ولكن ذلك يحتاج إلى وقت ، وإلى صلاحيات لا يوافق الإمام على إعطائها لابنه الآن ، ومع ذلك فقد تحسنت

الأحوال وراجت الأفكار الحديثة ، ويؤمل انتشارها بشكل سيساعد على التقدم السريع ، ولا يسعني ذكر كل شيء عمل حتى الآن ، ولكنني أتربص الفرص للسعي إلى العراق كي أبحث لكم في كل شيء .

قدمت الكتاب إلى راغب بك فشكرك ، والحقيقة إنه لرجل فطن وذكي ، وقد غمرني بلطفه وشملني بأدبه ، وأنا بدوري أشكركم وأشكره على ذلك ، صحته الآن جيدة وقد بلغته سلامكم فانسرَّ جداً وبقينا طول مدة زيارتي له في بحثكم ، وما لاقيتموه من عذاب في هذه البلاد المسكينة .

أرجو تقديم سلامي إلى جميع الإخوان وأتمنى لكم الصحة والموفقية .

المخلص

ويتبين من مجمل الرسائل التي قدم السيد زكريا صوراً عنها خلال حديثه عن يومياته في اليمن ، أن الحكومة اليمنية حينئذ ، لم تقدم التسهيلات اللازمة له ، ولم تقم بتنفيذ الاتفاق معه كما يجب ، وبقي له بعض الأموال التي لم يستطع قبضها حتى قبيل مغادرته اليمن .

تلك قصة رحلة زكريا إلى اليمن ومأساته فيها تجلت في مذكرات يومية كان سجلها المرحوم ، وهو في اليمن ، يصور فيها ما لاقاه وعاناه بنفسه أو شاهده بأم عينيه .

وقد دعاني إلى جمعها وتنسيقها وتبويبها وإعدادها للنشر أني وجدت فيها صورة حية لفترة من الزمن كانت بعض أجزاء الوطن العربي - إن لم نقل كله - تعاني من التخلف ما تعاني ، ثم هاهي ذي اليوم تنهض من كبوتها لتزيل عنها بكل ما أوتيت من قوة آثار التخلف كلها ، فتمحو الظلمات بنور الحقيقة ، يرفع لواءها الإنسان العربي حيث وجد .

فتسجيلاً للحقيقة ، وإكباراً وإعجاباً بالنهضة والجهود المبذولة في سبيلها وجدت من واجبي أن أحيي هذه المذكرات وأضم بعضها إلى بعض وأنسقها وأبوبها لتخرج إلى الناس في كتاب .

وكان لا بد من وجود هفوات وفجوات في بعض المعلومات وأسماء الأماكن والأعلام التي لم يتيسر لي الاهتداء إلى حقيقتها ، وصاحب الكتاب قد مضى إلى ربه تعالى ، والمصادر عن اليمن قليلة بين يديّ ، فقام الأستاذ أحمد راتب حموش مشكورا ، بتكليف من دار الفكر بمراجعة الكتاب وتنقيحه وصنع فهارسه ، كما اتصلت الدار بالأستاذين الجليلين مطهر الإرياني وعبد الفتاح الآنسي ، وهما من أهل اليمن ويعملان في السفارة اليمنية بدمشق ، فتفضلا جزاهما الله خير الجزاء بقراءة الكتاب وإيضاح بعض ما غمض فيه . وقد أشرنا في الحواشي بالرمز (م إ) إلى تعليقات الأستاذ الإرياني وبالرمز (ح) إلى تعليقات الأستاذ حموش .

ولي وطيد الأمل أن يغفر لي القراء الكرام ما قد يرونه من هنات في الكتاب ، وأن يزودوا الناشر بملحوظاتهم القيمة لعلها تجد سبيلها إليه في طبعة قادمة .

ولا يسعني إلا أن أشكر لدار الفكر وكل العاملين فيها ما بذلوه من الجهد في تنقيح وإخراج هذا الكتاب .

والله ولي التوفيق

الجمعة ٣ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ
١٥ تشرين الثاني ١٩٨٥ م

أحمد غسان سبانو

مقدمة المؤلف
غرائب اليمن كما شاهدتها

طوحت بي الأقدار في مطلع عام ١٩٣٦ إلى اليمن الذي كان يوصف بكلمة : (الداخل إليه مفقود والخارج مولود) ، وكان السبب في ذهابي أن بعض رجالات العرب الأفاضل المهتمين بالقضايا القومية العربية ذهبوا قبلي بسنة إلى اليمن لزيارة المرحوم المتوكل على الله الإمام يحي حميد الدين الذي كان وقتئذ ملك اليمن . وكان هذا الإمام شديد التمسك بقاعدة : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) ، شديد التعلق بعقلية عصور الانحطاط الماضية . فأخذ أولئك السادة خلال زياراتهم يحدثونه ويخبرونه أن الدنيا قد تغيرت عما يعرفه هو ، والأمور قد تطورت ، وأمم الشرق والغرب قد تقدمت وسبقتنا بمراحل ، فعلينا أن نلحقها ونحذو حذوها فيما ينفع ويضر . ونصحوه وطالبوه في جملة ماطالبوه أن يلتفت إلى إصلاح مرافق بلاده الفقيرة وموارد عيشها الضئيلة ولا سيما الزراعة التي لامورد لشعب اليمن غيرها . على أن يرسلوا له مهندساً زراعياً يعمل في هذا الإصلاح . وبعد لأي قبل رحمه الله هذا الرأي ، لكنه اشترط أن يتم هذا العمل المحتاج إلى عدة سنوات خلال ستة أشهر حددها ولم يزد .

ولما رجع أولئك السادة وقع اختيارهم عليّ وكلفوني ، وبعد مداولات قبلت بهذه المجازفة وذهبت وقمت في تلك المدة القصيرة ـ على الرغم من العراقيل والمثبطات التي صادفتها ـ بأقصى ما يمكن أن يؤتى في خدمة الزراع والغرس ، واستطعت أن أترك هناك آثاراً خالدة من نباتات وأشجار مثمرة وغير مثمرة مما لم

يكن لليمانيين عهد بها ، جلبتها من سورية وفلسطين ومصر وإيطالية وقدت تلاميذ يمنيين علمتهم ودربتهم في متابعة ماشرعت به . ثم رجعت عند انتهاء المدة المذكورة أحمد ربي على الخلاص من الإمام .

وخلال أعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء والأقضية والنواحي التي مكنوني من زيارتها كنت أتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية وغيرها . فحصلت على نبذ منها نشرتها بعد رجوعي في بعض المجلات العلمية المصرية والسورية . وقد حفزني إلى ذلك النشر وهذه المحاضرة كون اليمن لا يزال مجهولاً في جملته عندنا - معشر مثقفي العرب - ولم يكتب في اللغة العربية كتابات كافية عن جغرافيته الطبيعية والبشرية وعن أحداثه وكوارثه الكثيرة التي وقعت في العهود الأخيرة . لكن ألّف بعض قواد الأتراك وأطبائهم في زمن وجودهم هناك عدة كتب ورسموا خرائط . وقام قبلهم منذ مئتي سنة بعض المغامرين من الرواد الإفرنج ولا سيا الإفرنسيين والإنكليز والألمان والطليان وجازفوا بأرواحهم ، وجاسوا خلال اليمن وألفوا عنه ونشروا كتباً قيمة كثيرة في لغاتهم . وكانوا يتهافتون خاصة على زيارة مدينة مأرب عاصمة بلقيس ملكة سبأ المذكورة في التوراة والقرآن الكريم ، والشبيهة بمدينة تدمر عاصمة زنوبيا عندنا .

وقد قتل بعض هؤلاء الرواد في طريقه إلى هذه المغامرة ، وراح ضحية البحث العلمي في تاريخ اليمن . والجدير بالذكر أن الرائد العربي الوحيد الذي كان السباق بين مثقفي العرب في بلوغ مأرب والكتابة عنها وعن سدها هو مواطننا المجاهد السيد نزيه المؤيد العظم في سنة ١٩٣٦ ، ولحقه بعد بضع سنوات عدد من المصريين المختصين في الآثار وكتبوا ونشروا أيضاً .

وكنت أثناء تجولي واتصالي بمختلف طبقات اليمانيين أسمع همساً ولفظاً وشكاوى مرة من قسوة الإمام يحيى وجموده وتخلفه وفوضى إدارته ، هو وأبنائه الذين ولاهم ما لا يستحقون من الوزارات والإمارات ، حتى صرت أعتقد أن

النفوس هنـاك مكتئبـة والخواطر مضطربـة ، وأن اليمن تتمخض عن ثـورة سـوف تطيح بهذا الإمام الذي دام عهد ملكيته ثلاثين سنـة أحـاط اليمن بسور حـديـدي أغلق به منافذ النور ، وخنق الأنفاس ، وجعل اليمن متأخراً في كل شيء ومحتاجـاً إلى كل شيء منعزلاً منكمشاً ومجهولاً من كل البشر .

وقد صح ظني وحدث بعد حين ماحذرتـه وثـار طلاب الإصلاح سنـة ١٩٤٨ واغتالوا الإمام يحيى ونصبوا غيره . لكن ابنه أحمد ـ وقد كان جبـاراً بطـاشـاً أكثر من أبيه ، ومقدوح الخصال والأفعال ـ أسرع واستنفر القبائل الموالية لـه . وهؤلاء أتبـاع لكل نـاعق ولاسيا إذا أبـاح لهم مـدينـة صنعـاء . فهجم هؤلاء على صنعـاء وقتلوا وسلبوا ونهبوا وقلبوا تلك الثورة المرتجلة .

واستلم أحمد منصب الإمامة والملكية وقطع رؤوس الذين ثاروا عليـه . وكان بينهم عدد من الشبان المتعلمين خارج اليمن . وبقي أربع عشرة سنة يسير على نهج أبيه السقيم بل كان أشد سقماً وتخلفاً وطيشاً واستخـدامـاً للجن حتى سموه : (أحمـد الجن) .

ولما طفح كيله جرت محاولتان لاغتيـالـه بـاءتـا بـالفشل قطع فيهـا رؤوس أخوين لـه ، وظل يعيش في جـو من كراهيـة الشعب اليماني ومقتـه وتـذمره حتى مات في عامنـا هـذا غير مـأسوف عليـه ، وبموتـه انفجر البركان المحتقن وحيل بين ابنـه وولي عهـده (محمـد البـدر) وبين مـا يشتهيـه من التربع على عرش الإمـامـة والملكية ، مع علمـه بـأن عصرنـا الحـاضر هو (عصر الـديمقراطيـات) وهو (عصر الجمهـوريـات) وهـو عصر حكم الشعـوب بـالشعـوب) لا بـالحكم الفردي ودعـاوى الحسب والنسب .

أجـل يـاسـادتي : حم القضـاء على أئمـة اليمن بعـد أن دام سلطـانهم الروحي والـزمني أحـد عشر قرنـاً ، وطـاح آخر عرش من عروش جبروتهم واستغـلالهم

منصب الإمامة وقداسته في استمتاعهم وملء خزائنهم في غير صالح الشعب اليماني المنكود الحظ الذين كانوا نكبة عليه وأيّ نكبة .

إن هـذا الشعب العربي القحطاني النبيل كان في عهد أسلافه المعنيين والسبئيين والحميريين على قدر كبير من الحضارة والثقافة ورفاهية العيش ورقي الزراعة والتجارة حتى سمى الرومان بلاد اليمن « العربية السعيدة » ، وشهد بذلك القرآن الكريم في سورة سبأ حين قال ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ [سبأ ١٥/٣٤] . وناهيك بالآثار والأطلال والأعمدة والأسوار الموجودة في بعض مدن اليمن كمأرب وصرواح ومعين وشبوة وبيحان البيضاء والسوداء وغيرها . وناهيك بالسدود العظيمة التي كانت تخزن مياه الأمطار المنحدرة من الجبال بين الأودية . وناهيك بالمزارع الزاهرة التي كانت تلك السدود تجري من تحتها الأنهار . وبالنقوش وكتابات الحرف المعروف بالمسند . وهي كثيرة كنت أصادفها خلال تجوالي في ربوع اليمن .

ولما جاء هؤلاء الأئمة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري وتحكموا في اليمن باسم الشرافة والإمامة وقداستها ، أهملوا تلك الآثار والأعمال ، ونشروا دواعي الخمول والتأخر التي منها الحث على زراعة القات ، ولم يخلف واحد منهم أي أثر محمود عمراني أو اقتصادي أو ثقافي حتى أوصلوا اليمن إلى حالة يرثى لها استحق لها اسم « العربية الشقية » ، وجعلوا تاريخهم في اليمن الممتد منذ أحد عشر قرناً سلسلة من المخازي والمآسي ويا للأسف .

ولما بلغ السيل الزبى قام بعض قواد الجيش اليماني الذين شاءت الأقدار أن يتعلموا ويتدربوا من قبل ، خارج اليمن في بلاد عربية أخرى ، ويروا النور ويذوقوا طعم التحرر والتقدم ،ويتتبعوا الانقلابات العسكرية التي جرت في دمشق والقاهرة وبغداد ... ودائماً :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

قام هؤلاء القواد بثورة جبارة في ٢٦ أيلول الماضي فاستطاعوا أن يزيحوا محمد البدر آخر أولئك الأئمة . وحذر أولئك القواد أن يشابه محمد البدر أباه أو جده المذكورين ويكون الفرع طبق الأصل ، فدكوا صياصي الظلم والاستبداد والرجعية التي كان اليمن يشكو منها ويئن ، وأسسوا جمهورية عصرية التكوين دعوها (الجمهورية العربية اليمنية) وأعلنوا أنهم سوف يوقظون المجتمع اليماني من رقدته التي طولها الأئمة ، وأبقته في مؤخرة الشعوب العربية ، بل شعوب العالم كلها بسبب جور الأئمة وضغطهم وتخلفهم . وأنهم سوف يدفعون هذا المجتمع نحو الحركة والسير في ركب الحضارة الحديثة . واعترفت حتى الآن سبع وعشرون دولة بين عربية وأجنبية بهذه الجمهورية الفتية وستلحقها بقية الدول إن عاجلاً أو آجلاً . وسيفوز اليمن بما قاله الشاعر أبو القاسم الشابي :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

وقد كانت جمهوريتنا السورية في طليعة هؤلاء المعترفين لوثوقها بأن الثورة اليمانية كانت على حق ونتيجة احتقان وانفجار . وفي اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني الماضي ألقى وزير الإعلام السوري الحالي خطاباً في النادي العربي بدمشق بمناسبة الاحتفال بذكرى وعد بلفور واغتصاب فلسطين أكد فيه موقف سورية الواضح من الثورة اليمانية فقال :

إن حكومتنا وشعبنا وقفا بلا تردد إلى جانب الثورة اليمنية ، لأننا نعتبرها رفضاً للتخلف وطموحاً مشروعاً إلى التحرر والتقدم والسير في طرق التقدم الفعال . ثم قال : إننا لم نقف ولن نقف ضد الثورة وضد التقدم وضد إرادة الشعب اليماني في أن يكون سيد مصيره وحاكم أمره والمرجع الأول والأخير لسيادته وعزته وكرامته ... إلخ .

إنني ياسادتي انسياقاً بهذا الاعتراف السوري الرسمي أردت أن أشرح لكم نبذاً مما أعرفه من جغرافية البلاد اليمنية وتاريخها المجهولين لدى كثير من مواطنينا ، وأعدد الدواعي التي أوجبت حدوث هذه الثورة ، راجياً المولى عز وجل أن ينهيها على خير وسلامة ، ويحق الحق ويزهق الباطل ، ويحول دون إهراق الدماء العربية الزكية ودون تطور هذه الثورة إلى حرب واسعة النطاق تعمل فيها المصالح الأجنبية الاستعمارية عملها بأكف عربية .

أقول : لقد أعلن أولئك القواد من محطة إذاعة صنعاء يوم وثبتهم أسباب هذه الوثبة ، وبثوا آلامهم وشكاواهم العديدة مما كانت تعانيه الإدارة وفوضى الأعمال وقطع الرؤوس والشنق والخنق والتكبيل بالقيود الحديدية والسجن بها مدى الحياة دون محاكمة ولا تحقيق وغيرها من المخازي والمآسي التي كان أولئك الأئمة الطواغيت يصبونها على الشعب اليماني المغلوب على أمره . وكل ماعددوه كان صحيحاً بل أقل من صحيح على ما يعرفه ويشهد به كل من زار اليمن مثلنا من عرب وأجانب ورجع كاسف البال حزيناً آسفاً على هذا القطر العربي العزيز القابل لكل عمران وازدهار لو وجد عقولاً نيرة ونوايا خيرة .

ولا ريب في أن أهل اليمن في مدنه وقراه قد تنفسوا الآن الصعداء لخلاصهم من الكابوس الثقيل الذي كان جاثماً على صدورهم . وابتهجوا أي ابتهاج ، والتفوا حول جمهوريتهم العتيدة يؤيدونها ويدافعون عنها وينصرون الحق على الباطل . وقابلت الشعوب العربية كلها ثورة اليمن بالتأييد ورجاء النصر والتوفيق ، لأن هذه الشعوب تريد أن ينهض شقيقها اليمن من كبوته ويسحق الماضي البعيد الآسن ، ويلحق ركب الحضارة العالمية الذي تأخر عنه كثيراً ليعتزوا به ويفخروا .

ولليمن أيها السادة لدينا نحن السوريين ذكريات مؤلمة وانطباعات رهيبة يعرفها المسنون الذين أدركوا أوائل قرننا الماضي . فقد كانت بلاد اليمن توصف

بأنها مقبرة الجيش العثماني في ذلك الحين . وهـذا الجيش إن كان نصفـه تركيـاً من أبنـاء الأنـاضول فنصفـه الثـاني كان عربيـاً من بـلاد الشـام (سـوريـة وفلسطين ولبنان) . فقد كانت تذهب من بلادنـا العسـاكر كتـائب وراء كتـائب ، وجموع الأفراد الجديدة أفواجاً بعد أفواج . فلا يرجع منها إلى موطنه بعد خدمـة أربع أو خمس سنوات إلا الثلث أو الربع وربمـا أقل . ونـدر من بين هؤلاء الراجعين من لم يكن عليلاً أو هزيلاً أو مشـوهـاً بعـاهـة . كل ذلـك من جراء الحروب والمعـارك والأمراض وتبدل المناخ ونقص العنايـة وغيرهـا من الأسبـاب التي كانت في أواخر العهد العثماني تفتك بالجنود الـذاهبين . فـما من بلـدة أو قريـة في بلادنـا العربيـة الشامية إلا تذكر اليمن بـالأسى لأن لهـا هنـاك عشرات وربمـا مئـات من الشهـداء والمفقودين والمعلولين والمشوهين الذين راحوا ضحية ذلك العهد المشؤوم ، يقـابلهم مثـل هـذا العـدد أو أكثر من أبنـاء اليمن الـذين كان الأئمـة يستغلـون سـذاجتهم وعصبيتهم ويستفزونهم للوثوب على الدولة ومناجزتهـا القتـال والعراك . لا لأجل صالح اليمن العام بل لكي يستعيد لهم سلطانهم الروحي والزمني ، ويجبوا الضرائب والصدقات ويكنزوا الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله والوطن .

أجل إن كثيراً من ضبـاطنـا وقوادنـا السوريين القـدامى عملوا في اليمن أيـام العهد العثماني ، وخـاضوا معـاركـه وقـاسوا شـدائـده ومرائره ، فمنهم من استشهـد ودفن هنـاك ، ومنهم من رجع بعـد لأي وشقـاء طـويلين ، فـأدركنـا من هـؤلاء العقيد زكي العظمـة والعقيـد عـارف التوام والمقـدم رشـدي الجبـان والمقـدم كامل العشي وغيرهم . كما أدركنا من الأحياء العميـد تحسين العنبري الـذي حـاول تنظيم الجيش اليماني دون جـدوى . كما رجـع ينتـابـه المرض ودواعي المـوت بسبب هـذه الخـدمـة المرحومـان أمير اللواء تحسين الفقير وأمير اللواء مصطفى وصفي السمان ، ويضـاف إلى هؤلاء عـدد كبير من السـوريين المـدنيين رجـال الإدارة أو التعليم أو القضاء الشرعي أو الطب رحمهم الله جميعاً .

هذا والحديث عن شؤون اليمن وشجونه وغرائب مناظره ومآسيه ، واليمن كله غرائب ومآسٍ ، حديث طويل عريض لاتتسع له محاضرة واحدة . ويكفي أن أذكر لكم غيضاً من فيض فأقول : إنك لو هبطت اليوم اليمن لرجعت حالاً القهقرى ، ووجدت نفسك أمام مشاهد تاريخية وأوضاع اجتماعية قديمة تعود إلى ما قبل قرن أو قرنين . فكل شيء هناك لا يزال من الطراز الذي أكل الدهر عليه وشرب ، فالجلوس والاتكاء على الحشايا والمساند لا على الكراسي ، والطعام على السماط الممدود على الأرض لا على الموائد ، والأثاث في البيوت والثياب والأزياء والهيئات والعادات والتقاليد لاتزال كما كان يتحدث عنه أجدادنا ، وقد صارت في بلاد العالم مما يعرض في المتاحف الأثرية .

ولا تزال بلاد اليمن بلا مدارس عصرية عالية أو ثانوية وبلا معامل ومصانع وبلا أطباء بشريين أو بيطريين وبلا صيدليات ومستشفيات إلا ما ندر ، والموجود منها في بعض المدن بلا وسائل وبأدوية كاذبة ، والمرض هناك إما أن يشفى الفقير بقدرة قادر أو يموت . ومن ثم كانت الأمراض منتشرة والوفيات كثيرة ولا سيا بين الأطفال ، وليس هناك من الصحف سوى جريدة صغيرة اسمها (الإيمان) تصدر في الشهر مرة . ولولا أن الإذاعة قد دخلت منذ بضع سنوات لبقوا في عزلتهم ورقدتهم لا يدرون من أمور الدنيا شيئاً .

وليس هناك محاكم نظامية ولا دوائر رسمية أصولية ولا دستور ولا حياة ديمقراطية ولا مجلس نيابي يمثل الشعب ويتحدث عن مصائبه ومطالبه . والحكم كله أوتوقراطي (استبدادي مطلق) وثيوقراطي (روحاني) غير مستند إلا على إرادة فرد واحد هو الإمام الذي هو على حد تعبيرهم (طاعته من طاعة الله ومعصيته من معصية الله) . فالإمام يتداخل في كل كبيرة وصغيرة وفي أعظم الأمور وأحقرها ، والإمام هو اليمن واليمن هو الإمام .

وعلى الرغم مما ذكرته ففي اليمن وعند شعب اليمن محاسن كثيرة تستحق

الذكر ، وتدل على أن اليمن قابل لكل عمران وازدهار ، فعاصمة اليمن صنعاء مثلاً في نجد منبسط وسط منطقة الجبال العالية . ترتفع عن سطح البحر ٢٣٦٠ متراً . وهي ذات مناخ جاف صحي وهواء سَجْسَجٍ[1] عليل ، لا تزيد درجة الحرارة فيها على ٢٥ صيفاً ولا تهبط إلى أكثر من درجة أو درجتين فوق الصفر شتاءً ، وهي مدينة كبيرة بقدر حمص أو حماة عندنا . وتشبه دمشق بعض الشبه لوجودها في سفح جبل شاهق اسمه (نقم) نظير جبل قاسيون عندنا وأعلى منه ثلاث مرات ، وفيها دور وقصور شاهقة ذات ثلاث أو أربع طبقات ، وجوامع ومآذن مرتفعة وأسواق ومتاجر وحدائق وحمامات ومدارس ومبانٍ حكومية وثكنات ومستشفيات عسكرية مما أبقاه العهد العثماني .

وفي مدن اليمن شعب لطيف ذكي له كل الاستعداد للتطور والتقدم ـ لو وجد من يحكمه بالعدل والإحسان وسداد الرأي ـ وكثير من مراكز الأقضية والنواحي يشملها هذا الوصف الذي ذكرته .

واليمانيون وأخص بالذكر أهل القرى أرباب الفلح والزرع الذين يسمونهم هناك (قبليين) هم من أشجع الناس وأصبرهم على تحمل المشاق والمتاعب ، وأبرعهم في حروب العصابات في الجبال . ينطلقون ويقفزون في المرتفعات والمنحدرات كالفهود . فلا تشعر كيف نبتوا من بين الصخور ومخابئ القلاع والوعور . وهم يحسنون الكر والفر والكمون والتحصن والرمي بالبنادق والطعن بخناجرهم المعقوفة التي يسمونها (جنبيات) . وقد صاولوا الجيش العثماني وأرهقوه طوال عشرات السنين على الرغم من شهرته بالبسالة والجلادة وتفوقه بالمدافع والوسائل الحربية .

وبعد ذهاب العثمانيين عقيب الحرب العامة الأولى وتفرد الإمام يحي بحكم اليمن كله أنشأ جيشاً شبه نظامي مؤلفاً من جنود مرتزقة سماه (الجيش المتوكلي

(١) سجسج : بوزن جعفر لا حر فيه ولا برد . وفي الحديث : الجنة سجسج (ح) .

المظفر) ، لكن هؤلاء القبليين أتباع لكل ناعق ، لكل من يستغل فقرهم المدقع وجهلهم الطامي وسذاجتهم العارمة ، بالنقود والوعود الكثيرة البراقة . كان اعتماده عليه في توطيد الأمن الداخلي وقمع ثورات القبائل . وهو أشبه بالدرك . وكان عنده جيش آخر غير نظامي اسمه (جيش الدفاع) مؤلفٌ من أبناء القبائل ، كانوا يجلبونهم كل عام لمدة شهر يدربونهم ثم يصرفونهم . وقد تولى كبر هذا التدريب مواطننا المرحوم أمير اللواء تحسين الفقير . أما الجيش البراني فلا يدرب وإنما يسلط على المواطنين .

ولكن (الجيش المتوكلي المظفر) كان معدوم القيمة الحربية في المعارك الدولية ، لا لأن البسالة والجلادة تعوزانه ، بل لأنه كان بغاية التقتير والشح ، فراتبه ضئيل جداً لا يجاوز خمسة الريالات في الشهر له ولأسرته ، وبطنه جائع وجسمه غير مكتسٍ كما ينبغي ، عاري الساقين ، حافي القدمين ، عليه أن يمشي بهذا الحفاء في الجبال والأوعار مئات الكيلومترات ، وإذا ذهب بحملة عسكرية فطعامه على أهل القرى التي يحل بها ، وإذا أطلق الرصاص عليه أن يعيد الخراطيش إلى المستودع . وإذا مرض أو جرح فأجرة مداواته تقطع من راتبه الضئيل . هذا إلى أن ضباطه وقواده وسلاحه وعتاده من مخلفات الجيش العثماني القديمة . وليس في هذا الجيش إحالة على التقاعد . وكل جندي أو ضابط عليه أن يخدم من المهد إلى اللحد . وقد كنت أرى أثناء العرض الجد والابن والحفيد في حظيرة واحدة ، ينشدون بملء أشداقهم (الزامل) أي النشيد الوطني (المارسليز) اليماني . وبينما كانت الأناشيد الوطنية في بلاد العالم تمجد الوطن وتبعث روح الحماسة والبطولة في أبناء الوطن وتحض على فداء الأرواح في سبيل الوطن كان (الزامل اليماني) يمجد الإمام ويخوف ويهدد من تحدثه نفسه بمعصية الإمام ، وقد بقي في ذاكرتي مما كانوا يجأرون به .

يامن يخالف أمر مولانا ويعصيه   لابـــــد من يـــــوم تراه

لا بـد من يـوم يشيب الطفـل فيـه　　والطير يرسي في سماه ... الـــــــخ

إن هذا النشيـد الغريب العجيب المخيف يـدلكم على ضروب الوعـد والوعيـد والإرهاب التي كان الأئمة يسوسون شعبهم بها بدل العدل والإحسان اللذين أمر الله بهما ، ويدلكم على أن الذين قاموا بالثورة الأخيرة لتحقيق الآمال التي كانت تجيش في صدور أبناء اليمن كانوا على حق ، وكل الحق فيما فعلوه .



الحديث التاريخي

تاريخ اليمن قبل الإسلام وبعده

ليس تاريخ اليمن القديم وغموض أخباره مما شغل بال المتأخرين فحسب ، بل قديماً اضطرب مؤرخو العرب في أمره ، وحاروا في اختلاف قصصه ، واختلطت الحقائق بالخرافة في أخباره ، فقال ابن حزم بعد أن ذكر ملوك التبابعة : « وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتأخير ونقصان وزيادة » .

وقال ابن خلدون : « اختلفت أحوالهم واتفقت أسماء كثير من ملوكهم ، ووقع اللبس في نقل أيامهم ودولهم . فلنأت بما صح منها متحرياً جهد الاستطاعة ... إلخ » .

إلا أن هؤلاء المؤرخين رحمهم الله ، على الرغم من ترددهم وحيطتهم هذه ، لم تخل منقولاتهم من الاضطراب الذي منه شكوا ، فأدرجوا القصائد والأبيات المنسوبة إلى بعض ملوك بني حمير في وصف فتوحهم وانتصاراتهم الموهومة أو المبالغ بها جداً ، وهي منظومة باللغة العربية العدنانية ، في حين كانوا يعرفون أن لغة أولئك الملوك حميرية تختلف عن العدنانية إلى حد بعيد ، وقد دل على ذلك كلمة قديمة قالها أبو عمرو بن العلاء وهي : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » كما دلت أيضاً الكتابات السبئية الحميرية المكتشفة حديثاً ، وهل ينظم المرء بغير لسانه ، ومن أين لأحدهم الذي أسموه تبّعاً أبا كرب أن يقول :

لستَ بالتبّعِ اليمانيّ إن لمْ ... تركض الخيل في سواد العراق

أو تـؤدي ربيعـــة الخرج قسراً لم يعقهـــا عـوائـق العَـوّاق

فأين اليمن من سواد العراق حتى تصل خيله وتركض فيه ، نـاهيـك بـالصين والمغرب اللـذين زعموا أن غيره من التبـابعـة بلغها وافتتحها ، بل من أين لـه أن يعرف من يعمر ثلاث مئة وعشرين سنة .

ومن أقوالهم : إن أول أجيال العرب من بني سـام ، انتقلوا إلى جزيرة العرب من بـابل لمـازاحمهم فيهـا بنو حـام ، فسكنوا جزيرة العرب بـاديـة مخيمين . فهـذا القول يبعد عن رأي المحققين المتأخرين من جهة ويقرب من جهة أخرى ، فبعـده في أن المتأخرين يرون أن بني سام نشؤوا في قلب جزيرة العرب ، ولما ضاقت بهم هذه الجزيرة هجروهـا وتـدفقوا نحو أطراف العراق والشـام ومصر ، وتركوا عيش البداوة وتحضروا . وقربه في أن المتأخرين يرون أيضاً أن بعض بني سـام وأسموهم المعنيين ـ وسيـأتي حـديثهم ـ جلوا بعـد حين من العراق لمـا زاحمهم الآريـون ، وجاؤوا إلى اليمن موطن آبائهم الأولين وأنشؤوا فيه أول دولة عرفها التاريخ فيـه ، أي إن هؤلاء انتقلوا من حاضرة إلى حاضرة لا من حاضرة إلى بادية .

وفيما يختص اليمن قالوا ما خلاصته : إن دولاً عـديـدة تعـاورت الحكم في اليمن من أقدم الأزمان ، منها العادية والقحطـانيـة والحميريـة ، فقوم عـاد من بني سـام الذين تقدم القول إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيه بنو حام ، وأن مواطنهم الأولى كانت بأحقـاف الرمل بين اليمن وعمـان وحضرموت والشحر ، وأنهم اتصل ملكهم وعظم طغيانهم وعتوهم ، ولمـا بـادوا خلفهم قوم لم يـذكروا من أين أتـوا ، بـل أسمـوهم (القحطـانيـة) وحسبـوهم أجـداد عرب اليمن ، ولقبـوهم بالعرب العاربة ، كما لقبوا قوم عـاد بـالعرب البـائـدة ، وقـالوا : إن القحطـانيين اقتبســوا العربيــة من العــاديين ، وإن من القحطــانيين سبــأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان باني مدينة مأرب وسدها (كذا) .

وقد تأيد قسم كبير مما ذكره هؤلاء المؤرخون والجغرافيون بفضل مكتشفات علماء الآثار من الإفرنج الذين خاطروا بأنفسهم وتمكنوا من الوصول إلى بعض المدن والأماكن التاريخية في مشارق اليمن ، وأخصها مأرب وأماكن عديدة أخرى في أحقاف الرمل التي تقدم ذكرها ، ولا سيا في برية الجوف الممتدة من غربي تلك الأحقاف إلى سفوح جبال اليمن الشرقية ـ وفيها العاصمتان المذكورتان ـ ما برحت حتى الآن ممتنعة على علماء الآثار لا يستطيعون أن يصلوا إليها ، ليبحثوا وينقبوا في أطلالها ونقوشها ، وهي أمثال شبوة وروثان والعَبْر ووبار وهِزَم وبيحان وبراقش والبيضاء والسوداء وغيرها .

وبعض هذه المدن والأماكن إما مطمورة تحت الرمال السافية ، أو خاوٍ على عروشه تفعل فيه الأعاصير والهوام ، أو هو على خرابه يسكن بين أطلاله أعراب همج لا يدينون لسلطة ما حتى ولا لحكومة صنعاء ، ولا يدعون غريباً أياً كان يصل إلى مواطنهم هذه حذراً من أن يغتصب لهم الكنوز التي يتخيلون وجودها تحت الأنقاض ، كما ثبت ذلك للسائح الألماني هنغريس في شبوة وبيحان حينما مر بها مغامر من حضر موت إلى اليمن .

وقد قال جغرافيو العرب الذين تقدمت أسماؤهم عن هذه المدن : إنها أسماء مدن ومواضع ومخاليف بالجوف من اليمن كانت لملوك حمير وفيها حصون وقصور ومبانٍ عجيبة (كذا) .

وقال نشوان الحميري عن وبار ما نصه : « وبار اسم أرض كانت لعاد في مشارق اليمن ، وهي اليوم مفازة لا يسلكها أحد لانقطاع الماء ، ويوجد بها قصور ، وقد كستها الريح بالرمل ، ويقال إنها كانت لأهل الرس وهم أمة من ولد قحطان ، والله أعلم » . ا هـ .

ولا يسع المتأمل في تاريخ اليمن القديم إلا أن يعجب من وجود تلك المدن

والمواضع والمخاليف بين الرمال والمفاوز ، وكيف أنها تحتوي على حصون وقصور ، وعلى مبانٍ وقصور وصفت بكلمة (عجيبة) ، وأيد ذلك الأثريون الذين بلغوا ورأوا بعضها .

وقد توصلت بعد التأمل إلى أن تلك المدن والمواضع في إبان ازدهارها كانت وسط إقليم ظواهره الجوية مواتية من حيث اعتدال الهواء ، ووفور الأمطار ، وخصب التربة ، وسهولة العلّ والنهل ، من الصهاريج والآبار المترعة بمياه الأمطار الوافية ، ومن السيول الدافقة في كثرة أو قلة من جبال اليمن وأنحائه الشرقية وأن هذه المؤاتاة ظلت دائمة منذ تكون القطر اليماني في الأطوار الجيولوجية ، إلى فجر التاريخ والقرون القديمة التي تلته ، أضف إلى ذلك أن تلك المدن والمواضع كانت على قارعة مسالك تجارية عظيمة كما كانت تدمر وسط بادية الشام .

واستعجبت بعد ذلك أنه قد حدث في أرض اليمن وجباله البركانية هزاهز عنيفة طمست كل أو جل ينابيعه التي كانت تدفع بالغدران السارحة نحو براري الجوف وأحقاف الرمل ، وحدث في سمائه ما غيَّر ظواهرها الجوية ، وجعل كميات الأمطار تتناقص قرناً بعد قرن إلى حد أصبحت لا تكفي للعلّ والنهل ، وجاءت عوامل خارجية أيضاً قضت بتغير المسالك التجارية من البر إلى البحر ، وحرمت سكان اليمن من أكبر موارد رزقهم ، فانحط شأن المدن والمواضع المذكورة وهجَرها سكانها على التوالي ، وصارت بمرور الأحقاب وانقطاع الأسباب وسط رمال وقفار تشكو العطش والجدب والخواء ، بعد أن كانت مغمورة بالري والخصب والعمران ، ولا غرو فالبلاد تشقى وتسعد كالعباد .

إن هذا الاستنتاج الذي وصلت إليه تؤيده الأدلة الكثيرة البارزة للعيان في كل القطر اليماني ، وقد سبق أن قلت في (حديث اليمن)[1] المنشور في مجلة

---

(١) ينظر (حديث حديث اليمن ـ الظواهر الجوية) فيما سيأتي من فصول هذا الكتاب (ح)

المقتطف (جزء تشرين الأول سنة ١٩٣٧ ص ٣١٤) : على أن مقادير المطر في العصر الأخير صارت أقل مما كانت عليه في العصور الخوالي ، ويظهر للمتأمل كثرة الغيول[١] والأودية الجافة أو الجارية وعمقها المتناقص ، ولم يسجل ميزان المطر في مرصد صنعاء الجوي سنة ١٩٣٥ أكثر من ٣٠٠٠ ميليمتر ، وهذا المجموع العائد إلى سنة واحدة وإن لم يكن كافياً للاعتداد به ، لكن بقية السنين لا تكون فيها الزيادة على ما يظهر أكثر من نصف أو ثلثي المجموع المذكور ، وهو يعد قليلاً على كل حال إذا قيس بجفاف إقليم اليمن وجفاف صخوره وأتربته ، ولا يزال شيوخ صنعاء يذكرون بحسرة إتراع الغيول بالماء ، وقد كانت مثلاً قبل ٤٠ ـ ٥٠ سنة تروي في شمالها مساحات واسعة في قرى شعوب والروضة والجراف فأصبح الآن بعضها جافاً كل الجفاف ، وبعضها تناقص إلى ثلث مقداره السابق أو نصفه ، فصارت تلك المساحات غامرة بعد أن كانت زاهرة ناضرة ، ثم قلت في هامش ذلك المقال : أيَّد الهمداني ظني بتأثير الزلازل في تقليل مياه اليمن إذ قال في كتابه (الإكليل ٨٨/٨ عند كلامه غن غيل وادي ضهر : « وكان هذا الغيل في الجاهلية على ضعف ما هو عليه اليوم حتى وقعت في اليمن زلازل قطعت بعض مآتيه » اهـ .

وقد زادني إيقاناً بما ذكرت ماقرأته نقلاً عن كتاب (الربع الخالي) لمؤلفه عبد الله فيلبي[٢] فقد قرر هذا المؤلف ـ بعد أن اخترق ذلك الربع الموحش وشاهد أدلة جيولوجية كافية للاستدلال ـ أن البقاع الغربية من الربع الخالي حافلة بالخصب والعشب في عصور سحيقة تعود إلى ماقبل التاريخ ، وأن أودية الأفلاج ومقرن والدواسر ونجران وتثليث ... الخ . التي تهبط من جبال عسير نحو الربع الخالي كانت أنهاراً تصب في بقاعه الواسعة ، وأنه لما جفت هذه الأنهار وأصبحت أودية كما هي اليوم غاض الماء . وجف الهواء ، فأقحلت تلك البقاع وأقفرت .

(١) الغيول جمع غيل وهو الشجر الكثير الملتف ، وكل واد فيه ماء (ح)
(٢) (الربع الخالي) : عبد الله فيلبي .

فإن صح هذا الرأي عن أودية عسير والربع الخالي فهو أشد صحة عن أودية اليمن وأحقاف الرمل وبراري الجوف المجاورة له في جنوبه ، وإن هذه الأودية والأحقاف والبراري لما كانت ذات أرض وسماء سمحتين لبثت صالحة لارتواء البشر وعيشهم فقطنها أقوام كثيرون وتجاوروها ، فمنهم من قضى ومضى قبل أن يعرفه التاريخ كما جرى بقوم عاد وأهل الرس ، ومنهم من أبقى له آثاراً وأخباراً موثوقاً بها شرع التاريخ يدونها منذ القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد فحسب .

ويظهر أن العطش والجدب اللذين حصلا من تطور العوامل الجيولوجية وتغير الظواهر الجوية بدأا بأحقاف الرمل وسادا فيه ، أما المدن والمواضع التي كانت في غربي الأحقاف ، أي في برية الجوف الواقعة في سفح جبال اليمن ،فقد ظلت تلك العوامل والظواهر مؤاتية على قلة ، حملت سكانها الذين رأوا ما حل بأهل الأحقاف على بناء السدود فوق الأودية الهابطة من الجبال المذكورة ، وأتقنوا هذا العمل وأكثروا منه بعدُ في بقية أنحاء اليمن ، وكان أشهرها وأعظمها (سد العرم) الذي كان يروي مدينة مأرب وما حولها . وكان مبنياً على وادي ذنة الجامع لمعظم مياه الجبال المذكورة[1] .

وقد حفظ أهل مأرب أن خصب تربتهم واخضرار الأودية المذكورة يدومان كلما دامت عنايتهم بترميم سد العرم وغيره وحفظها من الصدع ، حتى ضعف حالهم في القرن السادس الميلادي ، فعجزوا عن الترميم فخرب سد العرم ، وخربت مأرب وجناتها بسبب ذلك ولأسباب أخرى سيأتي ذكرها ، واندرس العمران من براري الجوف حتى لم يبق منه في يومنا إلا أثر ضئيل ، وانحصر في أنحاء اليمن الغربية على النحو والمبلغ اللذين سيأتي ذكرهما .

وليس الأمر منحصراً في براري الجوف بل إن في أرجاء اليمن وحضرموت

(١) (الربع الخالي) : عبد الله فيلبي .

كثيراً من الأطلال الأثرية الدالة على عمران وازدهار عريقين في التقدم ، وكنت أشاهد أثناء تجوالي في مدن اليمن وقراه على جدران الدور والمساجد وأبوابها عتباتٍ وأحجاراً منقوشة بالخط السبئي الحميري (المعروف بالمسند) تنتظر من يحل رموزها ، ولا يزال الأهلون ينبشون عن الأطلال والمواضع القديمة عادياتٍ ثمينة ونقوشاً مكتوبة بالخط المذكور ينقلونها إلى (عدن) ، ويبيعونها من غواة هذه السلع وتجارها من الإنكليز وغيرهم .

وقد جمعت حكومة عدن بعض تلك الآثار وحفظتها في متحف صغير معروض للزوار ، لكن حكومة صنعاء لم تقم بعد بما يماثل هذا العمل الهام ، ويرجى أن يأتي يوم تقدر فيه قدر هذه الآثار قبل أن يقضى عليها بالمرة ، وقد يكون في أقلها حجماً وشأناً ما يميط اللثام عما برح العلماء يتحسرون على معرفته .

أما علماء الإفرنج الذين ذكرنا أسماء بعضهم وقلنا : إنهم عنوا باليمن زيارةً وتنقيباً وبحثاً ، والذين حذا حذوهم من الشرقيين في تحقيق التاريخ وتطبيقه على الآثار والنقوش ، نخص بالذكر منهم جرجي زيدان مؤلف (تاريخ العرب قبل الإسلام) فقد جاءت مكتشفاتهم وبحوثهم عن اليمن أجلى بياناً لتاريخه مما ذكرت العرب وأكثر إعلاء لشأن سكانه القدماء . وقد قدمنا أن أبعد ما وصل إليه علم هؤلاء عن تاريخ اليمن ، لا يتعدى حدود القرن الرابع عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد .

وفي تلك الحقبة المتأخرة من عصور التاريخ الأولى هبط اليمن قوم اسمهم (المعينيون)[١] واستعمروا الطرف الشرقي منه المعروف بالريف ، وقد قدمنا أن أول عمران اليمن حدث في براري هذا الطرف حيث الآن الرمال السافية والفلوات الخالية إلا من بعض الأعراب الهمج . وهؤلاء المعينيون لم يعرفهم مؤرخو العرب ولا ذكروهم . وإنما ذكروا في بعض أشعارهم مدينة (معين) التي كانت عاصمة

(١) المعينيون : نسبة إلى مدينة معين .

المعينيين ، كما ذكروا مدنا اخرى خربة أسموها براقش والبيضاء والسوداء .

ومعرفة الإفرنج بالمعينيين حصلت من بعض أخبار التوراة وتواريخ اليونان ومن النقوش الكتابية التي اكتشفها العالم الأثري هاليفي سنة ١٨٦٩ م في مدينة معين المذكورة ، وهي تقع إلى الشمال الشرقي من مأرب وكانت خربة مجهولة .

وأصل المعينيين غامض ، لم يعرف كيف نبتوا في اليمن ومن أين أتوا . وقد ذهب المؤرخ جرجي زيدان إلى أن أصلهم من عمالقة العراق الذين كان لهم دولة عظيمة في بابل دامت بين القرن الرابع والعشرين والحادي والعشرين قبل الميلاد ، ومن أشهر ملوكها حمورابي . وأنه لما زالت شوكة العرب الساميين بزوال تلك الدولة على أثر مزاحمة الآريين ، نزح بعض أهلها فراراً من أولئك المزاحمين ، وكان المعينيون من جملة القبائل التي نزحت ، وإذ كانت قد تعودت الحضارة ولم يعد يطيب لها التجول في البادية التمست مقراً تقر فيه فنزلت اليمن وتوطنت الجوف .

وقد استدل المؤرخ المذكور على قوله من تشابه أسماء الملوك في الأمتين : البابلية والمعينية كأب يدع واليفع وحصن صديق وتبع كرب ، ومن اشتراكهما بأسماء المعبودات وأسس الاعتقادات وطرق العبادة ومن الأحوال الاجتماعية والسياسية ، ويوافق ذهابه هذا ماذكره ابن خلدون من أن أول أجيال العرب من بني سام انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام ، إلا أنه في حالة قبول هذا الذهاب الذي تغلب عليه الصحة ، تبقى معرفة السبب في اختيار المعينيين الجوف دون غيره من بقاع اليمن الشرقية والغربية ، ألعلّه كان إذ ذاك أرضاً خصبة وسماء سمحة أكثر من غيره ، ومعرفة ما كانت عليه بقية بقاع اليمن المذكورة ، أكانت خالية خاوية وهو مالا نظنه ، ومعرفة حالة الجوف المذكور ، ومن كان يسكنه ، وكيف لم يترك هؤلاء السكان أثراً ولا خبراً ، وكيف استظهر

عليهم المعينيون وحلوا محلهم ؟ هذه غوامض نضيفها إلى ماقدمناه من المشاكل التي مابرحت في حاجة للتحقيق والجلاء .

قالوا : بعد أن حل المعينيون في الجوف اليماني واستعمروه أسسوا فيه دولة ذات عز وسلطان ، وشادوا المحافد والقصور على مثل ماعرفوا في بابل ، وتعاطوا التجارة بمختلف السلع ، واقتبسوا الأبجدية الفينيقية ، ودونوا لغتهم بحرف خاص بهم يتنوع بتوالي الأجيال حتى صار إلى الحرف المسند الذي كتبت به اللغة الحميرية بعد ، وبلغ عدد ملوك هذه الدولة الذين عثر النقابون على أسمائهم في أنقاض معين ستة وعشرين ملكاً . وأنهم كانوا يعرفون باسم مزواد . وأن نفوذ المعينيين التجاري امتد إلى شواطئ البحر المتوسط وخليج فارس ، وأن مسالكهم التجارية كانت ممتدة في أواسط جزيرة العرب ، وأن محطاتهم ومستعمراتهم انتشرت حتى شمالي الحجاز بدليل النقوش المعينيية التي عثروا عليها في العلا شمالي المدينة المنورة وفي الصفا شرقي حوران وغيرها .

وفي العصور القديمة كانت مسالك التجارة بين الهند وإفريقية وبين آشور وفينيقية ومصر ، منحصرة في موانئ الجزيرة العربية كعدن وقانا (حصن الغراب) وظفار ومسقط ، وفي الطرق البرية الممتدة في صحاري الجزيرة المذكورة . فكانت السفن تأتي من الهند وإفريقية حاملة السلع المختلفة وفي مقدمتها خشب الآبنوس وريش النعام والذهب والعاج والآفاوية والطيوب وأخصها البخور والمر اللذان كان لهما سوق نافقة في المعابد ، والعقاقير والأصباغ والحرير والمنسوجات ، فيتلقفها تجار المعينيين ، ويسيرون بها وسط الصحارى المذكورة متنقلين من محطة إلى أخرى ، وقد كانوا أقاموا هذه المحطات وحصنوها لسلامة قوافلهم حتى يصلوا إلى العراق أو الشام أو مصر ، وهي بلاد كانت إذ ذاك رافلة بالحضارة والترف يتهافت أغنياؤها على شراء تلك السلع ، ثم ترجع تلك القوافل مثقلة بمنتوجات الشرق الأدنى ، كالحبوب والزيوت والخمور والمصنوعات

المختلفة تبعث بها في سفن المحيط الهندي إلى بلاد الشرق الأقصى ، وقد ظلت القوافل أهم الوسائل مدة قرون طويلة .

وقد أثرى المعينيون من هذه التجارة والنقل ثروة عظيمة وازدهرت حضارتهم وبنوا عدة مدن في الجوف كان المؤرخ اليوناني استرابون ذكرها باسم ميناي وبثيل وكارنا وناسكوس . وقد اكتشف هاليفي هذه المدن وقرأ أسماءها عليها بالحرف المسند . وهي التي قلنا إن العرب كانوا يعرفونها ويذكرونها في أشعارهم وينسبها جغرافيوهم إلى الحميريين ، ويسمون الأولى معين والثانية براقش والثالثة سوداء والرابعة بيضاء . قال الهمداني في كتابه الإكليل (١٢٤/٨ طبعة بغداد) : ومن محافد اليمن براقش ومعين وهما بأسفل جوف أرحب في أصل جبل هيلان وهما متقابلان . فمعين خراب خاوية على عروشها . وأما براقش فقائمة ، وأسماء أهلها مكتوبة بالحرف المسند ، يسكنها بدو الأوبر من بلحرث بن كعب ... الخ وفيها يقول علقمة ذو جَدَن :

وقد أسّوا (براقش) حين أسّوا[1] ببلقعة ومنبسط أنيق
وحلوا من (معين) حين حلوا لعزهم لدى الفج العميقِ

وقال الهمداني أيضاً : وبالجوف سوى براقش ومعين : البيضاء والسوداء ، مأثرتان فيهما آثار عجيبة وقصور أخر خربة بين الجوف ومأرب ، يعدّن الناس فيها الذهب القبوري ودنانيرهم ودراهمهم على صور . اهـ .

ونذكر تصديقاً لكلام الهمداني أن في متاحف أوربة اليوم كثيراً من النقود المنقولة من اليمن وعليها صور الملوك وأسماؤهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند ، والرموز سياسية أو اجتماعية أو دينية . ونذكر أيضاً أن أخبار المعينيين التي مابرحت قليلة وغامضة تكاد تشبه ما يقال في القرآن الكريم عن قوم

(١) أسّوا : سكنوا وأقاموا (ح) .

عاد ذوي العبث والبطش والجبروت وأصحاب الأنعام والبنين والبنات والعيون . وقد قدمنا أن مؤرخي العرب جعلوا منشأهم من بابل وحسبوا مساكنهم بين اليمن وعمان وحضرموت . فهل المعينييون هم العاديون ، ذلك ما يتبادر إلى الذهن ويحتاج للتأكد .

هذا وقد ظل المعينيون ينعمون برفد وسؤدد طائلين نحو سبعة قرون ثم غلبهم السبئيون وأبادوهم وخلفوهم في السيادة والتجارة وذلك حول سنة ٦٥٠ قبل الميلاد . والدولة السبئية هي المعروفة لدى العرب بالقحطانية والحميرية والعرب العاربة ؛ لأن سبأ في عرف العرب من أعقاب قحطان .

وقيل : إن السبئيين جاؤوا إلى اليمن من الحبشة في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد ، فأقاموا بجوار المعينيين وخالطوهم واقتبسوا لغتهم وديانتهم وحضارتهم وزاحموهم في امتلاك بعض أنحاء اليمن وجعلوا عاصمتهم صرواح ، تشهد بذلك الكتابات المعينية التي اكتشفت وفيها ذكر لوجود السبئيين في اليمن . وإن بعض ملوك المعينيين مثل (خالي.كارينا صادوق) و (يحثيل ريام) كانا في الزمن الذي كان فيه ملوك سبئيون . والمظنون أن هذا كان بين ٧٠٠ و ٦٠٠ سنة قبل الميلاد .

ويقال : إنه جاء في كتابة معينية ما يفيد أن السبئيين وقبيلة أخرى اسمها خولان ، كانوا يشنون الغارات على الطريق المؤدية من نجران إلى معان في جنوبي الشام ، وقد أشار كتاب أيوب من التوراة إلى هذه الغارات .

وما زال السبئيون يزدادون بسطة في الثروة والقوة حتى ظهروا على المعينيين لأسباب مجهولة ، لعلها للوهن الذي قد يكون أصابهم كما يصيب عادة الأقوام التي تسترسل في النعيم والترف بمرور الأجيال ، في حين كان خصومهم في إبان نهضتهم وفتوتهم ، وما إن وطد السبئيون نفوذهم حتى أنشؤوا دولة كبيرة كانت كسالفتها دولة تجارة وقوافل وزراعة وجعلوا عاصمتهم (مأرب) وزينوها بالقصور والدور

والشوارع والأعمدة والهياكل الجميلة التي لاتزال أطلالها تدهش الزائرين بروعتها وجمال هندستها .

ويظهر أن السبئيين رأوا الظواهر الجوية في براري الجوف مالت إلى التحول ، وأن الأنهار التي كانت تتدفق من جبال اليمن الشرقية نحو تلك البراري تضاءلت وصارت أودية وغدراناً ، ففكروا بالانتفاع من سيول تلك الجبال التي كانت تذهب سدى ، فبنوا سد العرم في مأرب ، وسدوداً أخرى في كثير من أنحاء اليمن ، وحضرموت ، وأتقنوا فن الري وتوزيع المياه فتقدمت الزراعة وأثروا منها كما كانوا أثروا من التجارة والنقل . وقد حملتهم تلك الثروة على العناية بالعمران فبنوا الحصون والمباني العظيمة والهياكل الشامخة في اليمن وحضرموت وما بينهما ، وتفننوا بزخرفتها وتزيينها بالنقوش والتماثيل والأعمدة ، وشادوا حولها الأسوار المنيعة ، وفرشوها بالديباج وأواني الذهب والفضة .

وكان سد مأرب من أعظم أعمال العمران في اليمن ، شاهده في القرن الرابع الهجري الجغرافي اليماني أبو الحسن الهمداني وذكره في كتابه الإكليل (ج ٨) إلا أنه ظل غير معروف أو موصوف بدقة إلى سنة ١٨٤٣ م لما زاره الأثري (آرنو) ورسم خريطته وأفاض في وصفه . كما زاره هاليفي وغلازر في سنتي ١٨٦٩ و ١٨٩٥ والسيد نزيه المؤيد الدمشقي في سنة ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م ، وأفاض في وصفه أيضاً في رحلته . وهذا السد جدار ضخم بنوه في باب وادي ذنة بين جبلي بلق[١] لتجتمع سيول جبال اليمن الشرقية وراءه في فصل الأمطار ، وتتصرف من ثم لري السهول الممتدة حول مأرب .

وفي هذه السهول كانت الجنتان الواقعتان عن يمين مأرب وشماليها كما جاء في القرآن الكريم في سورة سبأ . وكانت هذه السهول والجنان تشبه غوطة دمشق أو

(١) جبلي بلق : هما جبلان (بَلَق الأيمن) و (بلق الأيسر) وبينهما بني سد مأرب (م إ) .

أكثر على ما يظهر وتفيض بالغلال والثمار . وقد عثر الأثريون المذكورون في أنقاض هذا السد على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على أن بناته هم (سمعهلي ينوف) وابنه (يثعمر) بدأا به وأكمله خلفاؤهما .

وفي تلك الحقبة شرع البطالسة خلفاء الإسكندر المقدوني في مصر يبنون السفن ويمخرون في البحر الأحمر وينقلون السلع بين موانئ الشرق والغرب ، إلا أن هذه المنافسة لم تؤثر تأثيراً يذكر في تجارة السبئيين وقوافلهم . فقد ظلوا يمدون جميع الهياكل المصرية والفينيقية بالبخور والطيوب وغيره . وكما اشتهر السبئيون بالإقدام والنشاط في الأعمال التجارية والزراعة اشتهروا بالبسالة في الحروب ، حتى إنهم صدوا حملة القائد الروماني يوليوس غالوس وأرجعوه عن أسوار مأرب . وقد كان قصدها طمعاً بما بلغه من ثروتها وترف أهلها . حدث ذلك في سنة ٢٤ ق . م ، وهذه الحملة الرومانية وإن أخفقت لكنها عرفت الرومانيين ببلاد العرب وجعلت مؤرخيهم يذكرونها ويذكرون اليمن خاصة ويصفونها بالعربية السعيدة .

ويذكر أن الدولة السبئية قضت دورين في حياتها : الأول لما كانت عاصمتها في صرواح ، وهي الآن قرية متهدمة ولكن لا تزال آثارها وأطلال قصورها ظاهرة ومأهولة ببعض السكان ، تبعد عن مأرب نحو خمسين كيلو متراً إلى الجهة الغربية ، وقد كانت الدولة السبئية في هذا الدور تحاول النهوض ومزاحمة المعينيين ، وكان لرؤسائها حينئذٍ ملوك ، وكان لهم لقبهم « مكرب سبأ » ، إلى أن انتهى هذا الدور سنة ٦٥٠ ق . م .

والدور الثاني لما انتقلت العاصمة من صرواح إلى مأرب واختص الملوك بالسلطة الزمنية وصار لقبهم ملك سبأ . وهذا الدور هو أزهى عصور الدولة السبئية ودام أكثر من خمسة قرون .

ظل السبئيون في يسار وترف زائدين وإذا تصدعت السدود رمموها إلى أن ظهرت بوادر ضعفهم ، وفقدت قوافل البر ما كان لها من الشأن ، وذلك بتقدم فن الملاحة لدى الرومانيين الذين خلفوا اليونان بعبور الطرق المائية في البحرين الأبيض والأحمر مكان الطرق البرية المعرضة لخطر غارات البلاد وقطاع الطرق دائماً ، فضعف شأن السبئيين ، وتحولت غايتهم من شرقي اليمن الذي مالت ظواهره الجوية من الخصب إلى الجدب أكثر من قبل . وانتقلوا إلى اليمن الأعلى فعمروا في مدينة ريدان وهي الآن قرب بلدة يريم الحالية ، وعمروا مدينة صنعاء أيضاً فأخذت مأرب بالتقهقر .

وانتقلت الدولة في سنة ١١٥ ق . م إلى الحميريين ، وهم من فروع السبئيين أو من أتباعهم ، وبالإمكان أن تعد دولتهم تتمة دولة السبئيين ، وكان ملوكهم يدعون ملوك سبأ وريدان ، ثم لما فتحوا حضرموت أضافوا كلمة : وحضرموت ، وكان حكام المقاطعات أو المخاليف يدعون بالأقيال أو الأذواء ، كذي يزن وذي جدن وذي أشرع .

ونقل الحميريون عاصمتهم إلى صنعاء ، وكانت دولتهم دولة حرب وفتح ، فقد نبغ من ملوكها وأقيالها من فتح البلاد المجاورة كحضرموت وعمان ، ودافع الأحباش الذين كانوا يطمعون باليمن ويهاجمونه الفينة بعد الفينة ، بدؤوا بذلك منذ القرن الرابع الميلادي .

وورث الحميريون تجارة السبئيين وزراعتهم وصناعتهم ، وزادوا فيها ركوب سفن البحر فوق ما كان لهم من قوافل البر . وأتقنوا فن جر الأثقال والريازة فبنوا مدناً وحصوناً وقصوراً شاهقة متعددة الطباق ، حتى بلغت فيما قيل عشرين سقفاً في قصر غمدان الذي كان في صنعاء ، أما الآن فلا يزيد عدد طباق قصور صنعاء الحالية على الخمسة أو الستة ، وأجادوا استثمار جبال اليمن ، فحولوا منحدراتها

السحيقة إلى حقول مدرجة لا يزال أعقابهم سكان اليمن الحاضرون يقلدونها ، وأكثروا من عدد السدود وعنوا بترميها كلما تصدعت ، فلم يغادروا قطرة تذهب سدى كما تذهب الآن ويا للأسف ، وحفروا المناجم واستخرجوا المعادن وصنعوا الطيوب والعطور وتاجروا بها وأثروا .

وما زال الحميريون في بذخ وترف وظهور وعلو يد ، حتى زاد حسد الأحباش وطمعهم بهم ، فاتخذوا اضطهاد أحد ملوك حمير لنصارى نجران حجة ، وكان اسم هذا الملك الحميري يوسف ذي نواس ، وكان متهوداً يجبر الناس على التهود ويضطهد المتنصرين ويحرق بعضهم في الأخاديد ، ولما استجار نصارى نجران بقياصرة بزنطية كلفوا هؤلاء الأحباش محاربة ذي نواس ، فجاء الأحباش بهذه الحجة وانقضوا على الحميريين سنة ٥٢٥ م وغلبوهم بعد حرب ودفاع شديدين وعاشوا في بلادهم . ومن المؤسف أنهم خربوا القصور وبعثروا الآثار والنقوش الكتابية وقضوا على عمران اليمن كله الذي كان نتيجة جهود اثنين وعشرين قرناً في عهود المعينيين والسبئيين والحميريين . وما عملوه أنهم نشروا الديانة النصرانية واضطهدوا مخالفيها حتى أنهم بنوا في صنعاء كنيسة عظيمة دعوها (القليس) أرادوا أن تنافس الكعبة في مكة فيحج إليها العرب . لكنهم لم يفلحوا بذلك وأخفقت الحملة التي بعثوها إلى مكة لهدم الكعبة سنة ٥٧٠ م .

ولما عظم بلاؤهم على أهل اليمن وطال ، استنجد هؤلاء بالفرس فأنجدوهم بخصومهم المعينيين رغبة باستعمار اليمن ، وأرسلوا مع رئيس اليمانيين حينئذٍ ، وكان اسمه سيف بن ذي يزن جيشاً اشتبك مع القوات الحبشية وانتصر عليهم وطردهم ، بيد أن اليمانيين انتقلوا من نير الأحباش إلى النير الفارسي الذي غدر باليمن واحتله في حين أنهم كانوا قادمين لنجدته ، وقد أضعفت هذه الحروب الدولة السبئية وزاد ضعفها بتهدم سد مأرب ، فكان تهدمه الأخير الذي حدث حول سنة ٥٤٣ أو ٥٧٠ م مع مصيبة الأحباش ، وما أتوه من التهديم والتفظيع ، وغلبة الممالك

البحرية على البرية نهائياً ، وتحول الظواهر الجوية في مشارق اليمن وبراري الجوف من خصب إلى جدب ... كل ذلك كان سبباً في انتهاء عمران اليمن القديم وزوال سعادته التي بهرت عيون الرومان ، وضياع استقلال أهله ، لأن الفرس ولَّوْا نوابهم حكم الصين وبسطوا نفوذهم على جنوبي الجزيرة العربية ، كما كان منبسطاً على شماليها وشرقيها وما زالوا حتى ظهر الإسلام وانتشر في اليمن .



خلاصة تاريخ اليمن بعد الإسلام

عمال النبي ﷺ والخلفاء : لما أسلم باذان نائب كسرى ، ولاه النبي ﷺ على جميع مخاليف اليمن ، وبعث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعدداً من الصحابة لنشر تعاليم الإسلام في أنحاء اليمن .

وبقي باذان حتى مات بعد حجة الوداع ، فولى النبي عليه الصلاة والسلام ابنه شهر على صنعاء ، وولى ولاة آخرين على بقية اليمن إذ قسمها إلى عشر عمالات ، إلى أن خرج الأسود العنسي متنبئاً ، فلما قتل العنسي رجع عمال النبي إلى أعمالهم ، ولما توفي الرسول ﷺ ارتد أهل اليمن ، فحاربهم الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وأرجعهم إلى الإسلام ، وتوالت عماله وعمال من كان بعده من الخلفاء .

ولما استتب الأمر لأبي بكر في الجزيرة العربية شرع يستنفر قبائل العرب للجهاد في سبيل دعوة الإسلام ، فزحفت منها جحافل جرارة ، كان لليمانيين والحضرميين منها نصيب في الفتوحات الإسلامية التي بدأت في عهد أبي بكر ودامت إلى عهد من جاء بعده من الخلفاء الراشدين والأمويين ، وضربت من الجزيرة إلى حدود الصين والهند شرقاً والأطلنتيك غرباً ، وظل الخلفاء المذكورون يندبون قبائل العرب للغزوات ويستحثونهم للفتوحات بدون انقطاع ، لأنهم مادة الإسلام وعصبه ، فكانت القواصي تأكلهم ، والحروب تفني منهم مئات الألوف .

ويظهر أن الخلفاء المذكورين وعمالهم في اليمن لم يتسع لهم الوقت والفكر لإعادة عمران اليمن وتشييد سدوده ، بل اكتفوا بإقرار الأمن وجبي الخراج

واستنفار القبائل إلى الجهاد . فخلا كثير من ديارهم الأصلية ، وصفرت الجزيرة عامة واليمن خاصة ممن يكفي للتعمير والتشييد المذكورين . فكان في ذلك ضرر بليغ دامت آثاره إلى يومنا هذا .

وتوزعت فلول القبائل اليمانية الزاحفة في الأقطار المفتوحة ، وظلت محتفظة بأسمائها اليمانية على الرغم من تعاقب الأجيال ، إلا أن روح العصبية الجاهلية التي عفّى الإسلام على أثرها ، وشدّد في النعيّ عليها ، ذر قرنها بعد في أوائل العهد الأموي ، بين اليمانيين والقحطانيين ومنافسيهم من القيسيين والنزاريين ، وانتشرت في الأقطار المفتوحة ولا سيما في الشام وخراسان والأندلس ، ودامت هذه الروح الخبيثة عصوراً عديدة ، تشب نارها تارة وتخمد أخرى . سالت بسببها دماء غزيرة كانت من أكبر العوامل في ضعف الأمة العربية ، وتغلب الأعاجم على أمرها ، وزوال مجدها من تلك الأقطار .

ومن أحداث تلك الحقبة في اليمن ، الاقتتال الذي جرى بين عمال علي ومعاوية إلى أن استتب الأمر لمعاوية ، ومنها نهوض عبد الله بن يحيى الكندي الحضرمي سنة ١٢٩ هـ بدعوة الإباضية ، وطلبه الخلافة لنفسه من مروان بن محمد الأموي ، وزحفه واستيلائه على صنعاء ومكة المكرمة والمدينة إلى أن جهز عليه مروان جيشاً قتله وأخمد فتنته ، ومنها انصراف رؤساء اليمن إلى التنازع والاختلاف .

ولم تزل عمال الخلفاء متوالية على اليمن في عهد الأمويين إلى أيام المأمون العباسي . ولما ظهرت دعوة الأشراف العلويين بالنواحي ، جاء منهم إبراهيم بن موسى الكاظم إلى اليمن سنة ٢٠٠ هـ واستخلصه من عامل المأمون ، واستفحل أمره ، وكان يسمى الجزار لكثرة من قتل وسبى ، ولكن أمره لم يتم ، لأن المأمون لما بلغه اختلال أمر اليمن وانتشار دعوة الأشراف العلويين فيه ، وجه إليه محمد بن

إبراهيم بن زياد بن أبيه ، ضامناً له صيانته من العلويين ، فقدمها سنة ٢٠٣ هـ وفتح تهامة بعد حروب ، واحتل مدينة زبيد سنة ٢٠٤ هـ وصيّرها كرسياً لمملكته ، وعظم أمره بعد ذلك في كل اليمن وحضرموت ، وصار ملكاً مستقلاً إلا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا .

دولة بني زياد ٢٠٣ هـ - ٤٠٧ هـ : ثم صار الملك في أبناء محمد المذكور ، ولما رأى هؤلاء بعد ، ماحل ببني العباس من الضعف ، استبدوا وألفوا دولة بني زياد ، وصاروا يحكمون التهائم دائماً والجبال أحياناً . ومن مشهوريهم الذي طالت مدته واتسعت سلطته وثروته أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩١ هـ . وكان مبلغ جبايته فيما قيل ١٣٦٦٠٠٠ من الدنانير الغثرية[1] ماعدا ضرائبه على مراكب السند وعلى العنبر الواصل بباب المندب وعدن أبين ، وعلى مغائص اللؤلؤ ، وعلى جزيرة دهلك[2] ومن بعضها وصائف ، وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر يهادونه ويخطبون مواصلته . ودامت دولة بني زياد نحو قرنين إلى أن انقرضت سنة ٤٠٧ هـ .

دولة بني يعفر ٢٤٧ هـ - ٣٨٧ هـ : وفي عهد بني زياد كان في الجبال دولة اسمها دولة بني يعفر ، لمؤسسها يعفر بن عبد الرحيم الحوالي ، وكانت قاعدتهم صنعاء إلا أن أمراءها كانوا يدفعون الخراج إلى بني زياد في زبيد ، كأنهم عمال لهم ، كما كان بنو زياد نواباً للخلفاء العباسيين .

دولة الأئمة الزيدية : لما اشتدت قسوة الخلفاء العباسيين على الأشراف العلويين وأخفق هؤلاء في وثباتهم العديدة التي قاموا بها لنيل الخلافة في العراق والمغرب والحجاز وجرجان وطبرستان ، وقتل منهم بالتتابع أناس كثيرون وكان

---

(١) غثر : اسم موضع بتهامة يظهر أنه كانت تضرب فيه الدنانير .

(٢) دهلك : جزيرة في وسط البحر الأحمر قريبة من الساحل الإفريقي ، نفي إليها الشاعر الأحوص المتوفى سنة ١٠٥ هـ .

منهم صاحب الدعوة الزيدية ، زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، خرج زيد هذا على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي فقتل وصلب سنة ١٢٢ هـ وخرج بعده يحي فقتل كذلك سنة ١٢٥ هـ .

واستمر القتل والتشتيت في هؤلاء الأشراف من قبل الأمويين والعباسيين إلى أن التجأ أحدهم إلى اليمن في سنة ٢٨٠ هـ ، وهو الحسين بن القاسم الرسي ، فكان من عقبه أئمة الزيدية في اليمن ، وأول من خرج منهم ابنه يحي في صعدة شمالي اليمن وتلقب بالهادي سنة ٢٨٨ هـ ، ونشر دعوته الزيدية ، وحارب بني يعفر ، وملك صنعاء وما بينها وصعدة ، وحارب أيضاً علي بن الفضل القرمطي ، ثم ارتجع بنو يعفر البلاد التي أخذها ، ورجع هو إلى صعدة ، وبعد موته في ٢٩٨ هـ توالى قيام أخلافه من الأئمة .

وعلي بن الفضل المذكور ، رجل نشأ في تلك الحقبة في اليمن الأسفل ، كان قرمطي المذهب ادعى بعد بالنبوة وأباح لأتباعه كل المحظورات ، كشرب الخمر ونكاح البنات والأخوات وسائر المحارم ، واستفحل أمره في كل اليمن وقتل خلقاً كثيراً ، واستمر أمره ثلاث عشرة سنة . وحاربه الإمام الهادي إلى أن مات مسموماً سنة ٣٠٣ هـ وانطفأت فتنته .

دولتا بني نجاح وبني الصليحي ٤٠٧ هـ - ٥٥٣ هـ : وبعد انقراض آل زياد سنة ٤٠٧ هـ ، حكم التهائم فروع منهم كانوا عبيدهم وعبيد عبيدهم ، منهم عبد اسمه نجاح ، استقل بملك التهائم أربعين سنة . ولما مات خلفه ابنه سعيد الأحول ، فثار عليه رجل من أمراء الجبال اسمه الصليحي ، كان يدعو للفاطميين أصحاب مصر ، في حين كان سعيد وأبوه من قبل يدعو للعباسيين ، واغتصب الصليحي زبيداً ، لكن سعيداً عاد وهاجم الصليحي وقتله ، وظلت زبيد تتعاورها أيدي أبناء الصليحي تارة وسعيد بن نجاح أخرى ، والغارات دائرة بينهما إلى أن قتل سعيد فخلفه أخوه ، ثم أبناء أخيه إلى أن انقرضوا سنة ٥٥٣ هـ

وبقي أمر اليمن ، في تقلقل ، الجبال لرجل وتهامة لآخر ، وعدن لغيرهما إلى أن ظهرت دولة بني المهدي .

دولة بني المهدي ٥٥٤ هـ ـ ٥٦٤ هـ : ملك منهم ثلاثة ، وكانت عاصمتهم زبيداً ، ولكن لم تطل مدتهم كثيراً . أولهم علي بن مهدي الحميري ، كان في بدء أمره رجلاً صالحاً وواعظاً ، فمال إليه الناس واستفحل شأنه واعتصم بالحصون ، ثم حاصر زبيداً عقيب موت آخر بني نجاح واستخلصها من عبيدهم . وبعد موته ملكها ابنه ثم حفيده ، إلى أن قدم تورانشاه بن أيوب وقضى عليه ، وكان مذهب علي بن المهدي ، التفكير بالمعاصي وقتل مخالفيه في العقيدة .

دولة بني أيوب ٥٦٩ هـ ـ ٦٢٠ هـ : كانت دار ملكهم زبيد ، وأولهم الملك المعظم تورانشاه بن أيوب ، وسبب قدومهم إلى اليمن أن السلطان صلاح الدين بن أيوب وأهله كانوا خائفين من نور الدين محمود زنكي ، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر ، فإن قصدهم نور الدين قاتلوه ، فإن هزمهم التجؤوا إلى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه المعظم شمس الدين تورانشاه إلى اليمن في سنة ٥٦٩ هـ ، وكان صاحبها عبد النبي بن علي بن المهدي ، فحاصره تورانشاه في زبيد حتى طلب الأمان وأسره واستخلص زبيد منه ، ثم استخلص عدن من أصحابها بني زريع ، وفتح صنعاء ودانت له بلاد اليمن كلها . ثم رجع إلى دمشق ٥٧١ هـ ثم إلى مصر فالإسكندرية وظل نوابه يديرون اليمن ويبعثون إليه بأموالها .

ولما مات تورانشاه سنة ٥٧٦ هـ ، أرسل صلاح الدين أخاه الثاني الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وجعله والياً على اليمن ، فجاء طغتكين وقبض على نواب أخيه الذين كانوا يتنازعون واستصفى منهم أموالاً عظيمة ، وظل يحكم في اليمن خمس عشرة سنة ، بنى خلالها قلعة جبل التعكر وقلعة حب وحصن وكوكبان وسور صنعاء وسور زبيد سنة ٥٦٣ هـ ، ثم ملك بعده ابنه

العزيز إسماعيل ، وكان فيه هوج وخبط فأساء السيرة فقتله أمراؤه ، وملك بعده أخوه الناصر أيوب ، وكان صغيراً ، فقام بتدبير مملكته أحد مماليك أبيه ، ولما مات الناصر مسموماً سنة ٦١١ هـ خلفته أمه مدة وظلت تنتظر وصول أحد من بني أيوب لتتزوج به وتملكه البلاد ، فجاءها أحدهم وهو سليمان بن سعد الدين بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وكان فقيراً يحمل الركوة على كتفه ، ويتنقل مع الفقراء[١] فأحضرته وولته ، فملأ اليمن ظلماً وجوراً واطرح زوجته وولية نعمته ، فبعث إليه عمّه الملك الكامل محمد أحد أبنائه المسعود (يوسف المعروف بصلاح الدين) فاعتقل سليمان وتولى اليمن سنة ٦١١ هـ ثم كره المقام فيه فرجع قاصداً الشام سنة ٦٢٠ هـ ، وأناب عنه عمر بن علي بن رسول الغساني الذي كان أستاذ داره ، فتغلب على اليمن وانتهت دولة بني أيوب وكانت مدتها ٥٧ سنة .

دولة بني الرسول الغسانيين ٦٢٠ هـ ـ ٨٥٨ هـ : أصل هؤلاء تركمان ، لكنهم زعموا أنهم عرب من أعقاب جبلة بن الأيهم آخر ملوك بني غسان ، صاحب القصة المعروفة مع الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأن بعض أحفاد جبلة كان اندمج في عشيرة تركمانية فصاروا من التركمانيين ، ولكنهم عرب غسانيون في الأصل .

وقد كان أحدهم خدم الخلفاء العباسيين وكانوا يرسلونه رسولاً إلى خدمة صلاح الدين الأيوبي ، وأحسنوا الخدمة ، فبعثهم مع أخيه تورانشاه إلى اليمن ، وبرز بينهم علي بن رسول ، استقر نائباً لبني أيوب حتى مات فخلفه ابنه (نور الدين عمر) ، وتلقب بالملك المنصور واتسعت سلطته ، وفي عهده ظهر الإمام شمس الدين أحمد الزيدي ، واستفحل أمره في الجبال فحاربه الملك المنصور وغلبه .

---

(١) أبو الفداء ١٠٨/١

وبنى المنصور في اليمن كثيراً من المساجد والمدارس ، وله في مكة مدرسة كبيرة ، وظل مالكاً إلى أن اغتاله مماليكه الذين كان استكثر منهم . وذلك في سنة ٦٤٧ هـ ، فخلفه ابنه (المظفر يوسف) ، وحارب الإمام أحمد الزيدي وغيره من أئمة الزيدية مراراً ، وكان عالماً فاضلاً ، صفا له ملك اليمن وطالت مدته ٤٧ سنة ، وكان يؤدي أتاوة لملوك مصر المماليك وتحفاً وهدايا دامت حتى زمن أعقابه ، ولما مات سنة ٦٩٤ هـ خلفه ابنه (الأشرف عمر) وكان كأبيه وجده عالماً فاضلاً ومدبراً ، ظل سنتين فقط ، فخلفه أخوه (المؤيد هزبر الدين داوود) حارب الأئمة الزيدية مراراً وكان يتغلب تارة ويغلب أخرى ، وتبع المذهب الشافعي واشتغل بالعلم واعتنى بجمع الكتب ، حتى اشتملت خزائنه على مئة ألف مجلد ، وبرَّ العلماء .

ولما مات سنة ٧٢١ هـ خلفه (المجاهد علي) ، ظل ملكاً ٤٣ سنة .

ولما مات سنة ٧٦٤ هـ خلفه ابنه (الأفضل عباس) فمضت أيامه في الفتن ، وكان يهاجمه أئمة الزيدية وأشراف مكة وتثور عليه القبائل ، وكان منصرفاً إلى العلم والتأليف .

ولما مات سنة ٧٧٨ هـ خلفه ابنه (الأشرف إسماعيل) ، فمرت أيامه بسلام ، وظل خمساً وعشرين سنة ، ثم توالت بعده الملوك ، وثارت في زمنهم فتن كثيرة ، وضعف أمرهم إلى أن انقرضوا سنة ٨٥٨ هـ وانتقل الملك إلى وزرائهم بني طاهر .

كانت دولة بني الرسول في الجملة ، دولة علم وأدب وخزائن كتب وإنشاء مدارس وتأليف في التاريخ والطب وغيرهما ، مما عز نظيره في بقية دول اليمن بله دول الشرق كله في تلك العصور وبعدها .

وصف القلقشندي في صبح الأعشى ص ٥٠١ زيهم وشعارهم وأرباب وظائفهم وعاداتهم في إنشاء الدواوين واقتدائهم بالسلاطين المماليك المصريين في الأبهة وذكر

كثرة أموالهم ولهوهم وعنايتهم بالتجار وأرباب الصناعات وإكرامهم للغرباء والقصاد ، وأن أحدهم لا ينزل في أسفاره إلا في قصور مبنية له في منازل معروفة من بلاده ، فحيث أراد النزول بمنزلة وجد بها قصراً مبنياً ينزل فيه . قال : « وإنما تجتمع لهم الأموال لقلة الكلف في الخرج والمصاريف والتكاليف لقلة أعوانهم ولأنهم محجوبون ببحر زاخر وبر منقطع من كل جهة ، ولأن الهند يمدهم بمراكبه ويوصلهم ببضائعه ، وكانوا مع أئمة الزيدية في المشاجرة والمهادنة تارة والمفاسخة أخرى . وكان مشتاهم في زبيد ومصيفهم في تعز ويمتلكون كل التهائم الغربية والجنوبية واليمن الأسفل بما فيها تعز ولحج وعدن والشحر ، وكانوا يقدمون إلى السلاطين المماليك في مصر الضريبة المقررة والهدايا والتحف في كل سنة ، ويستنجدون بهم عند العجز ، وتأتيهم من مصر الجنود وتؤازرهم فيما يطلبونه من إقرار الأمن أو تأييد السلطنة . ويذكر من مؤلفي الكتب بينهم : المظفر يوسف بن عمر له (المعتمد في مفردات الطب) مرتب على الحروف الهجائية ، طبع في مصر في مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وله كتاب في صناعة الإصطرلاب وعملها ، عليه إجازات من علماء الهيئة ، وهو من مخطوطات الخزانة التيمورية في مصر على مابلغني . والأفضل عباس بن علي ، له (نزهة العيون) في تاريخ اليمن و (طبقات فقهاء اليمن) و (مختصر ابن خلكان) ، وابنه الأشرف إسماعيل له (المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك) .

وقد جمع الشيخ علي بن الحسن الخزرجي أخبار هذه الدولة في كتاب أسماه (العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية) طبع في مطبعة الهلال في مصر سنة ١٣٢٩ هـ ـ ١٩٦٦ م على نفقة أوقاف ذكرى السيد حبيب الأسكتلاندي .

دولة بني طاهر ٨٥٩ هـ ـ ٩٤٥ هـ : زعم هؤلاء أنهم من أعقاب الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ، ولا يعلم كيف ومتى دخلوا اليمن وصاروا وزراء لبني الرسول ، وقوي شأنهم حتى طمعوا بالملك لما ضعف سادتهم .

أولهم الظافر عامر بن عبد الوهاب ، أخذ بلاد اليمن بعضها من بني الرسول وبعضها من أئمة الزيدية إلى أن قتل في حربه معهم قرب صنعاء ، فخلفه أخوه (المجاهد علي) سنة ٨٧٠ هـ ، وكان هذا جواداً عالماً بنى مدارس عديدة ، وجلب لها أساتذة من مكة وغيرها ، ثم خلفه ابنه (الظافر عامر) سنة ٨٩٤ هـ ، وكان عادلاً ومحباً للعلم والعلماء ، حارب أئمة الزيدية في الجبال وغلبهم واستولى على صنعاء ، فأوت فلولهم إلى صعدة . وفي عهده ظهر البرتغاليون واستولوا على بعض سواحل الحجاز واليمن والهند ، واستفحلت شرورهم ، فاستجار بالملك عامر الغوري آخر ملوك الشراكسة في مصر ، فأرسل إليهم قانصوه الغوري عسكراً وسفناً بقيادة أمير اسمه حسين الكردي مشهور بعسفه وجبروته .

وطرد هذا الأمير البرتغاليين من سواحل الحجاز واليمن لكنه أخفق في مقاتلتهم في سواحل الهند ، فرجع إلى اليمن وطمع في الاستيلاء عليه ، فهاجمه واستولى على الحديدة وزبيد . فدافعه الملك عامر وما زال يناضل عن ملكه تجاه الأمير حسين تارة والإمام شرف الدين وابنه المطهر حتى خرَّ صريعاً في إحدى الحروب سنة ٩٢٣ هـ ، فخلفه ابن عمه (عامر بن داوود) وثابر هذا على قتاله مع الإمام المطهر ، لكنه غلب وضعف أمره وجاء الترك العثمانيون في تلك الحقبة بعد أن فتحوا مصر وهاجموا عدن آخر مقر للملك عامر فقتلوه صلباً ، وبه انتهت الدولة الطاهرية ، وهي آخر الدول الشافعية الكبرى التي حكمت اليمن ، امتحنت بمحاربة البرتغال والشراكسة والأتراك من الخارج ، وفتن أئمة الزيدية من الداخل .

الشراكسة في اليمن : يظهر أن هؤلاء كانوا من حثالة مماليك الشراكسة الذين حكموا مصر ، ملك اليمن منهم ثلاثة أمراء . وكان ظهورهم سنة ٩٢٢ هـ ، وقد بقوا خمس سنوات لم يأتوا إلا بما لا يحمدون عليه .

أولهم الأمير حسين الكردي ، وكان سبب دخوله اليمن أنه بعد رجوعه من

الهند غير موفق كما قدمنا ، جاء إلى سواحل اليمن وبعث يطلب من الملك عامر ـ آخر ملوك بني طاهر ـ مؤنة لعسكره ، ولما رفض عامر تلبية الطلب غضب حسين وعزم على سلبه بلاده ، وقيل : إن الإمام شرف الدين الذي سيأتي ذكره ، حرضه على ذلك وأعانه بجمع من الزيدية ، وكان مع الأمير حسين مدافع وبنادق نارية مما كان يجهله اليمانيون وقتئذ ، فانتصر بهذه الأسلحة الحديثة ، على جند الملك عامر واستولى على الحديدة وزبيد ونهبهما .

ثم ذهب إلى عدن وحاصرها بسفائنه فلم يفز بطائل ، وبعد أن أخذ ما أخذ أبقى نائبه (برسباي) في اليمن ، ورجع إلى جدة فقتل فيها ، وبعد ذهاب حسين تفرد برسباي المذكور في اليمن واجتمع إليه عدد من بقايا الشراكسة الذين خرجوا من مصر على أثر دخول السلطان سليم العثماني ، وظل برسباي يجور ويستبد ، ثم سار إلى حرب الملك عامر الذي كان ضعف أمره فغلبه واستولى على تعز ونهبها ، وظل لاحقاً بقفا عامر حتى قتله وشتت شمل أتباعه .

ثم جاء صنعاء وأخذها من عامل الملك عامر وعذبه واستصفى أمواله ، كما نهب عسكره صنعاء وأفحشوا فيها ، وبينما هو راجعون إلى زبيد بما غنموه هاجمتهم قبائل الجبال فقتلت برسباي وكثيراً من أمرائه وجنوده واستولت على غنائمه ، فخلفه في زبيد الأمير الإسكندر ، وكان يحكم التهائم ، كما كان الإمام شرف الدين يحكم الجبال .

ولما بلغ إسكندر أن السلطان سليم أتم فتح مصر وقضى على دولة المماليك الشراكسة وأخذ الخلافة ، صار يخطب باسمه ، لكن ذلك لم ينفعه ، فقد داهمه الترك العثمانيون سنة ٩٣٧ هـ وقتلوه واستولوا على اليمن ، وسيأتي بيان ذلك .

دولة الأئمة الزيدية أيضاً : عقب وفاة الإمام الهادي يحي بن الحسين الرسي الذي تقدم ذكره ، خلفه أبناؤه في منزلتهم في صعدة لا يتجاوزونها إلى الجنوب إلا قليلاً .

ولم تـزل إمـامـة هـؤلاء الرسيين مطردة خـلال القرن الخـامس إلى أن وقـع الخلاف بينهم ، وجاء فرع من أبنـائهم واسمهم السليـانيون ، فغلبوا على صعـدة في القرن السادس .

وأول السليـانيين المتوكل أحمـد بن سليـان المتوفى عـام ٥٦٦ هـ هـاجم زبيـد واستخَلصها من بني المهدي ، ثم أضاعها ، وخلفه المنصور عبـد الله سنـة ٥٩٣ هـ ، فحـاربـه طغتكين والملـك المسعـود الأيـوبيـان ، ثم رجـع بنـو الرسي واستعـادوا الإمـامـة ، وكان أولهم الموطـأ أحمـد الـذي حـارب ملوك بني الرسول إلى أن قتلـه أتباعه وحزوا رأسه سنة ٦٥٦ هـ وخلفه آخرون ألقـابهم : المؤيـد بـالله ، والمنصور بالله ، والمهدي لدين الله ، والمطهر ، والناصر ... إلى كثير من أمثال ذلك .

ولما كانت أحكام المذهب الزيدي ، ليس فيها إمامة بالنص ولا باليقين ، ولا مجال لتسمية أولياء للعهد جاز لكل سيد فاطمي ، عالم زاهد ، شجـاع سخي قـادر على القتال في سبيل الحق يخرج للمطالبة ، أن يكون إماماً .

وقـد اشترطت تلـك الأحكام على الإمـام أن يخرج على الأمراء والسـلاطين أيضاً للمطالبة بالخلافة ، لهذا صار كل سيد فاطمي في اليمن يرى في نفسـه حيـازة هذه الشروط ، يخرج لتقليد الإمامة ، فإذا ماستولى عليها يقوم لطلب الخلافـة ، ويثير لأجلها الفتن والاضطرابات ويشهر الحروب ويخوض المعـارك ، حتى ينـال مبتغـاه ويسود ، أو يخفق في مسعـاه ، فيـأوي إلى أحـد المعـاقـل متحينـاً الفرص للوثوب والقتال . وهكذا ، ولا بأس إذا هلك خلالهـا حرث اليمن ونسلـه وتقرض عمرانه وشقي من بقي من سكانه .

وصف القلقشندي هؤلاء الأئمة في كتابه صبح الأعشى (ص ٥١) فما قالـه : أماراتهم أعرابية بدون كبر ولا شمم ، وربما اشترى أحدهم سلعته بيـده ، ومشى بها في أسواق بلده ، وما منهم إلا ويعتقد في نفسه ويعتقد أشياعه فيه أنه إمام معصوم

مفترض الطـاعـة ، ويرون أن ملوك الأرض وسلاطين الأقطـار يلـزمهم طـاعتـه ومبايعته حتى خلفاء بني العباس ، وأن جميع من مات منهم عاصياً يترك مبايعتـه ومتابعته ، وهم يزعمون ويزعم لهم أن سيكون لهم دولة يـدال بهـا بين الأمم وتملـك منتهى الهمم ، وأن الإمام الحجة المنتظر في آخر الزمـان منهم ، يتربصون الـدولـة في أقطار الأرض . اهـ .

قلت : إن هذه المعتقـدات الغريبـة والمزاعم البعيـدة المثـال ، نـاهيـك بشرط الخروج على الأمراء والسلاطين بطلب الخـلافـة ، المكلفين بـه بحكم الإمـامـة ، كل ذلك كان يدفع بهؤلاء الأئمة دائماً إلى إيقـاد نيران الفتن والحروب ومحـاربـة الـدول الحاكمة في التهائم والجبال ليصفو لهم اليمن أولاً ، ثم يتجاوزون إلى غيره ...

وقد لبثوا منذ أواخر القرن الثالث إلى منتصف القرن العاشر يهـاجمون ملوك بني يعفر وبني المهدي وبني أيوب وبني الرسول وبني طاهر ، كما هاجموا بعـد الترك العثمـانيين . وذلـك كلمـا آنسـوا في أنفسهم قـوة وفي أولئـك ضعفـاً ، فـإن ظفروا امتلكوا صنعاء واستقروا فيها ومـدوا أيـديهم حتى زبيـد ولحج وحضرموت ، وإن فـاز أولئـك عليهم انكمشوا إلى معـاقلهم في صعـدة ، وأخلـدوا إلى سكينـة مـوقتـة يتحينون الفرص للوثوب ، ويكون ويكون بينهم وبين ملـوك الـدول كما جـاء في صبح الأعشى مهـادنـات ومفـاسخـات تـارة وتـارة ، وإذا تفـاسخوا يكون النصر سجالاً بين الفريقين .

وكثيراً ما كان يظهر للإمام منهم من إخوانه وأبناء عمه معارض أو معارضـان أو ثلاثة أو أربعة في وقت واحـد ، أو في أوقـات متتـابعـة لجواز ذلـك في المـذهب الزيدي ، ولادعاء كل منهم بحيازة شروط الإمامة أكثر من غيره ، فلا يسع القوي منهم إلا مهـاجمـة الضعيف ، فينشب القتـال فتسفـك الـدمـاء حتى يفـوز أحـدهم وينفرد بها ، وفي خلال ذلك تبقى بلاد اليمن المنكودة الحـظ في أمر مريع وعويل

وضجيج ، وقل من هؤلاء الأئمة من مات حتف أنفه ، بل إن كثيراً منهم مضى مسجوناً أو مسموماً أو محزوز الرأس أو مسمول العين .

ولا تتسع هذه العجالة لأسمائهم وأخبارهم وأعمالهم التي ليس فيها سوى أحاديث الفتن والكوارث الآخذ بعضها برقاب بعض ، وكلها من أجل نوال الإمامة أو تدعيم السيادة ، على أن كثيراً من هؤلاء الأئمة كان على جانب غير يسير من علوم اللغة والمذهب الزيدي ، ولبعضهم في هذه العلوم فقط مؤلفات[1] .

أما في موضوعات العمران والإنشاء وفيما يعود لإصلاح البلاد وإسعاد العباد فلم ير أو يسمع أن أحداً منهم أتى بأثر جدير بالتنويه والشكر على الرغم من مؤاتاة الأحوال وطول البقاء لكثير منهم ، مما يدل على أن هذه الأمور والأعمال الأساسية كانت خارج تصورهم وتقديرهم ، اللهم إلا بعض الأضرحة والقبب والمساجد والبرك . وقد زرت قسماً منها سنة ١٣٥٤ هـ وتحققت ذلك الإهمال والتواني .

وقد برز من هؤلاء الأئمة في الحروب والغارات خلال القرن العاشر المتوكل يحيى شرف الدين الذي دامت إقامته ٤٢ سنة (٩٢٣ هـ - ٩٦٥ هـ) ، فقد قاتل ملوك بني طاهر وأمراء الشراكسة وباشوات الترك العثمانيين ، ثم خلفه ابنه

---

(١) إن كثيراً من هذه المؤلفات التي وضعها الأئمة المذكورون وملوك بني الرسول وغيرهم ممن نبغ في اليمن من قبل ومن بعد قد خرج من اليمن وانتقل إلى استانبول بيد الترك ، أو إلى إيطالية بيد الإيطاليين ، وقد جمع الإيطاليون واشتروا كتباً كثيرة من اليمن ، ووضعوها على ما علمت في مكتبة الأمري وزيلفا في ميلانو ، ومعظمها في فقه المذهب الزيدي ، وبعضها دواوين شعر لبعض الشعراء باليمن ، وقليلها في تاريخ اليمن عامة وصنعاء خاصة ، وما زال خروج الكتب مستمراً حتى فقدت كتب التاريخ الصالحة للمراجعة أو كادت . حتى إن اللجنة التي ألفتها إدارة المعارف في صنعاء لتدوين تاريخ اليمن ظلت تذيع في جريدة الإيمان (كما في العدد ١٤٣ ربيع الثاني ١٣٥٧) وتستنهض جميع من عنده أمثال هذه الكتب لكنها لم تظفر ببغيتها إلا قليلاً فيما يظهر .

المطهر ، وهذا دامت إقامته ١٥ سنة (٩٦٥ هـ ـ ٩٨٠ هـ) كان اليد اليمنى لأبيه من قبل ، وقد قاتل عامر عبد الوهاب وعامر داوود وكانا آخر ملوك بني طاهر كما قاتل الترك العثمانيين في معارك عظيمة استمرت أعواماً طويلة .

ويشبهه في مقاتلة الترك المنصور القاسم بن محمد المتوفي سنة ١٠٢٩ هـ إلى أن خرج الترك في زمن خلفه المؤيد محمد بن القاسم سنة ١٠٤١ هـ ، فخلا الجو في اليمن بعدهم للأئمة وتفردوا في حكم الجبال والتهائم كلها حتى عدن وحضر موت وذلك خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر وكل الثاني عشر وأكثر الثالث عشر (١٠٤١ هـ ـ ١٢٨٩ هـ) .

ولم يخل أحد هؤلاء المدة الأخيرة المذكورة أيضاً من معارضين من إخوانه وأبناء أعمامه ، وكل منهم يحاول التفرد بالإمامة ، فيقوم في أحد أنحاء الجبال ويدعو لنفسه ، وتهيج الفتن والكوارث الدامية الهدامة التي تقدم وصفها ، وهي من أجل أسباب زوال سعادة اليمن القديمة ،

ولم ينبغ في هذه المدة منهم سوى المتوكل إسماعيل المتوفى سنة ١٠٧٩ هـ ، ظل إماماً ٣٣ سنة ، واستولى بعد معارك شديدة على لحج وعدن وحضرموت ، إلا أن قبائل هذه البلاد وأمراءها ظلوا يناجزون الأئمة الذين خلفوا المتوكل إسماعيل حتى تم لهم الخلاص والاستقلال عنهم حول سنة ١١٤٥ هـ .

ونبغ منهم أيضاً المهدي العباسي المتوفى سنة ١١٨٩ هـ واشتهر بفضله وببناء المساجد والبرك وباستقرار الأمن نوعاً ما في عهده ، وهذا هو الإمام الذي بنى الهوى في اسمه سائله ، وهو الذي زاره السائح الدانمركي نيبوهر سنة ١١٧٦ هـ ووصف كيفية دخوله عليه ودرج في رحلته صورة مجلس الإمام المذكور[١] .

وظل حال الأئمة على شيء من القوة إلى أن ضعف في أوائل القرن الثالث

(١) وصف جزيرة العرب لنيبور (١٧٣٣ ـ ١٨١٥) (م إ) .

عشر ، وكثرت الفتن في ديارهم وعجزوا عن إطفائها ، واشتد الاختلال والاعتلال في عهد المنصور علي بن العباس والمهدي عبد الله بن أحمد ومن أتى بعدهما ، وثارت القبائل سنة ١٢١٦ هـ وعمت الفوضى وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة سنة ١٣٢٣ هـ ، وخرجت التهائم من يد الأئمة إلى يد الأشراف من أهلها وظلت في يدهم إلى أن أرسل خديوي مصر محمد علي باشا جيشاً في سنة ١٢٥١ هـ ، واستولى على عسير والحديدة ومخا وتعز ومخاليفها ثم تركها لهم سنة ١٢٥٦ هـ . وانحصر الأئمة في اليمن الأعلى فقط . والفتن قائمة والسبل خائفة والشرائع عاطلة ، وحولهم قليل إلى أن اضطروا إلى استدعاء الترك العثمانيين سنة ١٢٦٥ هـ أولاً ، ثم في سنة ١٢٨٩ هـ ثانياً على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

الدولة العثمانية في دورها الأول ٩٢٧ هـ ـ ١٠٤١ هـ :

لما فتح السلطان سليم مصر سنة ٩٢٣ هـ واستولى على الخلافة ، وصار يخطب له في الحجاز أيضاً ، رأى أن لا بد من أخذ اليمن ما دام اليمن دعامة الحجاز ، وبلغ نوابه في مصر وجدة ضعف حال اليمن في تلك الحقبة وخلوه ممن يحسن الذود عنه ، فبعثوا من قبلهم أمراء وجنوداً جاؤوا في سنة ٩٢٧ هـ وقتلوا الأمير إسكندر الشركسي واستولوا على التهائم واليمن الأسفل فقط ، أما اليمن الأعلى في الجبال فقد ظل بيد الإمام يحيى شرف الدين .

لكن أولئك الأمراء ظلوا عدة سنين يتنازعون فيما بينهم على الولاية ولم يحسن أحدهم الإدارة والسياسة ، فرأى الإمام شرف الدين ، الذي أشرنا إلى مقدرته وبسالته ، الفرصة سانحة فشرع سنة ٩٣٤ هـ هو وابنه المطهر يناجز العثمانيين ويدفعهم حتى أخذ التهائم ووصل إلى لحج وأبين وجيزان وأبي عريش ، ولم يبق في يد العثمانيين سوى زبيد التي تحصنوا وراء أسوارها .

ولما رأت الدولة هذه الحالة ، بدأت منذ سنة ٩٤٥ هـ تهتم باليمن وصارت

ترسل من العاصمة قواداً أكثر عدداً وكفاية من الأولين ، وجعل هؤلاء استرداد اليمن وإكمال فتحه نصب أعينهم ، وما زالوا يراوحون الإمام شرف الدين القتال ويغادونه ، حتى تسنى لأحدهم : إزْدِمير باشا أن يستولي بعد معارك شديدة على صنعاء في سنة ٩٥٤ هـ . ثم سار إلى الشمال واستولى على صعدة في سنة ٩٦٠ هـ فدان له بذلك كل اليمن وعدوه : (فاتح اليمن الأول) ، وعقد صلحاً مع الإمام المطهر الذي خلف أباه ، وظل هذا بموجبه قابعاً في معتصمه في حصن ثلا . ثم جاء بعده ولاة ضعفاء كان أحدهم واسمه رضوان باشا مأفوناً[1] فنقض الصلح المعقود مع الإمام المطهر واعتدى عليه ، لكنه لقي جزاء بغيه وانكسر في المعارك التي أثارها ، وكان سبباً لانتقال أكثر بلاد اليمن إذ ذاك إلى الإمام المطهر ، ولم يبق في يد العثمانيين سوى زبيد ، على أن هؤلاء لما رأوا ما حل بهم عادوا فأرسلوا سنة ٩٧٦ هـ قائداً مغواراً اسمه سنان باشا الكبير[2] استطاع بعد حروب هائلة أن يسترد أكثر بلاد اليمن من يد الإمام المطهر فعدوه (فاتح اليمن الثاني) .

ومن مشاهير الولاة الذين خلفوا سنان باشا ، يذكرون مراد باشا الملقب بحفار الآبار[3] وجد في سنه٩٨٣ هـ ، وبنى جامعاً في حصن صنعاء الداخلي المسمى بالقصر وآخر في تعز . وهو الذي جلب إلى صنعاء ماء من سفح جبل نقم فسمى هذا الماء (**غيل باشا**) .

---

(١) مأفوناً : ضعيف الرأي (ح) .

(٢) تولى سنان باشا هذا الصدارة العظمى عدة مرار وتوفي في سنة ١٠٠٤ هـ ، وكان صاحب أموال جسيمة ومبرات عديدة منها الجامع المنسوب إليه في دمشق ، والخانات التي ينزلها المسافرون في بلاد الشام وغيرها والباقي منها سالماً أكثر من غيره خان القطيفة وخان سعسع قرب دمشق ، وواحد في اليمن لا يزال يدعي باسمه ، هذا عدا المساجد والمدارس والحمامات ، أنفق على هذه المعاهد الخيرية فيما قيل مليوني دينار ، ويعد أكثر وزراء آل عثمان آثاراً ونفعاً لولا ما قيل أيضاً عن بطشه وجبروته .

(٣) لأنه كان في بلاد الأناضول وفي فتن الخوارج التي أطفؤوها ، وكان يلقي بجثث من يقع في يده في الآبار فلقب بها .

ويذكرون أيضاً حسن باشا الأرناؤوط في سنة ٩٨٨ هـ واستولى على صعدة وأجلى أبناء الإمام المطهر إلى إستانبول وبنى جامع البكرية المشهور والقائم حتى الآن في صنعاء ، وبنى مساجد وخانات عديدة .

ويذكرون أيضاً سنان باشا الكتخدا في سنة ١٠١٣ هـ له خيرات عديدة كتبليط عقبة شهارة وبناء مساجد وقبب وبرك .

ويذكرون أيضاً الحاج محمد باشا في سنة ١٠٢٥ هـ الذي حفر بئر الباشا ، أعذب بئر في صنعاء ، وبنى سور بلدة يريم ، ورمم سورَيْ صنعاء وزبيد ، وله خيرات أخرى .

ثم خلف هؤلاء ولاة مأفونون أساؤوا التدبير وعكفوا على الجور وابتزاز الأموال ، وعاصمة السلطنة البعيدة في غفلة عن مراقبتهم ومحاسبتهم ، لأن الانحطاط كان قد دب فيها منذ أوائل ذلك القرن ، وانصرف السلاطين إلى الخمول واللهو فاهتبل الأئمة هذه الغرر ، وصاروا يناجزون ولاة الدولة كلما آنسوا منهم ضعفاً ، إلى أن تمكن أحدهم وهو الإمام المؤيد محمد بن القاسم في سنة ١٠٤١ هـ من إخراجهم من اليمن كله داخله وساحله . فانتهى بذلك دور الترك العثمانيين الأول الذي دام ١١٤ سنة ، أبقوا خلاله بعض المباني والمآثر الخيرية ، والابتزاز شأنهم في أكثر الأزمنة والأمكنة . ويذكر أنهم كانوا في ذلك الدور يقيمون في اليمن كله جيشاً لا يزيد عن عشرين ألف ، ثلاثة أرباعه من أبناء عرب اليمن ، وأن ولاية اليمن كانت إذ ذاك تجني نحو نصف مليون دينار ذهبي ، وأنها كانت بعد أن تنفق من هذا المبلغ على الموظفين والجيوش والحروب تبعث (١٥٠,٠٠٠) دينار إلى عاصمة السلطنة[١] .

---

(١) تاريخ اليمن وصنعاء ، أحمد باشا ٢٥٧/١ طبع الآستانة عام ١٢٩١ هـ .

دور استقلال اليمن ١٠٤١ هـ - ١٠٨٩ هـ :

بعد أن زال حكم العثمانيين عن اليمن في سنة ١٠٤١ هـ ارتاح الأئمة الزيدية واستقلوا في جباله وتهائمه كلها استقلالاً تاماً ، وظلوا سائدين نحو قرنين ونصف لا ينازعهم خلالها أي منازع غريب ، سوى من كان يظهر في التهائم من أشراف أهلها الشافعية وأمرائهم ، فقد كان هؤلاء كما قدمنا لا يرون الخضوع للزيدية ولا يرضون بضياع سيادتهم من أيديهم ، فظلوا يناجزون الأئمة ويدافعونهم عن التهائم حتى تم لهم ما أرادوا في منتصف هذا الدور وأواخره .

وقد كان ينتظر من الأئمة المذكورين بعد أن استقلوا وسادوا وهدأ بالهم أن ينصرفوا إلى تنظيم شؤون اليمن وإعادة عمرانه بعد أن أنهكته الحروب والكوارث الماضية ، وأن يعنوا بالمشاريع والأعمال الخيرية المفروض صدورها من أمثالهم ذوي العلم والفضل العزيزين ، والسيطرة البالغة جداً إلى حد التقديس ، ولا سيما أموال الضرائب والصدقات المأخوذة من الرعية ، وقد كانت تجبى إليهم كلها دون هوادة وتكنز في خزائن صنعاء ، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل ، بل اكتفى الأئمة المذكورون بإدارة بلادهم ومعاملة رعيتهم على مناهج بالية . وأشد ما كان يهمهم هو جباية أموال الصدقات والضرائب المذكورة وذكرها ، وإنفاق قسم منها في مدافعة وثَبَات الطامعين بنوال الإمامة من أقاربهم ، أو إخماد ثورات القبائل التي كانت - ولا سيما في أواخر - هذا الدور تكثر بحكم سوء الإدارة أو المجاعات .

على أن العثمانيين لم ينسوا اليمن طوال ذلك الدور بل ظلوا يتحينون الفرص لاسترداده باعتباره دعامة الجزيرة العربية وسور الحجاز المتين ، وأنه بدون الحجاز ووراءه اليمن لا تستقيم لهم دعوى الخلافة الإسلامية ، لكن اضطراب شؤونهم الداخلية وانشغالهم بالفتن حالت دون ذلك إلى حين .....

ظل اليمن مستقلاً في الدور الذي ذكرناه آنفاً (١٠٤١ هـ - ١٠٨٩ هـ) استقلالاً حال من أمنية العثمانيين بالقضاء عليه اشتغالهم باضطرابات شؤونهم الداخلية بإطفاء الفتن والثورات في ولاياتهم المترامية الأطراف ، فضلاً عن حروبهم المتوالية مع الروس والنمساويين وغيرهم إلى أن جاء محمد علي باشا رأس الأسرة الخديوية في مصر ، بعد أن استتب له الأمر ولحظ حالة اليمن ومكانته المذكورتين ، فحملته مطامحه البعيدة على انتهاز الفرصة ، فأرسل أحد قواده واسمه أمين بك واستخلص اللحية والحديدة من يد الأشراف وقسماً من التهائم في سنة ١٢٥١ هـ ، وعززه بعد بآخر اسمه إبراهيم باشا اليكن فأتم هذا فتح التهائم وأنحاء تعز من اليمن الأسفل ، ولكن عقيب مؤتمر لندن سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م واضطرار محمد علي باشا إلى إخلاء بلاد الشام والحجاز التي كان استولى عليها ، رجعت الجنود المصرية من اليمن فلم يكن في وسع الدولة العثمانية إذ ذاك أن ترسل جيشاً لاحتلال اليمن ، فاكتفت بتسليم التهائم موقتاً إلى حسين بن علي أحد شرفاء بلدة أبي عريش وعقدت معه اتفاقاً ، فظل هذا محتفظاً بما سلم إليه ، يدافع إمام صنعاء المتوكل الذي قصده وحاربه ليستولي على مابيده .

وفي سنة ١٢٦٥ هـ أرسلت الدولة توفيق باشا القبرسي مع جيش نزل في الحديدة ، ثم تقدم إلى صنعاء باستدعاء الإمام محمد بن يحيى ، وقد كان هذا الإمام ضعيفاً قاصراً عن إخماد ثورة القبائل ضده ، فاستنجد المعونة من الدولة ، لكن أهل صنعاء وثبوا على جند توفيق باشا المذكور على حين غرة ، وقتلوا عدداً منهم وأرجعوا الباقين مثخنين بالجراح إلى الحديدة ، وكانوا أسقطوا الإمام المذكور لأنه استنجد بالدولة وأهانوه ثم قتلوه ، ونصبوا مكانه علي المهدي ، ثم جاء بعده من العثمانيين متصرفون عديدون إلى الحديدة وحدها وكانوا لا يتجاوزونها إلا قليلاً ، وكثيراً ما كان أمراء عسير من آل عايض الذين نبغوا في تلك الحقبة يهاجمون المتصرفين ويزعجونهم .

ولما استفحلت شرور الأمير محمد بن عايض في عسير وتهامة ، وهاجم الحديدة سنة ١٢٨٧ هـ ، ساقت الدولة إليه جيشاً بقيادة المشير رديف باشا ، ففتح عسير وقتل ابن عايض وقضى على إمارته ، وكانت صنعاء إذ ذاك تموج بالفتن من عجز الأئمة وعصيان القبائل وانقطاع السبل ، فاستنجد الأئمة والسادة بالدولة بواسطة شريف مكة ، وكان هذا ثاني استنجاد ، فأمرت الدولة الغازي أحمد مختار باشا الذي خلف رديف باشا في قيادة جيش عسير أن يذهب إلى صنعاء ويقر الأمن ويملكها باسم الدولة ويبسط سلطانها على اليمن كله ، فجاءها في سنة ١٢٨٩ هـ وأطفأ فتن قبائلها بعد معارك عديدة أجلها ماقاساه في حصار حصن كوكبان ، وأخضع اليمن جباله وتهائمه ـ ماعدا أنحاء صعدة الشمالية ومأرب الشرقية ـ وأسس ولاية اليمن من ذلك الحين وقضى على نفوذ الأئمة الذين كانوا يظنون أن الدولة بعد أن تنجدهم تعود أدراجها وتترك لهم البلاد ، فأوى هؤلاء بعد حين إلى زواياهم في صنعاء أو إلى معاقلهم في القسم الشمالي من الجبال ، كصعدة وشهارة وقفلة العذر ، وقنعوا بالسلطة الروحية واحتجان أموال الصدقات من أتباعهم الزيدية ولبثوا يتحينون الفرص للانتفاض واسترداد مافاتهم من الملك الذي أعطوه فلم يحسنوا سياسته .

الدولة العثمانية في دورها الثاني ١٢٨٩ هـ ـ ١٣٣٧ هـ : بعد أن فتح الغازي أحمد مختار باشا بلاد اليمن وأسس ولايتها كما قدمنا ، بدأت الدولة تهتم في شؤون هذه الألوية ماساعدتها أحوالها المضطربة إذ ذاك وبعد المشقة ، وكان ذلك في أواخر عهد السلطان عبد العزيز المشهور بهوجه وتبذيره .

ولكن الدولة لم تلبث أن رجعت إلى عادتها في الإهمال بحكم ازدياد الاضطراب في عاصمة السلطنة وخروج أمم البلقان إذ ذاك عليها واضطرارها إلى مواقعتهم وإخماد ثوراتهم ، وزاد هذا الإهمال بعد بسبب نشوب الحرب الروسية سنة ١٢٩٤ هـ وانكسار جيوش الدولة فيها وانصرافها عقيبها إلى رتق فتوقها ،

ودخل عهد السلطان عبد الحميد الطافح بسوء السياسة والإدارة والتجسس ، واليمن النكد الحظ أكثر ما كان يجيئه من الولاة والموظفين الطالحين والمأفونين وبعضهم من المغضوب عليهم والمطلوب إقصاؤهم ، فكان هؤلاء يجعلون دأبهم الجور والعسف وابتزاز الأموال للرجوع بأكبر غنية إلى بلدانهم .

وإذا جاء ولاة صالحون فما يكادون يشرعون بالإصلاح وتبدأ أعمالهم بإتيان الثمرات حتى تستدعيهم الدولة إلى أماكن ووظائف أخرى ، فلا تدعهم ينهون ماشرعوا به من المنشآت والإجراءات النافعة ، نعد من هؤلاء الذين كانوا قليلين ويا للأسف : المشير أحمد أيوب باشا (سنة ١٢٩٠ هـ) بنى هذا في صنعاء عدة مباني أميرية ، أجلها المستشفى العسكري الكبير الذي اتخذه الإمام يحي مسكناً له وسماه (دار السعادة) ، ونذكر الفريق إسماعيل حقي باشا (سنة ١٢٩٦) ، فتح عدة مدارس وجند عدة أفواج من متطوعة أهل اليمن على النحو الذي عمله العثمانيون في دورهم الأول ، وقد أتقن هؤلاء المتطوعة الخدمة وأبلوا أحسن بلاء في إطفاء فتن القبائل من أبناء جلدتهم ، لكن الإدارة الحميدية الهوجاء استوحشت من هذا الجند العربي على إثر تقارير بعض الجواسيس فأمرت بحله ، وبذلك قضت على هذا المشروع الذي كان نافعاً كل النفع لها ولأهل اليمن معاً ، ولم تعتبر - وقتئذ - بالدول الأوربية التي تجند من أبناء مستعمراتها ، وتقاتل بهم وتفتح مستعمرات أخرى بسواعدهم فتوفر من دماء أبنائها الأصليين ونفقاتهم الشيء الكثير .

ونذكر الفريق عثمان باشا المشهور بورعه وعدله سنة ١٣٠٦ هـ ، والمشير أحمد فيضي باشا الذي كان قائداً مغواراً أنقذ صنعاء من الحصار مرتين في سنة ١٣٠٨ هـ ، وفي سنة ١٣٢٢ هـ ، على أنه كان عسوفاً أيضاً ، وحسين حلمي باشا الصدر المحنك المشهور بعدله وحكمته ، الذي فتح في سنة ١٣١٥ هـ المدارس الصناعية والإعدادية ودور المعلمين في صنعاء وتعز ، وقضى على الظلم والرشوة ، وشرع بإصلاح أمور اليمن إصلاحاً حسناً لولا إعراض عاصمة السلطنة و إهمالها تلبية مطاليبه .

ونذكر حسن تحسين باشا سنة ١٣٢٦ هـ المشهور برزانته وحسن إدارته .
ونعد من المشهورين بعسفهم وجورهم مصطفى عاصم باشا سنة ١٢٩٣ هـ وعثمان باشا سنة ١٣٠٥ هـ والمشير عبد الله باشا سنة ١٣١٨ هـ .

أما الأئمة الزيدية فبعد أن ذهبت ريحهم عقيب دخول الدولة وسدت في وجوههم أسباب العيش والمقام في صنعاء انتقلوا منها إلى معاقلهم في شمالي اليمن فقطن الإمام المتوكل محسن بن أحمد الشهاري المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ في حاشد ، والإمام الهادي شرف الدين محمد المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ في هجرة صعدة ، والإمام المنصور محمد حميد الدين المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ في قفلة العذر ، ولبثوا كل منهم في زمنه يبتهلون الغرر من ضعف الدولة وفوضى إهمالها وعسف ولاتها وجور موظفيها وارتكابهم ، فيعلنون الوثوب عليها الفترة بعد الفترة ويستنفرون القبائل بمختلف العهود والوعود ويشنون بهم الغارات على مراكز الجند وقوافلهم ، ويحاصرون صنعاء وغيرها من المدن كلما تمكنوا .

وهؤلاء القبيليون هم سكان قرى اليمن وأرباب زرعه وضرعه ، أناس ما برحوا على الفطرة وبعضهم على الهمجية ، وتراهم حتى الآن حفاة ونصف عراة اعتادوا أن يتبعوا كل ناعق وداع ، ولا سيا إذا كانوا موتورين من الظلم وابتزاز الأموال ، وهو ما كان يقع في الغالب . وقد صار بعد سنة ١٣٠٠ هـ يردهم السلاح الحديث بكثرة ، يهربه تجار الأجانب من سواحل البحر الأحمر المهملة دون مراقبة .

أما الدولة ذات الخبط والارتباك فكانت ترسل الوالي تلو الوالي ولمدة قصيرة ، وأكثرهم ممن نوهنا بطلاحهم وجورهم ، وتزجي الجيش وراء الجيش قمعاً للفتن قبل الناشبة ، وهي لو أنها عوض الضحايا والجهود العظيمة التي بذلتها وخسرت معظمها وقتئذ ، اهتمت للفتن قبل التهاب شرورها ، وأبقت الولاة والقواد الصالحين الذين ذكرناهم ، وأصغت إلى لوائحهم ونصائحهم ، وأطلقت أيديهم في إقامة العدل وحسن السياسة والإدارة بما يتناسب مع حاجة بلاد اليمن

وأهله وأمزجتهم ، لما وجد القائمون عليها حججاً للقيام وبواعث للدعوة والاستنفار ، ولما سالت تلك الدماء الزكية لمئات الألوف من المسلمين الإخوان أبناء ترك الأناضول وعرب الشام من جهة وأبناء عرب اليمن من جهة أخرى ولما عم الدمار والبؤس اللذين لا تزال آثارهما المحزنة ماثلة في كل أنحاء اليمن .

ولا تتسع هذه العجالة لتعداد ما حدث في هذا الدور من المعارك الحربية والكوارث الفجيعة ، فقد فصلها بعض القواد العثمانيين ممن حضروها في مؤلفات خاصة ، وعندنا منها كتب أحمد راشد باشا وعاطف باشا وثروة باشا ، وقد كان يفنى من الفريقين في تلك المعارك المشؤومة ويخرب من البلدان الأخرى والقرى ويهلك من الحرث والنسل ما لا يعد ولا يحصى ، وأكثر الضحايا كانت تقع في جنود الدولة الذين كان تسوقهم في غير رفق من أنحاء الأناضول والشام ، وأكثر ما كان يؤدي لهلاك أولئك الجنود هو ما كانوا يقاسونه خلال سوقهم في اجتياز مئات الأميال في البر مشياً على الأقدام وفي تكديسهم في بواخر البحر ونقلهم كالأنعام ، حتى إذا وصلوا إلى اليمن ، بعد لأي وصاروا يقطعون قفاره وجباله الشاهقة ، يقابلهم تقلب هوائه الحار في تهامة والبارد في الجبال واختلافه عما في جو بلادهم ، ثم الأمراض المتنوعة التي كانت تصيبهم من فقدان التطبيب والمداواة أو قلتها ، ثم نقص الكساء والغذاء ورداءة المأوى والانقطاع عن الأهل خمسة أو ستة أعوام لمن يتاح له البقاء والرجوع بعد ذلك العناء ، ناهيك بالحروب التي كانت تأكلهم ... كل ذلك مما لا يزال يذكره بمرارة وتوجع من أدركوه وذاقوا محنته بأنفسهم أو الأسر التي فجعت بواحد أو أكثر من ذويها ، وما أكثرها في بلاد الشام .

وكان المبرز بين الأئمة الذين ذكرناهم أخيراً في مضمار الوثوب على الدولة واستنفار القبائل وتدوير رحى المعارك ومحاصرة صنعاء وغيرها من المدن هو المنصور محمد حميد الدين المتوفى سنة ١٣٢٢ هـ ، وابنه المتوكل يحي الذي تقلد

الإمامة عقيب وفاة أبيه . وكان أكثر حظاً وتوفيقاً منه ومن أسلافه كلهم . وقد أثار على العثمانيين حروباً شديدة وثورات عظيمة وحاصر صنعاء محاصرة هائلة في سنة ١٣٢٢ هـ وأطعم أهلها والجنود الذين كانوا محصورين فيها النار والعار .

وحدثت وقتئذ مجاعات فتاكة أودت بالألوف من اليمانيين أنفسهم فوق مانالهم من الحروب والكوارث المختلفة ، وقد ذكر الشيخ الواسعي اليماني في كتابه تاريخ اليمن ص ١٩٧ - ٢٠٣ وصف هذه المحاصرات والمجاعات وما خلفته وقتئذ في صنعاء وغيرها من الآثار المحزنة والدمار والبوار .

ودام الحال تارة بالسكون وتارة بالثورات إلى أن دخل عهد السلطان محمد رشاد عقيب إعلان الدستور العثماني سنة ١٣١٦ هـ وشرعت الدولة بلم شعثها وإصلاح بلادها ، لكن اليمن لم يذق طعم هذا العهد كغيره ، فقد ظل الإمام يحيى يغادي الدولة ويراوحها فيما يثيره من القلاقل والإحن ، وحاصر صنعاء مرة ثانية في سنة ١٣٢٨ هـ حتى أيقنت الدولة بعجزها عن دفع طائلته ، فاعتمدت سنة ١٣٢٨ هـ أحد قوادها المحنكين المشير أحمد عزت باشا ، فجاء وفك حصار صنعاء ثم عقد مع الإمام معاهدة صلح اعترفت الدولة بإمامته على الزيدية وبسلطته على الأحكام الشرعية والأوقاف الخاصة بهم في منطقة الجبال وخصصت له راتباً مناسباً ، وبهذا هدأت الحالة من بعد ذلك التاريخ إلا ما كان يحدث بين القبائل النزاعة للاقتتال والاختلاف وبين الإمام وأحد أقاربه المسمى بالضحياني المعارض له بالإمامة ، وما نجم من فتنه الإدريسي في عسير الذي لاذ وقتئذ بالطليان وحارب الدولة وحاصر بلدة أبها وغيرها . فاستعانت الدولة على قتاله بالشريف حسين بن علي أمير مكة في ذلك الحين وملك الحجاز بعده .

حديث اليمن

ساقتني التقادير في مطلع عام ١٩٣٦ إلى اليمن . وكان ذهابي إجابة لطلب جلالة مليكه الإمام كي أخدم زراعة بلاده وأنظر إلى ما يؤدي لصلاحها في ستة أشهر حددها . فذهبتُ وقمتُ في تلك المدة المتناهية في القصر بأقصى ما يمكن أن يؤتى في خدمة الزرع والغرس . منها أنني فتحت مدرسة زراعية علمتُ فيها بعض شبانهم أهم نظريات الزراعة الحديثة وعملياتها ، واستجلبت من مشاتل الشام ومصر وإيطالية ووزعت وغرست ألوفاً من أشجار الفاكهة والحراج على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وكلها مما وجدته نافعاً ومناسباً لحاجة أودية اليمن الأعلى وجباله ومما لا عهد لليمانيين به من قبل ، وكتبت ونشرت عدة مقالات ورسائل في أجل الموضوعات الزراعية الحديثة التي تعوزهم وتفيدهم .

وقد كنت خلال أعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء والأنحاء القليلة التي مكنوني من زيارتها أتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والطبيعية والعمرانية وما إليها ، فحصلت على نبذ منها رأيت على قلتها أن أنشرها في « المقتطف » . وقد حفزني إلى ذلك أن اليمن لا يزال غير معروف في جملته ، لم يكتب عنه في الماضي والحاضر كتابات كافية . وما كتب في اللغة العربية خاصة قلما شمل الأبحاث التي عنيت بها . لأن اليمن كان وما برح كالموصد في وجوه الغرباء ولا سيما الباحثين منهم ، ولم يتسنَّ جوس دياره والتماس مجاهله إلاّ للقليل من الشرقيين والغربيين ، ولا يزال مجال البحث والكتابة فيهِ واسعاً يحتاج إلى جهود جمة .

نبذة جغرافية

(**الحدود**) اليمن قطرٌ واسعٌ مستطيل الشكل في الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب . وحدوده الرسمية في يومنا من الشمال بلاد عسير العائدة للمملكة العربية السعودية يفصله عنها خط يمتد من ميناء ميدي على البحر الأحمر إلى شمالي بلدة صعدة متبعاً وادي مخلاف إلى حدود نجران ويام الجنوبية[١] ، وحدوده من الجنوب المحميات التسع المرتبطة بمستعمرة عدن[٢] يفصله عنها خط يمتد من الشيخ سعيد تجاه باب المندب إلى جنوبي بلاد الحجرية وماوية وقعطبة ، ومن الشرق بلاد حضرموت يفصله عنها وادي بيحان وبادية الجوف الممتدة إلى الربع الخالي ، ومن الغرب البحر الأحمر .

وقد سمى اليونان بلاد اليمن بالعربية السعيدة Arabia Felixa وسماها العرب بالخضراء[٣] ، وذلك لكثرة أشجارها وزروعها ووفرة خيرها وميرها بالقياس إلى بقية أقطار الجزيرة العربية القاحلة في الغالب . واليمن في عرف العرب هو الجزء الجنوبي من جزيرتهم ، أو هو كل ما كان جنوبي الحجاز كما أن الشام هو كل ما كان شمالي الحجاز . وكانوا يجعلون حدوده من البحر الأحمر غرباً إلى خليج فارس شرقاً ، فيدخلون فيه حضرموت وعمان والربع الخالي ولواء عسير والمحميات التسع وعدن إلاّ أن هذا التحديد كان اعتبارياً في أغلب العصور ولم يتحقق إلا قليلاً .

---

(١) قلب جزيرة العرب لحافظ وهبة .

(٢) هي الإمارات والمشيخات الكائنة في جنوبي اليمن الأسفل التي دخلت تحت حماية الحكومة البريطانية منذ احتلال عدن سنة ١٨٣٩ م ١٢٥٣ هـ . وهي لحج والصبيحة والحواشب والقطيب والعوالق والضالع والواحدي والعواذر .

(٣) صفة جزيرة العرب للهمداني .

لأن عمان وحضرموت إن تبعتا اليمن قبل الإسلام في عهد الحميريين لم تتبعاه بعد الإسلام ، بل ساد فيها ولاة مرتبطون بعاصمة الخلافة مباشرةً ، أو أمراء محليون مستقلون . وبلاد عسير كانت بيد بعض الأمراء أيضاً ، وآخر هؤلاء في القرن الماضي آل عايض .

وكان أشراف مكة في الشمال وأمراء نجد في الشرق وأئمة اليمن في الجنوب يدعون بامتداد نفوذهم إلى بعض المناطق أو القبائل من عسير ونجران المجاورة لهم . ولما استفحل أمر محمد بن عايض وهاجم تهامة وحاصر الحديدة جردت الدولة العثمانية عليه في سنة ١٢٨٨ هـ جيشاً بقيادة رديف باشا فشتت شمله وقضى على إمارته وجعل عسير لواءً مرتبطاً بولاية اليمن التي تألفت في السنة التالية على إثر استرداد صنعاء بيد أحمد مختار باشا الغازي .

وظل لواء عسير بأقضيته الستة : أبها ومحايل ورجال المع وقنفذة وبني شهر وغامد وصبيا ، تابعاً لصنعاء أولاً ثم لمقرّ السلطنة في إستانبول أخيراً ، حتى ثار فيهِ الأدارسة عقيب إعلان الدستور العثماني ، وحاربوا الدولة ثم استقلوا قبيل الحرب العامة ووطدوا استقلالهم بعدها .

ولما جلا العثمانيون عن اليمن سنة ١٣٣٧ هـ واستتب الملك فيهِ للإمام يحي قاتل الأدارسة الذين كانوا مدوا أيديهم إلى تهامة اليمن واستولوا على الحديدة . وبعد أن أخرجهم في سنة ١٣٤٣ هـ عزم على أخذ عسير ـ معتبراً إياه من اليمن .

ولما شعر الأدارسة بعجزهم عن مقاومته التجؤوا سنة ١٣٤٥ هـ إلى عبد العزيز بن السعود ملك الحجاز ونجد ووضعوا بلادهم تحت حمايته .

وظل الإمام يحي يحاول الاستيلاء على عسير وعلى مخلاف نجران المحتمي بالحجاز ونجد من قبل ، وتفاقم الخلاف من جراء ذلك بينهُ وبين الملك عبد العزيز . ونشبت الحرب في سنة ١٣٥٢ هـ وتقدمت الجيوش السعودية في

تهامة اليمن حتى الحديدة وباجل . فاضطر الإمام يحيى إذ ذاك للتسليم بالحدود التي ذكرناها في مقدمة مقالنا ، وقضي الأمر بانفلات عسير ونجران من اليمن نهائياً .

(أقسام اليمن قديماً) كان اليمن قبل الإسلام يقسم إلى مخاليف ، والمخلاف كما قال ياقوت في معجم البلدان بمنزلة الكور والرساتيق ، ولكل مخلاف اسم يعرف به ، وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت بهِ وعمرتهُ فغلب عليهِ اسمها . فمن المخاليف التي ذكرها ياقوت : أَبْيَن ولَحْج وبَيْحان وشَبْوة والمَعافِر واليَحْصِبيّين والعَوْد والسُّحُول ورُعَيْن وجَيْشان ورُداع ومأربِ ورَيْمَة وذمار وغيرها ، وكل مخلاف تحتهُ محافد ومدن وقرى .

وفي صدر الإسلام قسمت أعمال اليمن على ثلاثة ولاة فوالٍ في الجَنَد[1] ومخاليفها وهو أعظمها ، ووالٍ في صنعاء ومخاليفها وهو أوسطها ، ووالٍ على حضرموت ومخاليفها وهو أدناها .

وفي العصور الإسلامية المتوسطة قامت في اليمن ، وتداولت الحكم دول أو الأصح دويلات عديدة كان أكثرها في تهامة وبعضها كأئمة الزيدية في الجبال . ودولة الأئمة كانت أطولها عمراً . ودخل العثمانيون اليمن في القرن العاشر ، ولكن لم يلبثوا إلاّ قرناً حتى غادروه مرغمين ، وظلوا يتحينون الفرص لاسترداده ، اعتقاداً منهم بأن اليمن دعامة الجزيرة العربية وحصن الحجاز الحصين ، وأنه بدون الحجاز واليمن من ورائه لا يستتب البقاء لخلافتهم الإسلامية .

ففي القرن الماضي سنة ١٢٨٨ هـ فتحوا عسير على ماقدمنا ، وفي سنة ١٢٨٩ هـ فتحوا صنعاء ومعظم جبال اليمن وكل تهامة ، فدانت لهم هذه البلاد وأسسوا فيها : ولاية اليمن ، وما زالوا حتى أخرجتهم نتائج الحرب العامة سنة ١٣٣٧ هـ ، وسنأتي على تفصيل ذلك في النبذة التاريخية .

---

(١) الجند بليدة قرب تعز . ولعل ولايتها إذ ذاك كانت تشمل التهائم واليمن الأسفل كله .

أقسام اليمن في العهد العثماني والعهد الإمامي الحاضر :

كان اليمن في عهد العثمانيين يؤلف ولايةً واسعةً تشتمل على **لواء عسير** الذي تقدم ذكره وألوية صنعاء والحديدة وتعز . وكان كل من هذه الألوية يشتمل على أقضية وهذه على نواح عديدة ، في كل ناحية مئات من القرى والعُزَلْ (جمع عزلة) . فكان يحكم في الولاية الوالي وفي الألوية المتصرف وفي الأقضية قائم المقام وفي النواحي المدير . وكانت مساحة هذه الألوية والأقضية والنواحي عظيمة ، وأبعادها شاسعة تزيد عن أمثالها في بقية ولايات الدولة ، وتتطلب تقسيمها إلى أصغر من ذلك وتكثير عدد الأقسام . وقد اقترح هذا سنة ١٣١٩ هـ الوالي حسين حلمي باشا المشهور بحسن إدارته ، ولكن لم يلبَّ اقتراحه . ومما يجدر ذكره أن يد العثمانيين لم تصل إلى شرقي اليمن الأعلى وشماليه ولا جنوبي اليمن الأسفل فظلت مأرب وصعدة ونجران وشهران وقفلة العذر وما حولها من القبائل العاتية كحاشد وبكيل وأرحب وذي حسين وأمثالها تحت سلطة الأئمة أو المشايخ المحليين . وكذلك كان الحال في أراضي المحميات التسع في اليمن الأسفل التابعة لمستعمرة عدن كما تقدم ذكره .

☆ ☆ ☆

هذا وقد كان **لواء صنعاء** (قضا صنعا) تتبعه **نواح** اسمها بلاد البستان ، بلاد الروس ، بني بهلول ، بني الحارث ، بني حشيش همدان ، سنحان ، أرحب ، نهم ، خولان ، الحدا . ثم (قضاء حراز) وقاعدته مناخة ونواحيه حراز ، ومفحق وعرومتوح وحجيلة . ثم (قضاء كوكبان) وقاعدته الطويلة ونواحيهِ كوكبان والمحويت وشبام . ثم (قضاء آنس) وقاعدته ضوران ونواحيه آنس وعتمة وجبل شرق وجهران . ثم (قضاء حجة) وقاعدته حجة ونواحيهِ حجة وبني عوام والشغادرة ومسور وعفار . ثم (قضاء ذمار) وقاعدته ذمار ونواحيهِ ذمار ومغرب عنس . ثم (قضاء يريم) وليس فيه نواح . ثم (قضاء رداع) وقاعدته

رداع ونواحيه رداع وسوادية وجبن . ثم (قضاء عمران) وقاعدته عمران وفيه ناحية عيال سريح .

وكان في **لواء الحديدة** (قضاء الحديدة) ونواحيه الحديدة وجزيرة قمران وجبل برع وحفاش . ثم (قضاء زبيد) وقاعدته زبيد ونواحيه زبيد وحيس ووصاب العالي ووصاب السافل . ثم (قضاء اللحية) وقاعدته اللحية ونواحيهِ اللحية وزهرة . ثم (قضاء الزيدية) وفيه ناحية بني قيس . ثم (قضاء جبل ريمة) وقاعدته ريمة ونواحيهِ ريمة والجعفرية وكسمة وسلفية . ثم (قضاء حجور) ونواحيه محابشة وعاهم وخمس وقارة وحرض وعبس . ثم (قضاء بيت الفقيه) وفيهِ أحياء متفرقة من قبيلة الزرانيق . ثم (قضاء باجل) ونواحيهِ باجل وملحان .

وكان في **لواء تعز** (قضاء تعز) ونواحيه تعز وتربة القحم وقاعرة ومقبنة وذي شراق . ثم (قضاء إب) ونواحيهِ إب ومخادر . ثم (قضاء عُدين) ونواحيه عدين وحبيش . ثم (قضاء قعطبة) ونواحيهِ جبل مريس ونادرة وحثيا . ثم (قضاء الحجرية) ونواحيه الحجرية وقبيطة وحبش . ثم (قضاء مخا) وليس فيه نواحٍ .

وقد أبقى الإمام يحيى معظم هذه الأقسام على حالها وأقام عليها حكاماً سماهم (عمالاً) جمع كلمة (عامل) التي كانت مستعملة في العصور الإسلامية الغابرة . وهؤلاء العمال يمثلون الإمام ويماثلونه بنسبة مصغرة في سلطتهِ ودواعي أبهته . وهم يسيرون على نهج جلالته ونهج تلك العصور في الحكم الإقطاعي المطلق .

☆ ☆ ☆

المساحة والسكان : لم يتسنّ لولاة الترك وضباطهم ولا لجوّالة الإفرنج وبحاثتهم ، وعدد هؤلاء كان قليلاً ، أن يضبطوا مساحة اليمن السطحية ويعرفوا عدد نفوسه ، ويضعوا خريطة صحيحة لألويته وأقضيته . ذلك لتعذر هذا العمل

في الزمن الماضي الطافح بالفتن والحروب واستمرار هذا التعذر في الزمن الحاضر لرغبة الإمام ببقاء بلاده في نجوة عن الكشف والبحث . وكل المساحات والأعداد التي وضعت والخرائط الإنكليزية والتركية التي رسمت وطبعت إنما هي اعتبارية سماعية لا يصح الركون إليها إلاّ للاستئناس فحسب .

فالترك كانوا[1] يعتبرون ولاية اليمن بألويتها الأربعة التي ذكرناها بين درجات ٢٠ و ٣٠ ، ٢١ من العرض الشمالي و ٣٣ و ٤٣ من الطول الشرقي . وكانوا يقدرون طولةً من الشمال إلى الجنوب ٧٧٥ كيلو متراً وعرضةً من الغرب إلى الشرق ٣٥٠ كيلو متراً . وإن مساحة اليمن السطحية تبلغ على التقريب ٢٣٥٠٠٠ كيلو متر مربع .

أما عدد نفوس اليمن فقد اختلفت فيه الأقوال . فالمعاجم ودوائر المعارف الفرنسية والإنكليزية تقدره تارةً بمليون وتارةً بمليونين ونصف . وهذا قليل ، لأن اليمن أكثر بلاد الجزيرة العربية عمراناً وسكاناً .

والترك[2] يقدرونه تارةً بأربعة ملايين وتارةً بثلاثة بما فيه لواء عسير . أما اليانيون[3] فيبالغون إلى الخمسة عشر مليوناً . والتقدير التركي الثاني هو الأقرب إلى الصحة حتى في يومنا . ذلك لأن اليمن لم يحو ولا يمكن أن يحوي أكثر من ثلاثة ملايين ، لقلة أراضيه الزراعية ومرافقه الحيوية كما سوف نذكره ، ولانفصال لواء عسير عنهُ ، ولأن الحروب والفتن الماضية أهلكت حرثةً ونسله كثيراً فأنقصت قطينه ، وهذه وإن زالت في عهد الإمام يحيي إلاّ أنه قام مقامها كثرة وفيات الأطفال وتوالي الأمراض العادية والسارية بحكم فقدان الأطباء وحرمان وسائل الاستشفاء ناهيك البؤس والشقاء الضاربين أطنابها .

---

(١) قاموس الأعلام لشمس الدين سامي .
(٢) شمس الدين سامي في قاموس الأعلام ، وحسين حلمي باشا في لائحته الإصلاحية
(٣) عبد الواسع الواسعي في تاريخ اليمن .

الوضع الطبغرافي : يتألف القطر اليماني من ثلاثة أقسام : الأول المنخفض ذو البراري والسباسب المنبسطة والإقليم الحار والهواء الرطب ويدعى (تهامة) ويجمع على تهائم ، والثاني المرتفع ذو الأطواد والهضاب الشامخة والإقليم البارد والهواء الجيد ويدعى (قسم النجود) أو (قسم الجبال) وهي تتمة جبال السراة ، والثالث المنخفض أيضاً شرقي قسم الجبال ، وهو ذو برارٍ وسباسب كانت في عهد ملوك سبأ عامرةً غناء فأصبحت بعدهم غامرة قفراء ، ويدعى هذا القسم (الجوف) وهو بمثابة تهامة في الغرب ، وإقليمه حار لكن هواءه جافٌ وجيد .

قطاع عرضي للوضع الطبوغرافي في القطر اليماني :

شمال

الجوف
علو ۱۱۰۰ وما دون

جبال السراة
علو ۱۰۰۰ ـ ۲۵۰۰

تهامة

البحر الأحمر

وصف تهامة : تهامة برية عظيمة مستطيلة الشكل تمتد من الشمال إلى الجنوب ، من جدة على ساحل البحر الأحمر إلى عدن في ساحل المحيط الهندي ، على طول يقدر بألفي كيلو متر ، وهي تنحصر بين قسم الجبال والبحرين المذكورين على عرض يتفاوت بين ٦٠ و ١٢٠ كيلو متراً ، وهي تنقسم إلى تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن .

وتهامة اليمن إما غربية وهي التي على البحر الأحمر ، وإما جنوبية وهي التي على المحيط الهندي . وحديثنا عن الأخيرتين في الأكثر .

كانت تهامة في الأصل قعراً للبحر الذي انحسر عنها في الطور الجيولوجي الأخير ، يستدل على ذلك بطبيعة أرضها ووفرة رمالها وكثرة الأحافير والأصداف البحرية التي تظهر في تربتها السفلى . ولا يزال انحسار البحر الأحمر وارتفاع سواحله متوالياً على كر الدهور . فالرمال ما برحت تطمر مرافئه وتمنع السفن الكبيرة من الوقوف إلاّ على بعد شاسع .

حدث هذا الطمر قبل أربعة أو خمسة قرون في مرفأ غلافقة ، وقد كانت كما قال ياقوت في معجم البلدان مرسى زبيد ، وكانت زبيد عاصمة تهامة وأكبر مدنها فيما مضى ، فلما اندثرت غلافقة انحط شأن زبيد .

وحدث الطمر أيضاً إلى حدٍّ كبير في ميناء مخا ، فكان ذلك من دواعي انحطاطها وانتقال عمرانها إلى الحديدة الحديثة العهد . ويحدث هذا الطمر والاندثار الآن في اللحية وأمثالها من الموانئ الصغيرة فيتجدد غيرها على توالي العصور وهكذا دواليك .

وبسيط تهامة يتموج تموجاً خفيفاً ويحدث قلعات متواضعة وتعترضه أودية حصينة منحدرة من أنحاء الجبال ، أكثرها جاف في أغلب أيام السنة وبعضها حار ، وتعترضهُ أيضاً كثبان رمال ، تزداد في بعض الأماكن وتمتد إلى مسافات شاسعة ، وتتحرك سطوحها بفعل الرياح كما هو الحال بين الحديدة وباجل وحول ميناء غلافقة المندثر . وفي بعض شطوط تهامة مرتفعات صخرية تؤلف آكاماً تظهر في سواحل الشيخ سعيد ولا سيما حول مرفأ عدن .

ومعظم بسيط تهامة قابل للحرث والزرع ، وذو خصب يقوى في بعض الأماكن ولا سيما إذا جادتها الأمطار ، وفاضت الأودية المنحدرة من الجبال بالسيول ، وسقى الزراع حقولهم منها ، حينئذٍ ينمو الزرع والغرس نمّواً عظيماً ، وتغزر محاصيل الدخن والذرة والسمسم والتبغ والنيلة والقطن والبطيخ ، والأشجار المثمرة وهي النخيل والموز والعمبا والليمون وغيرها . وفي تهامة نباتات وأنجم برية شائكة وغير شائكة تنتسب إلى فصائل مختلفة منها العصل الذي يعملون منهُ فحماً ، والبكار والثام اللذان يستعملان في بناء العشش والأكواخ ، وفيها من الأشجار غير المثمرة السمر والسلم والدوم والعشر والشورى والخروع الهندي وغيرها . وتؤلف هذه الأشجار في بعض أماكن تهامة أدغالاً ملتفة كان يعتصم بها ثوار القبائل في حروبهم مع الدولة العثمانية .

قال ياقوت : وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التهم . اهـ .
لاجرم أن تهامة شديدة الحرارة تتفاوت درجتها في الحديدة في الصيف بين ٣٠ ـ ٣٥ ليلاً و ٤٠ نهاراً ولا تقل في الشتاء عن ٢٤ ـ ٢٥ ، وأنها شديدة الرطوبة تبلغ أحياناً درجة الإزهاق (٨٠ ـ ٩٠) وذلك لقربها من خط الاستواء ومجاورتها البحر . لهذا لا يمكن سفر القوافل والمشاة والركبان في تهامة إلاّ ليلاً خوفاً من الرعن ، ولا يمكن النوم في ليالي الصيف إلاّ على السطوح وفي العراء . وتهب فيها أحياناً ريح السموم فتسفي الرمال وتحدث أعاصير ، ولا يلطف الحر إلاّ هبوب الريح الجبلي الشرقي أو البحري الغربي .

وأهل تهامة شافعية المذهب ، نحاف الأبدان ، ربعات القامة أو أطول ، سمر الوجوه لحر بلادهم ولاختلاطهم بالدم الصومالي أو الحبشي من قديم الزمان . وهم في الجملة أدمث خلقاً وألين جانباً وأرفد للغريب وأقرى للضيف من أهل الجبال . لكن الأمية أكثر انتشاراً في أهل تهامة منها في أهل الجبال ، وكذلك الشقاق والتناحر . ويعزى ذلك إلى أن الشافعية ليسوا كالزيدية ذوي أئمة وسادة يعنون بشؤونهم الروحية والزمنية إلى حدٍّ ما . والنفرة بين الشافعية والزيدية مابرحت ملحوظة . وهذه النفرة سياسية وإدارية أكثر منها مذهبية ، لو عني بشأنها لزالت .

وسكان السواحل في تهامة يعملون في البحر بالنوتية وصيد الأسماك وبناء الزوارق وبعضهم بالغوص واستخراج الصدف واللؤلؤ ، ولهذه الحرفة تجارة رابحة ، ويعمل أهل الحديدة وعدن بتجارة الصادر والوارد من اليمن وإليه . وسكان السهول والقرى الداخلية يعملون في تربية الزرع والضرع ، ويعمل أمثال أهل زبيد وبيت الفقيه بالصبغ والنسج مما سوف نذكره .

وفي تهامة قبائل شتى أشهرها الصبيحة والزرانيق والقحرى وبني صليل والعبسية والجرابحة وبنو مروان ودوغان وبنو قيس وغيرهم . وليست هذه القبائل

رحالة بل مستقرة في قراها وضمن حدودها ، تعمل في الزرع والضّرع ، وتسكن بيوتاً من الأعشاش .

والزرانيق أشد هذه القبائل بأساً وخبثاً وأطولها يداً في قطع طريق البر وقرصنة البحر وفي تهريب السلاح والرقيق قبل منعها . مواطنهم حول بلدة بيت الفقيه بين الحديدة وزبيد ، حاربوا الترك العثمانيين مراراً ولم يزالوا مشاقين لهم لما في مواطنهم من الحر الشديد والأدغال الملتفة التي يختبئون بينها . وأرادوا أن يعيدوا الكرة هذه مع جلالة الإمام الحالي بقيادة بعض الدسائس الأجنبية فساق عليهم جيشاً قبل بضع سنوات ، قمع فتنتهم وأسكت نأمتهم .

والقحرى أيضاً من القبائل القوية تسكن بين وادي سردود ووادي باجل ، لكنها ليست من الشر ما يماثل الزرانيق .

وكانت تهامة في أكثر عصور تاريخ اليمن ولا سيا في العصور الإسلامية منفصلة عن قسم الجبال . قامت فيها دول عديدة مستقلة ، كدولة بني زياد وبني نجاح وبني الصليحي وبني أيوب وبني الرسول وبني طاهر ، وسيأتي ذكر ذلك في بحث التاريخ . ويظهر أن هذه الدول مااستطابت النشأة والمقام في تهامة على الرغم من حرها ووباء هوائها إلاّ لكثرة محاصيلها ووفرة ريع المكوس التي كانت تتقاضاها من قوافل البر وسفن البحر الواردة من الهند وإفريقية الشرقية ومصر والحجاز والشام . فكانت تهامة مركز التوزيع بين هذه الأقطار قبل فتح قناة السويس ، وكانت ميناء عدن ومخا مركز التصدير والتوريد . إلاّ أن الدول المذكورة لم تكن لتقنع بتهامة ، بل كانت كلما اشتد ساعدها ورأت ضعف أئمة الزيدية بسطت أيديها نحو الجبال فملكتها مدة ، ثم أخلتها إذا عجزت عن حفظها . وهكذا كان شأن أئمة الزيدية ، كلما قووا ورأوا خلو التهائم من الحفظة استولوا عليها ، وإذا ضعفوا أضاعوها وحكمها كبراؤها . وظل هذا الأخذ والرد حتى تم جمع المنطقتين نهائياً في عهد الترك الأخير سنة ١٢٨٩ هـ وفي عهد جلالة

الإمام الحالي سنة ١٣٤٣ هـ بعد أن نازعهُ عليها الأدارسة الذين كانوا أصحاب عسير .

وثمة في سواحل تهامة على البحر الأحمر عدة جزر بعضها صغير غير مأهول لا يزوره إلاّ الصيادون والغواصون . ولكن أكبرها حجماً وأجلها قدراً قمران وبريم .

فقمران في شمالي الحديدة ، كان الترك أنشؤوا فيها قبل نصف قرن محجراً صحيّاً فحفلت بالسكان منذ ذلك الحين ، ثم احتلها الإنكليز عقيب الحرب العامة .

وبريم وتدعى أيضاً مينون في مضيق باب المندب ، لها مرفأ عميق صالح للبواخر وعلى الرغم من حرمان هذه الجزيرة الصغيرة القاحلة من أي أثر للماء والخضرة فقد أوجد فيها الإنكليز منذ أن احتلوها في الربع الأخير من القرن الماضي الماء المقطر وكل ما تحتاج إليه البواخر الداخلة والخارجة من البحر الأحمر من فحم ومؤونة . وتجاه هذه الجزيرة في ساحل اليمن موقع غير مأهول لهُ مكانة عسكرية كبرى يدعى الشيخ سعيد فيهِ لحكومة اليمن مخفر للجنود ومركز للبرق .

وفي ساحل تهامة وداخلها مدن وقرى عديدة . منها في الساحل ميدي واللحية والصليف وابن عباس والحديدة والطائف وغلافقة والخوخة ومخا وعدن . وفي الداخل عبال وباجل والزيدية والقطيع والدريهمي والمنيرة والزهرة والضحي والمراوعة وحيس وبيت الفقيه وزبيد ، وفي تهامة الجنوبية وراء عدن الشيخ عثمان والحوطة والراحة وبير أحمد والحسوة وغيرها .

وأكبر مدن تهامة وأشهر موانئها على البحر الأحمر في عهدنا (الحديدة) . ويظهر من عدم ذكرها في كتب جغرافيي العرب أنها لم تكن لمضي ثلاثة قرون أو أربعة سوى قرية حقيرة يقطنها الصيادون . إلاّ أنهُ بعد أن طمرت الرمال ميناءي مخا وغلافقة وتعذر على السفن أن ترفأ إليهما سعدت الحديدة بالعمران .

وهي الآن مدينة كبيرة يقدر عدد سكانها بثلاثين ألفاً ، جميعهم عرب شافعية المذهب ، بينهم خلاسيون أمهاتهم من رقيق الحبش أو الصومال ، وفيها قليل من الهنود البانيان والبهرة ومن اليونان والطليان المشتغلين بالتجارة .

والحديدة محاطة بسور بني سنة ١٢١٥ هـ لهُ خمسة أبواب وعدّة أبراج ، وفي داخل السور دور حجرية جميلة بيض ، وبعضها ذو طبقتين وثلاث ، وثمة عدة أسواق تغص بحوانيت الباعة والتجار ومستودعاتهم . وفيها حركة بيع وشراء وإصدار واستيراد ، كانت أقوى من الآن كثيراً في عهد الترك . وفيها عدة مبانٍ حكومية ومساجد ، غير أن ساحلها مكشوف ومعرض للأنواء ، تلجأ السفن عند اشتدادها إلى خليج الجبانة في جنوبها . وحر الحديدة شديد ووبيء تزداد وطأته بحكم شدّة الرطوبة أيضاً . وفي خارج سورها أحياء ودور كثيرة كلها عشش وأكواخ . وليس في الحديدة إلاّ قليلٌ من البساتين لفقدان المياه الجارية ولملوْحة التربة ، ولذا تأتيها البقول والثمار من القرى والجبال القريبة منها . وماء الشرب يجلب إليها من آبار تبعد نحو أقل من ساعة ينقل في براميل محمولة على عجلات تجرها الجمال .

وفي شمالي الحديدة على بعد ٢٤ ساعة عنها (اللحية) ، وهي بليدة وفرضة على البحر محاطة بسور وفيها ثلاثة مساجد ، وفي خارج سورها حصن ، ويجلب إليها ماء الشرب من آبار تبعد ساعتين أو ثلاث .

و (الزيدية) بليدة تبعد عن الحديدة ١٢ ساعة بيوتها عرائش ، ينسج فيها حصر من ورق شجر اسمه الدوم يشبه النخل .

و « باجل » بليدة تهامية على طريق صنعاء تبعد عن الحديدة عشر ساعات لها قلعة قديمة ومسجدان ودار حكومة .

وفي جنوبي الحديدة بليدة (المراوعة) ذات مساجد وحوانيت ومصانع لنسج الفوط والبزوز المتنوعة ومعاصر لعصر السمسم ويسمون زيته في اليمن سليطاً

ويزرع حولها النيلة والقطن والبطيخ .

و (بيت الفقيه) في جنوبي الحديدة وعلى بعد اثنتي عشرة ساعة . وهي مبنية على تل مرتفع ، وهواؤها وماؤها أجود ما في مدن تهامة ، دورها من الآجر ، ومن العريش ، وفيها حوانيت كثيرة وخمسة مساجد ، أحدها جامع كبير . وفيها حصن ، وقد اشتهرت بمنسوجاتها الجميلة المتينة المنسوجة من الحرير والقطن ، وعدد سكانها خمسة عشر ألفاً ، وحولها نخيل كثير .

وفي جنوبي بيت الفقيه وعلى بعد ست ساعات تقع مدينة (زبيد) بنيت في فم وادي زبيد ووسط سهل خصب كثير النخيل ، وأحيطت بسور مربع الشكل شيد من الآجر ، وفيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وفي داخلها قلعة بني فيها دار للحكومة ، وجامع باسم بانيه إسكندر باشا ، وفي البلدة جامع آخر كبير لمصطفى باشا النشار أحد ولاة الترك في اليمن . وفي زبيد من السكان عشرون ألفاً ، ودورها من الآجر أو العريش . وفيها جوامع ومساجد ومدارس عديدة .

قال القلقشندي في صبح الأعشى : زبيد مدينة مبنية في مستوٍ من الأرض ، تبعد عن البحر على أقل من يوم ، وماؤها من الآبار وبها نخيل كثير ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة ، وهي شديدة الحر لا يبرد ماؤها ولا هواؤها . وقد كانت مشتى ملوك اليمن بني الرسول كما أن تعز كانت مصيفهم . اهـ .

وبعد أن كانت زبيد قاعدة تهائم اليمن حافلة بالملوك والأمراء الذين سيأتي ذكرهم في بحث التاريخ ، وبالتجار والسفار ، وبدور العلم والعلماء واللغويين ، حسبك منهم الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط الذي حط رحاله في شيخوخته فيها ومات سنة ٨١٧ هـ ، وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والأدب والطب ... انحطّ شأنها بعد زوال دولة بني الرسول ، ولا سيما بعد خراب ميناء غلافقة ثم مخا وانتقال السفن والتجار والحكام إلى الحديدة ، فلم يبق من مجد زبيد وعمرانها ولا سيما من دور علمها وعلمائها إلا أثر ضئيل .

وفي جنوبي زبيد بليدة (حيس) فيها عدة مساجد ومطاحن ومصانع للنيلة ومصانع للأواني الخزفية .

وفي أقصى الجنوب فرضة (مخا) التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد أكبر موانئ اليمن ، بل كل جزيرة العرب ، ويدخل مرفأها الأمين سفن الهند والحبشة والزنج ، وتصل إليها قوافل مصر والحجاز وغيرها ، فتبادل العطور والطيوب والأصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧ ـ ٨ آلاف دار ، وعشرات من الخانات والمستودعات ، لاتزال أطلالها ماثلة .

وكان البن اليماني الناتج في لواء تعز وأقضيته يصدر منها ويعرفه الإفرنج باسم (بن مخا : Moka) . وظل هذا العز والعمران في مخا حتى ظمر البحر مرفأها بالرمال فاضطرت السفن إلى التحول إلى الحديدة وعدن ، ثم دهمها القضاء المبرم في سنة ١٢٥٠ هـ حينما هاجمها العسيريون ونهبوها وخربوها ، فأصبحت قرية حقيرة تندب مجدها الغابر .

ومثل ذلك يقال عن مدن تهامة الجنوبية والغربية التي كانت قديماً فدرس أكثرها وخلفها غيرها . ذكر منها الهمداني وابن خلدون والمقدسي والعمري وغيرهم من جغرافيي العرب ، عدن ولحج وأبين والرواع والشقاق والمندب والحصيب وهي قرية زبيد والقحمة والكدراء والمهجم وعطينة والشرجة والجردة وغيرها .

وصف المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) عدن فقال : بلد جليل عامر آهل حصين دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب معدن التجارات كثير القصور ، مبارك على من دخله ، مثرٍ لمن سكنهُ ، مساجد حسان ومعايش واسعة ، قد أحاط بهِ جبل بما يدور إلى البحر ، ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل إليه إلاّ أن يخاض ذلك اللسان فيصل إلى الجبل ، وقد شق فيهِ طريق في الصخر عجيب وعليهِ باب حديد ، ومدوا من نحو البحر حائطاً من

الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب ، إلاّ أنها يابسة عابسة لا زرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلأ كثيرة الحريق والوكف .

وقال ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار : لم تزل عدن بلد تجارة من زمن التبابعة إلى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة ، ويمتار أهل كل إقليم منها ما يحتاج إليه إقليمهم من البضائع . إلاّ أن المقيم بها يحتاج إلى ما يتبرد بهِ في اليوم مرات من قوة الحر . ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ، ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية . اهـ .

قلت : ما برحت هذه الأوصاف جاريةً في عدن على ما رأيت . إلاّ أن حالها قد حسن في الجملة منذ أن احتلها الإنكليز في سنة ١٢٥٤ هـ فحفلت بالشوارع المستقيمة والمباني الجميلة والمتاجر الحافلة ، والحدائق المغروسة ، والحصون والمنائر الظاهرة فوق الجبال السود المحيطة بها ، والماء المشروب الذي استجلبوه بعد الحرب العالمية من قرية الشيخ عثمان ، وهي اليوم من أهم نقط المواصلة بين الشرق والغرب ، ومن أحصن حصون البريطانيين ومركز أساطيلهم البحرية والجوية ومحطة عظيمة تتمون منها البواخر بالفحم والنفط وما يلزم ، وبندر كبير تستمد منهُ بلاد العرب وإفريقية الشرقية عامة واليمن خاصة كل ما يلزمها من السلع ، وفيها وكالات البواخر التي تغشاها بكثرة في غدوها ورواحها بين الغرب والشرق . ويقدر سكانها بخمسين ألفاً أكثرهم عرب مسلمون وبينهم الصومالي والهندي والفارسي والإفرنجي .

وعجيبة عدن (الصهاريج) أو أسداد الماء ، وهي من أجمل الأعمال الهندسية في العالم تسع ثمانين مليون جالون ماء . وتاريخ إنشائها مجهول ، يرجع إلى قبل الميلاد بخمسة قرون أو عشرة . وكانت هذه الأسداد مردومة عند احتلال الإنكليز لعدن ثم كشفت ورممت في سنة ١٢٧٢ هـ .

وعدن في شبه جزيرة على ساحل البحر في دلتا وادي لحج وعندها ينتهي مخلاف لحج ، كما أن هذا المخلاف منتهى اليمن في الجنوب . ويقيم سلطان هذا المخلاف في بليدة اسمها (الحوطة) تبعد عن عدن نحو عشرين كيلو متراً ، وفيها من السكان نحو عشرة آلاف ، وفيها قصور السلطان وإخوته ومساجد كثيرة .

وسلطان لحج عبد الكريم فضل العبدلي وأخوه الأمير أحمد قد أخذا بحظ وافر من الثقافة والحضارة المفقودتين عند سلاطين وأمراء بقية المحميات ، ولهما عناية بالعلم والأدب والزرع والغرس .

زرت بستاناً كبيراً للسلطان في شمالي الحوطة فوجدتهُ يحتوي على كثير مما لم أسمع إلاّ باسمه من أثمار البلاد الحارة التي جلبت أشجارها من الهند ، كالجوافة والعاط والسيتافل والرامفل والنارجيل والتمر الهندي والشيكو والبيذان والعنباء والجبالي والمانجو وغيرها ناهيك بأثمار البلاد المعتدلة .

وللأمير أحمد مؤلف مطبوع في مصر سنة ١٣٥١ هـ دعاه (هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن) فيه بحث وتحقيق جديران بالثناء والإعجاب ، خاصةً وقد انقطع التحبير والتحرير بين أمراء اليمن منذ عهد بني الرسول أصحاب زبيد (٦٢٠ ـ ٨٥٨ هـ) .

الجبال : لانبالغ إذا قلنا إن القطر اليماني قطر جبلي بحت . لأن جباله تشمل ما يزيد على ثلاثة أرباع مساحته العامة . وجبال اليمن تتمة سلسلة (السراة) أو سلسلة الحجاز الآتية من الشمال ، والمبتدئة من بين الطائف ومكة ، والمنتهية في جنوب اليمن عند الأعضاد المشرفة على تهائم لحج وعدن .

قال ياقوت في معجم البلدان : السراة جبل مشرف على عرفة قرب مكة ينقاد إلى صنعاء ، وإنما سمي بذلك لعلوه ، وسراة كل شيء ظهره .

وقال أيضاً : السراة الجبال أو الأرض الحاجزة بين تهامة واليمن ولها سعة وهي باليمن أخص .

وقال الهمداني في صفة جزيرة العرب : السراة أعظم جبال العرب وأذكرها ، أقبل من ثغرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمتهُ العرب حجازاً لأنهُ حجز بين الغور (تهامة) وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر غور تهامة ، وصار مادون ذلك الجبل من شرقيه نجداً ، وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز .

وقال أيضاً : أما جبل السراة الذي يصل ما بين أقصى اليمن والشام فإنهُ ليس بجبل واحد ، وإنما هي جبال متصلة على نسق واحد من أقصى اليمن إلى الشام في عرض أربعة أيام في جميع طول السراة يزيد كسر يوم في بعض هذه المواضع وقد ينقص مثله في بعضها .

وفي (الرحلة اليمانية) للشريف عبد المحسن البركاتي : إن أول جبل السراة يبدأ في عقبة كرى بين الطائف ومكة ويسمى بجبل الحجاز لأنهُ الحاجز بين تهامة ونجد ، وإنهُ عظيم الارتفاع عن سطح البحر واسع المساحة ، كثير الطول طوله من الشمال إلى الجنوب إحدى وأربعون مرحلة ، وكل مرحلة مسير يوم بالإبل المحملة وهي أربعين كيلو متراً . فمن الطائف إلى أبها عاصمة عسير خمس عشرة مرحلة ، ومن أبها إلى صعدة سبع مراحل ، ومن صعدة إلى شهارة ثماني مراحل ومن شهارة إلى صنعاء عاصمة اليمن سبع مراحل ، ومن صنعاء إلى نهاية هذا الجبل أربع مراحل . وهذا الجبل آهل بالسكان وقراه متصلة بعضها ببعض ، وإذا سافر مسافر من الشمال إلى الجنوب في تلك المراحل فإنهُ يكون دائماً بين مزروعات وأودية وأشجار كثيرة المياه والمراعي وقراه كافة مبنية بالحجر المنحوت ، ودورها من طبقتين إلى ثلاث ولا يوجد فيه أكواخ مثل تهامة . اهـ .

قلت : وظهر هذه السلسلة المرتفعة ارتفاعاً عظيماً ينقسم قسمين ، فما كان منهُ في الشمال في علو نحو ٢٠٠٠ متر وما فوق حتى جاوز ٣٠٠٠ متر سمي باليمن الأعلى ، وما انحط في الجنوب عن ٢٠٠٠ متر حتى اقترب من مستوى التهائم سمي باليمن الأسفل . والحد بين اليمنين فيما قيل قرية المنزل في نقيل سمارة في جنوب مدينة يريم ، على طريق تعز وعدن .

واليمن الأعلى حول مدن يريم وذمار وصنعاء وعمران وما بعدها نحو الشمال يؤلف نجداً مستوياً واسعاً مستطيل الشكل يمتد من الشمال إلى الجنوب ، من قرب جبال نجران إلى نقيل سمارة المتقدم الذكر ، فيتباين العلو فيه من ٢٠٠٠ إلى ٢٦٠٠ متر ويختلف علو قننه الشامخة من ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ متر . ويمكن تشبيه هذا النجد بسنام الجمل . لأن سفحيه الغربي والجنوبي يتدرجان في الانخفاض نحو التهائم الغربية والجنوبية ، وسفحه الشرقي نحو فيافي الجوف المنحطة ، وهذه تتدرج بالانخفاض من ١١٠٠ متر فما بعد ويمتد في وسط هذا النجد (خط تقسيم المياه) الذي يدفع ببعض مياه ينابيعه وسيوله إلى الأودية المنحدرة نحو فيافي الجوف في الشرق ، وبعضها إلى الأودية المنحدرة نحو التهائم في الغرب والجنوب . وسيأتي ذكر هذه الأودية .

على أن النجد اليماني ليس في مجموعه بسيطاً خالياً من التلعان والتضاريس . بل إن في معظم أرجائه جبالاً وأطواداً عديدة منفردة أو مجتمعةً مخروطية أو مستطيلة الشكل . وهذه الجبال تفصل بين الرقاع التي يدعونها (قيعان) جمع (قاع) ويتخذون أرضها الشاسعة للحرث والاستغلال . اشتهر منها قاع البون وقاع سنحان وفيهِ مدينة صنعاء وقاع جهران وقاع الحقل وغيرها .

أما أطراف السلسلة وسفوحها المنحدرة نحو الغرب والجنوب والشرق فهي تتألف من جبال شاهقة هائلة تتدرج في الهبوط نحو التهائم أو الجوف ، وبعض أعضادها يدنو من البحر كتلك التي بين عدن وباب المندب ومخا .

وجبـال اليمن كلهـا ـ سواء أكانت في النجود أم في السفوح ـ من أروع جبـال العالم مرأى وأعسرها مرقى ، وأكثرها تضرساً وتتلعاً ، وأشـدهـا تحطماً وتصـدعـاً ، وأفقرها بالماء والكلأ .

وجبـال طـوروس وآمـانـوس في شمالي الشـام وجبـال لبنـان الغربي والشرقي وأطوادها وعقباتها تحسب متواضعة ذليلة إذا قيست بمـا في اليمن ، لا جرم أن من لم ير جبال اليمن المكفهرة وشناخيبـه المشمخرة وأوديتـه السحيقـة وصخوره العظيمـة النـافرة ، ومعظمهـا جـاف متجرد عن البهجـة والخضرة ، أسـود اللـون ، متجهم المنظر ، ومن لم يتسلق نقائله[1] وعقباته الوعث أو يتدحرج في منحـدراتـه الكؤد ذات الميـل الشـديـد ، لا يعدُّ رأى جبـالاً وأوديـة ولا قـاسى تعبـاً ولا ردَّد لهثـاً ، ولا ارتعـدت فرائصـه فرقـاً من خشيـة تـدهور السيـارة أو كبـو الراحلـة أو زلـق القدم . وهذا التدهور أو الكبو أو الزلق مع التيه في مهامـه تهـامـة من الأمور غير النادرة في اليمن .

ومبلغ الروعة في هذه الجبال والأودية يدركه المسافرون في إحدى الطريقين القديمة (طريق القوافل) أو الحديثة (طريق السيارات) بين الحديدة وصنعاء ، أو بين صنعـاء وحجـة ، أو بين صنعـاء وتعـز ، بـل في أي طريـق شئت ، اذكر ولا تـستثنِ . ففي طرق اليمن الجبليـة عـدد لا يحصى من القمم النـاطحـة للسحب والوهاد والمهاوي الممعنة في التقعر والتمعج . والارتفاع والانخفاض في هـذه الطرق يختلفان اختلافاً فجائياً لا هوادة فيه ولا رفق ، فبينما ترى نفسـك قـد صعـدت في ٤ـ ـ ٥ ساعات إلى علو شـاهق قـدره ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ م إذ تهبـط فوراً في سـاعـة أو سـاعتين إلى ثلث أو نصف أو ثلثي ذلـك العلـو ، ثم تعـود للصعـود ، ثم للهبـوط وهكـذا بمعنى أن منكب هـذه السلسلـة مؤلف من مرتفعـات ومنخفضـات تتـوج

(١) جمع نقيل وهو اصطلاح يماني يطلق على الطريق في الجبل . ويقابله عند أهل جبل لبنـان كلمـة (قادومية) من تعذر التسلق إلا على الأقدام .

تموجاً رهيباً ويأخذ بعضها برقاب بعض كأمواج البحر المتعالية المتلاطمة على مسافة بضع مئات من الكيلو مترات مما يبعث الرعب والتعب الزائدين للغريب القادم حديثاً .

وعلى الرغم من اكفهرار هذه السلسلة وكؤودة معارجها ومهابطها فإن في مشاهدها عظمة وروعة تأخذان بمجامع القلوب ، ولا سيا حينما تتراكم أمواج الضباب ، وتتكاثف قطع السحاب ، وترتج الآفاق من الرعود القواصف والبروق الخواطف ، وهي ظواهر جوية كثيرة الحدوث في أغلب الأيام بعد الزوال ، فحدث إذ ذاك ولا حرج عن طلعتها التي لا تمل ، ورؤيتها التي لا تجتوى ، مما يحتاج وصفه وتبين ألوانه ووقعه إلى قريحة شاعر مفلق أو ريشة رسام مبدع .

البراكين والسيول :

ولأقسام هذه السلسلة أسماء عديدة تدعى سروات جمع سراة وفي كل من هذه السروات جبال متعددة معروفة بأسماء وأوصاف خاصة لا تتسع هذه العجالة لذكرها من وفرتها ، وكلها من الجبال البركانية الاندفاعية ، وجل صخورها من جنس البازلت الأسود أو الأزرق القاتم ، وهو لا يمتص الماء ولا يخزنه ناهيك جهومة منظره ، وبشاعة مكسره ، مما جعل جبال اليمن في الاكفهرار الذي وصفناه . وبعض تلك الصخور من جنس الجير calcaire أو الغراء gres أو التراخيت أو الميكاشيت ذات الألوان الدكن أو الصفر . وتختلط هذه الصخور القليلة بصخور البازلت السود أو تتراصف معها في غير انتظام في كثير من الأماكن . وتربة قيعان النجد اليماني تتألف من الطيفال الجيري والرملي الناشئ من تفتت الصخور المذكورة ، وتكون هذه التربة صفراء اللون في الغالب . وتتألف أتربة الأودية من الرواسب الرملية والطينية الناعمة التي جرفتها السيول ، وتكون غبراً أو رمادية اللون .

ويظهر أن ثوران البراكين وفتكات الزلازل في الأطوار الجيولوجية الغابرة كانت في اليمن على أشد ما يتصوره علماء الجيولوجيا في التصديع والتحطيم ، وأن أفعال الطبيعة من حر وقر وهزاهز وسيول ما برحت حتى يومنا هذا في غاية العنف والقسوة ، فالمسافر في طول اليمن وعرضه كيفما التفت يقع بصره على أهاضيب هرمية أو مخروطية الشكل قممها فوهات براكين منطفئة ، وعلى شناخيب مسنمة مرتفعة كالمآذن والأبراج ، وعلى أطواد وآكام متمددة منعزلة أو مكتظة ، وكلها مثخن بالخروق والشقوق المفجعة من هول تلك العوامل الطبيعية وأخصها الزلازل والسيول .

وفي مناكب تلك الشناخيب والأهاضيب والأطواد والآكام أو في سفوحها وفجاجها جلاميد هائلة الحجم والشكل ، مثل أو أعظم من حجر الحبلى في بعلبك ، حطتها الزلازل أو السيول من عل ، وصخور عظيمة مكدسة ، مثل أو أعظم من صخور الأهرام في مصر ، ورضام[1] مضرسة تتدحرج كسورها وفتاتها تحت الأرجل فتزيد تعب الصاعد في عقباتها ومنحدراتها الكؤد وتجعله يقاسي لهاث المحتضر .

وفعل السيول في اليمن عظيم . وتاريخ اليمن طافح بفجائع هذه السيول التي تحدث الفترة بعد الفترة . وأخصها ما يحدث في صنعاء يأتيها من أنحاء سنحان وسعوان وجبل اللوز ، ويخرب قسماً غير يسير من صنعاء وشعوب والروضة ، ويذهب بعد للانصباب في وادي الخارد أحد أودية الشرق .

وإذا استثنينا القيعان المنبسطة في أنحاء سلسلة السراة والرقاع الصالحة في بعض ذرواتها وأسنادها[2] والمنحدرات الخفيفة التي وطدها اليمانيون بمتاعب زائدة وعملوا فيها حقولاً صناعية متدرجة أسموها جُرباً جمع جربة[3] فإن أكثر أقسام

---

(١) الرضام جمع رضمة وهي الصخرة العظيمة . والرضام صخور يرضم بعضها فوق بعض في الأبنية (ح) .

(٢) السند ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح .

(٣) يقابلها لدى أهل جبل لبنان كلمة جلول جمع جل .

هذه السلسلة عاطل غير قابل للحرث والزرع ، وتكاد نسبة القابل منها لا تزيد عن الأربعين في المئة ، ومابقي فمتون أو حرار[1] أو منحدرات هي مسارح للقرود وأوكار للنسور ومنابت لما لا خير في أكثره من الأعشاب الغثة والأنجم والأشجار الشائكة مما سوف نذكره في بحث الزراعة .

وغني عن القول أن هذه الجبال لاتتساوى في العظمة والروعة وإمكان الصعود والنزول ووجود رقاع للحرث والزرع فيها أو عدمه . فمنها ماهو واسع الذروة ، صالح التربة ، قابل الصعود على البغال والحمير . ومنها مانقائله شديدة الكؤودة تزل الوبر[2] والقرد ، بل إن بينها ماليس له غير نقيل « لا يطلعهُ سوى المشاة ولا يطلعهُ دابة . فإذا أرادوا دابة يستنفعون بها في ذروته مثل البقر للحرث والحمير للحمل حملها الرجال عجلةً أو عضوةً صغاراً »[3] . على أن اليمانيين لم يغادروا قيد شبر يمكن الاستفادة منهُ في ذروات هذه الجبال أو منحدراتها ولا سيا من تلك التي تنفجر فيها عيون وغيول[4] . فهم قد تعلقوا بأذيالها وتسلقوا أدراجها ووطدوا ماأمكنهم التوطيد من أنجادها وأسنادها فزرعوا وغرسوا وشادوا الحصون والقرى بهمم قعساء جديرة بالإعجاب .

الطرق ووسائل النقل :

أما وسائط النقل فأحدثها السيارات . فهي قد دخلت اليمن منذ خمس سنوات وصارت تجري الآن بين أكثر المدن والقرى التهامية وبعض النجدية التي لا يصعب الوصول إليها . أما في الصعبة الوصول فقد عبدوا لها حتى الآن طريقين طريق

---

(١) المتون جمع متن وهي الأرض التي تجمع الارتفاع والصلابة والغلظة ، والحرار جمع حرة وهي الأرض ذات الحجارة الكثيرة السود النخرة .

(٢) الوبر ilyrax دويبة كالسنور لكنها أصغر منه .

(٣) الهمداني في صفة جزيرة العرب ص ١٩٢

(٤) غيول جمع غيل ، اصطلاح يماني يطلق على الينابيع الجارية .

الحديدة ـ صنعاء ، وطريق صنعاء ـ حجة ، إلاّ أن هذه الطرق التي يخططها موظفون غير مهندسين وقرويون غير مأجورين وتلك السيارات البالية التي يديرها سواقون غير ذوي كفاءة تجعل الراكب يسأل الله السلامة في كل لحظة.

ففي طريق الحديدة ـ صنعاء تطوي السيارة بادئ ذي بدء سهول تهامة ، فتتعسف بين كثبانها ، وتغوص أحياناً في رمالها ، ويتحمل الراكب حرارة شمسها اللاهبة ، فإذا انتهى منها بعد مسير نحو ستين كيلو متراً يصل إلى بليدة اسمها (باجل) تقدم وصفها . وإذا غادرها ظهرت أمامهُ طلائع الجبال التي تقدم ذكرها . وبعد أن يجتاز محطة البَحِيْح وقرية عُبال التهاميتين أيضاً تنحرف السيارة نحو الجنوب الغربي وتشرع بالتوقل ، فتسلك الطريق التي فتحت للسيارات حديثاً على النحو الذي وصفنا نقصه وخطره . وهي تتغلغل وتتمعج وتصعد وتهبط في أودية طويلة قليلة العمران والسكان منها سنحان وسهام تجري في بلاد ريمة .

وهذه الأودية منحصرة بين جبال شاهقة من فروع جبال ريمة منها ـ والعهدة على السائق الذي أسماها ـ على يمين الطريق جبل ضان وجبل عبس وجبل برع وجبل عساكر وعلى يساره جبل الجبي وجبل الشرق . وهذه الأودية تتصل تارة وتبتعد أخرى ، ويكثر في عدواتها أشجار العضاه الشائكة والنباتات المتعرشة على اختلاف فصائلها ، وحقول الذرة على اختلاف أعمارها وأطوالها ، وقد يصادف السائر أيضاً فيها قطعان القرود على اختلاف وفرتها وضخامة بعض أفرادها وغرابة وثباتها وصيحاتها المضحكة . وإذ كانت السيارات لا تستطيع الإسراع أكثر من ١٠ ـ ١٥ كيلو متراً في الساعة بحكم شعث الطريق وكثرة المعارج والمنعطفات ، فلابد من قضاء الليلة الأولى في هذه الأودية المقفرة . والمحطة الوحيدة التي يجوز المبيت فيها هي قرية حقيرة وبيئة اسمها « مدينة العبيد » ـ سكانها جالية من السودان . وبعد مسير مسافات شاسعة وسط وادي حمام الأعلى

في بلاد آنس يصادف السائر قرب منتهاه الشرقي حماماً معدنيّاً كبريتيّاً يأتيه المرضى في شهري مارس وأبريل . وبعد هذا الحمام ببضعة كيلومترات تشرع السيارة باقتحام عقبة طويلة كؤودة اسمها عقبة المصنعة إذا بلغت أعلاها أفضت إلى ظهر النجد اليماني الذي تقدم ذكره ونصل إلى أحد قيعانه المنبسطة المسمى (قاع جهران) فيتنفس المسافر هنا الصعداء لخلاصه من الصعود والدوران المتواليين المدورين للرأس ، ومن ضيق الأودية وحشرها وحرها ، ويلاقي المشاهد الآن فضاءً فسيحاً وهواءً سجسجاً .

وبعد الاستراحة برهة في قرية (معبر) ينحرف السائر نحو الشمال الشرقي ، فإذا انتهى من قاع جهران يصعد في نقيل كؤود يفضي بعده إلى أودية لا تخلو من منعرجات ومنبسطات ، فيها عدة قرى منتثرة أسماؤها بيت زيادي ووعلان والدوب وحزيز وغيرها حتى يصل إلى قاع فسيح في وسطه مدينة صنعاء .

هذا وما عدا السيارات ، ليس في اليمن ولم يكن من وسائط النقل ، سوى البغال والحمير والإبل .

أما الخيل فقليلة الوجود والاستعمال شأن كل البلاد الجبلية . والطرق عبارة عن شعب ومسالك وعث حفرتها الأقدام بمرور الأيام . وقد صادفت في طلوعي من وادي الأهجر إلى حصن كوكبان في عقبة تقطع النياط توقلنا أكثرها مشياً ، أن قسماً من هذه العقبة قد بلط تبليطاً حسناً لم أعرف على الرغم من سؤالي أي صاحب خير من القدماء صنعه وفي أي عصر صنعه . ومثل هذا البلاط الموجود في نقيل سمارة الصاعد من إب إلى يريم ، وهو على ما قيل من صنع الملك العزيز طغتكين أخي صلاح الدين الأيوبي الذي حكم اليمن في سني (٥٧٧ ـ ٥٩٣ هـ) ، ولعل الأول أيضاً من صنعه ، كما أن السور المحيط بصنعاء بدأ به أخوه توران شاه وأكمله هو .

طريق القوافل القديمة :

وصف طريق القوافل القديمة بين الحديدة وصنعاء :

كانت الجيوش التركية والقوافل التجارية قبلاً تسلك طريقاً أقصر منالاً وأكثر عمراناً وسكاناً منها في طريق السيارات الحديثة . عبّد الترك بعض أقسامها في زمانهم وبنوا الجسور على بعض أوديتها فجعلوها صالحةً لسير عجلات المدافع وغيرها . إلاّ أن هذه الأقسام المعبدة قد أشرفت على الخراب من الإهمال الحاضر .

إن المسافر في هذه الطريق[1] بعد مغادرة قرية باجل ومحطة البحيح اللتين تقدّم ذكرهما ينحرف نحو الشمال الشرقي ويمر بقرية اسمها حجيلة . ومن ثمَّ يشرع بالصعود في واد طويل ، هائل المنظر ، على جانبيه جلاميد عظيمة مدهشة ، واسم الوادي حجام يمتد نحو ساعتين على سير البغال .

وفي قرب حجيلة قرية الأكمة من قرى جبل مسار ، وتحتها العريف ووراءها جبل صَعْفان وفيهِ حصن متْوَح . ويزداد الصعود بل التوقل بعد حجيلة كلما أوغل المسافر نحو الشرق وتزداد معه مناظر الجبال العظيمة ووعوثتها الرهيبة ، وتزداد رقة الهواء وبرودته المنعشتان على خلاف ما كان في هواء تهامة ذي الثقل والحر المضنيين .

وبعد وادي حجام يبلغ المسافر سفح جبل وسل ويلمح على يساره في الأفق الشمالي جبل الطويلة ، ويلمح أمامه في الأفق الشرقي جبل شبام المعدود من قمم اليمن الشامخة ووراءه في الأفق الغربي برع وجبل ريمة المماثل لهُ ويلمح في طريقه أيضاً أو يمر بقرية محصنة اسمها (العتارة) أهلها إسماعيلية مكرميون .

---

(١) وصف هذه الطريق مراسل جريدة التيمس الإنكليزية المستر هرس سنة ١٨٩٢ ، ونشر ترجمته ضومط في المقتطف م ٣٨ ج ١

وبعد اقتحام عقبة طويلة تقطع نياط القلب طولها خمس ساعات يصل إلى بلدة اسمها مناخة مبنية قرب قمة جبل حَرَاز المشابه لصهوة الفرس . وهي كما قيل مسرح وموطئ للعقبان والنسور .

ومناخة في موقعها وعلوها وشكل دورها الشبيهة بالحصون والآكام من أمنع أماكن اليمن وأعزها منالاً ، تشرف من أنحائها الأربعة على أودية ووهاد هائلة السحق والانحدار . وإذا سرح المسافر نظره في آفاق مناخة البعيدة يرى وادي موسنة ينبسط أمامهُ شمالاً بغرب ، ودونه جبلا ملحان وحفاش ، وفي الشرق جبل شعيب حضور أعلى قمم اليمن طراً وتحته بوعان .

وثمة قنن عديدة شيدت فوقها قرى حصينة ، وما منها إلا وحولها الأراضي المحروثة والحقول الصناعية المتدرجة ومغارس البن والقات .

وبعد مناخة يعود المسافر إلى الهبوط والتدحرج في نقيل عمودي شاق اسمه نقيل مناخة ، فإذا بلغ وادي الشجة في أسفله يعود إلى التوقل تارةً والهبوط تارةً أخرى ، والهبوط أكثر ، والطريق مملوء بالأشجار الشائكة ، حتى يبلغ أسفل واد سحيق يعد أوطأ قسم الجبال في اليمن وأحرها ، فيهِ قرية اسمها مفحق بنيت فوق قمة .

ثم يعود المسافر للتوقل في درجات عسيرة لا تحصى حولها وهاد لا قعر لها ولا حد حتى يبلغ قرية اسمها سوق الخميس ، ثم قرية أعلى منها اسمها بوعان فيها قلعة شاهقة .

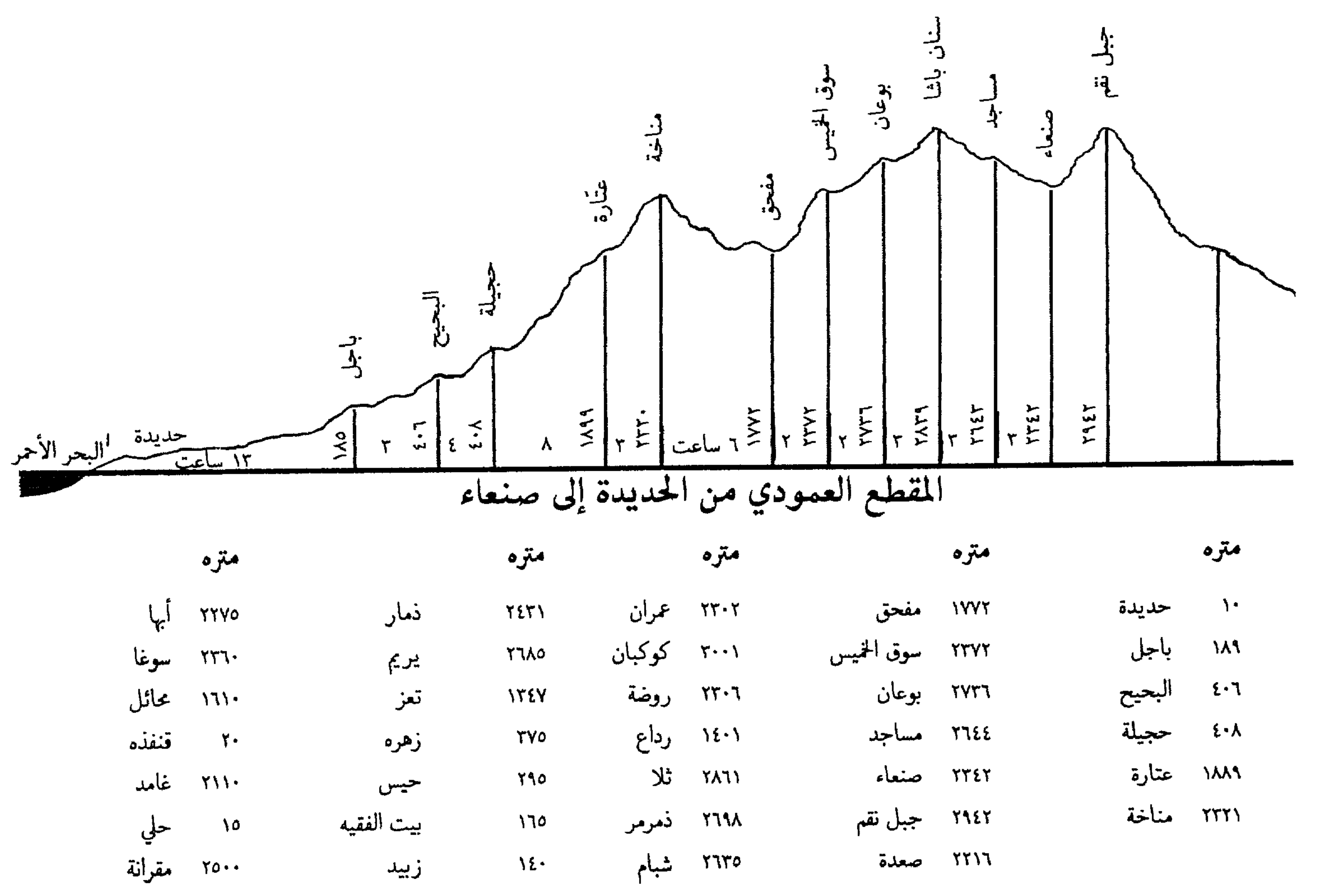
وفي بوعان مشهد للجبال والأودية الهائلة . وإذا تراكمت أمواج الضباب أو قطع السحاب وهي كثيرة النشوء والتراكم في هذه الأماكن الجبلية المتجهة إلى الغرب نحو سواحل البحر الأحمر ، تحدث مسارح النظر ومباهج الفكر التي أطربنا روعتها وبداعتها .

وبعد بوعـان يستمر التوقل إلى متنـة أو مخفر سنـان بـاشـا وهي آخر مرحلـة للقادم من الحديدة . وبعدها نزول متدرج إلى مساجـد ، ثم صعود إلى عقبـة عصر ثم نزول إلى سهل أفيح فيه مدينة صنعاء خاتمة المسير .

قلنا إن الترك في عهدهم الأخير عبدوا أقسامـاً كثيرة من هـذه الطريق وذللوا صعابهـا . وكانوا يريـدون أن يسيروا بهـا من مفحق إلى وادي ضفور إلى عبـال ، تاركين مناخة لصعوبة عقباتها وعلوهـا . ثم قرروا مـد سكـة حـديـديـة من رأس الكثيب في شمالي الحديدة إلى باجل فوادي ضفور فمفحق فسوق الخميس فصنعـاء ، وعهدوا في مد هذه السكة إلى إدارة الخط الحجازي ، فقامت هـذه الإدارة بـالعمل وجلبت آلات وعوارض وقضبـانـاً حـديـديـة ، وتقـدم التمـديـد من السواحل إلى الداخل نحو ١٥ كيلو متراً . ولكن مفـاجـأة الطليـان بحرب طرابلس الغرب ومن بعدها الحرب البلقانية والحرب العامة ، حالت دون إنجاز ذلك .

الارتفاعات في قسم الجبال :

صعـدة ٢٢١٦ عمران ٢٣٠٢ كـوكبـان ٣٠٠١ الروضـة ٢٣٠٦ رداع ١٤٠١ ثـلا ٢٨٦١ ذي مرمر ٢٦٩٨ شبـام ٢٦٣٥ ذمـار ٢٤٣١ يريم ٢٦٨٥ تعـز ١٣٤٧ مأرب ١١٠٠ الطويلـة ٢٩٠٠ مَسْوَر ٣١٦٠ معبر ٢٥١٦ جبل شعيب حضور (أعلى قمم اليمن) ٣٥٠٠ جبـل الظفير في قضـاء الحجـة ٢٤٠٠ جبـل شهـارة في بـلاد حاشد ٢٣٧٠ . وفي بلاد عسير ، أبها ٢٢٧٥ سوغا ٢٣٦٠ محائل ١٦١٠ غامد ٢١١٠ . وفي قسم تهامـة اليمن زهرة ٣٧٥ حيس ٢٩٥ بيت الفقيـه ١٦٥ زبيـد ١٤٠ وجميعهـا بالأمتار .



المقطع العمودي من الحديدة إلى صنعاء

	متره		متره		متره		متره		متره
حديدة	١٠	مفحق	١٧٧٢	عمران	٢٣٠٢	ذمار	٢٤٣١	أبها	٢٢٧٥
باجل	١٨٩	سوق الخميس	٢٣٧٢	كوكبان	٢٠٠١	يريم	٢٦٨٥	سوغا	٢٣٦٠
البحيح	٤٠٦	بوعان	٢٧٣٦	روضة	٢٣٠٦	تعز	١٣٤٧	محائل	١٦١٠
حجيلة	٤٠٨	مساجد	٢٦٤٤	رداع	١٤٠١	زهره	٣٧٥	قنفذه	٢٠
عتارة	١٨٨٩	صنعاء	٢٣٤٢	ثلا	٢٨٦١	حيس	٢٩٥	غامد	٢١١٠
مناخة	٢٣٢١	جبل نقم	٢٩٤٢	ذمرمر	٢٦٩٨	بيت الفقيه	١٦٥	حلي	١٥
		صعدة	٢٢١٦	شبام	٢٦٣٥	زبيد	١٤٠	مقرانة	٢٥٠٠

الأودية والسدود :

ليس في اليمن أنهار تشبه على الأقل العاصي أو بردى الشام من حيث غزارة الماء ودوام الجريان . بل أن بين جباله أودية تحصل من خطوط اجتماع المياه الهابطة من ذروات جبال اليمن والمنحدرة نحو التهائم في الغرب والجنوب ، أو نحو الجوف في الشرق ، وتحصل مياه هذه الأودية إما من الينابيع المتفجرة عند خطوط اجتماع المياه المذكورة واسمها في اليمن (غيول) جمع (غيل) ، وإما من السيول المجتمعة من مياه الأمطار .

ومياه هذه الأودية إما أن تغور في رمال تهامة والجوف وتضيع سدى ، وإما أن ينتفع بها في ري بعض الأرضين ، كما يعمل أهل زبيد ولحج . وهذه الأودية كثيرة ، لا طائل في ذكر أسمائها وتعداد روافدها في عجالتنا هذه . وجلها جاف في غير موسم الأمطار ، وليس بينها ذو ماء غزير يسيل في أيام السنة وينتهي في البحر إلا وادي بنا ومصبه شرقي عدن ، ووادي لحج ومصبه في عدن ، وأودية تهامة الغربية كوادي مخا ووادي زبيد ووادي رمع ووادي سهام ووادي سردود ووادي مور . ويمتد طول كل منها ٤ـ٥ أيام على الماشي ، ويحصل في مجاري بعضها غدران عميقة وواسعة يجدون فيها سمكاً بوزن الكيلو غرام أو الكيلو غرامين . ويذكر من أودية الشرق التي تذهب نحو فيافي الجوف وادي الخارد ووادي أذنة وغيرهما . إلا أن أعظم هذه الأودية وأقواها هو وادي مور الذي لا ينقطع في كل السنة وهو ميزاب تهامة الأعظم ، ومثله بكثرة الروافد وبعد المآتي في الشرق وادي أذنة الذي كانت تخزن مياهه بسد مأرب الشهير ويلقب بميزاب الشرق .

والأودية في اليمن أجل أماكنه قدراً وأعظمها شأناً ونفعاً . وهي أنزهها منظراً وأزكاها تربة وأوفرها خيراً وميراً . ففيها المواقع الرغيدة ، والينابيع والغيول الدافقة ، والأشجار الظليلة ، والمحاصيل المغلالة ، والقرى والمزارع العامرة المنتثرة على عدوتيها انتثاراً متقارباً جميلاً . وإذ ارتفعت هذه الأودية عن مستوى تهامة وحرها ، وتطامنت عن علو النجود وبردها ، فهي معتدلة الإقليم في الجملة على أن بعضها يشذ عما ذكرناه لضيق رقعته وانحباس هوائه ، أو كثرة منافعه فيحدث فيهِ الحر اللاهب والبعوض اللاسع ويصبح وبيئاً تفتك فيهِ حمى البرداء (الملاريا) .

لا جرم أن اليمن لولا أوديته هذه لما اختلف بجباله وتهائمه عن الهيكل العظمي إلاَّ قليلاً . فأجل مغارس اليمن ومزارعه ، وأجود وأبرك أشجاره وثماره تكون في هذه الأودية ، وفي كل منها كما قال الهمداني « مالا يوقف عليهِ من القرى الصغار والأبيات ، وكل واد منها مخلاف يكون فيه سلطان يقوم به عوائده » .

وكان قدماء اليمانيين يعرفون قيمة مياه هذه الأودية الفائضة ويحسنون خزنها والانتفاع منها ، فيعمدون إلى بناء الأسداد ، وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الأودية المذكورة لحجز السيول ورفع المياه لري الأرضين المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى جاوزت المئات .

وذكر الهمداني في يحصب (العلو من مخاليف اليمن) (قضاء يريم الحالي على ما يظن) وحده ثمانين سدّاً . وإلى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالربوة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدّاً تقلس الماء سائلا[1]

---

(١) تقلس الماء : تحجزه ثم تفيض منه بعد امتلائها به (ح) .

وأشهر أسداد اليمن « العرم » وهو سد مأرب الشهير وسد الخانق بصعدة وسد ريعان وسد سيان وأسداد بلاد عنس وغيرها . وكلُّهُ مندثر ، لوأمكن ترميم بعضه إن لم يكن جلّه لعاد قسم من عمران اليمن وزهوه اللذين دمجهما الرومان في كلمة (العربية السعيدة) .

المعادن :

يستعمل أهل الجبال في اليمن الملح الصخري الذي يجلب من جبل الملح في مأرب . قال الهمداني في هذا الجبل : « هو ليس بجبل منتصب ولكنهُ جبل في الأرض يحفر عليه ويمعن في الأرض وهو يبقى منهُ أساطين تحمل ما استقل من تلك المحافر ، وربما انهدم على الجماعة فذهبوا . وهي أرض لا نبات فيها فيحمل إليها الماء والزاد والحطب والعلف ، ويتحفظ على الماء ـ من أجل الغراب أن ينقر السقاء فيذهب ماؤه ـ وهو من مأرب على ثلاث مراحل خفاف . ومأرب بحذاء صنعاء شرقاً » .اهـ .

وفي سواحل تهامة الغربية عدة ملاحات أخصها الصليف شمال الحديدة ، وهي عظيمة ، ملحها صخري فريد في نقائه وجودته وغزارته ، وقد كانت هذه المملحة تستغل في عهد العثمانيين وتدر وارداً قيل إنه كان يبلغ مئتي ألف ذهب عثماني ، إلى أن خربتها الدوارع الإنكليزية خلال الحرب العامة ، وحطمت مبانيها وآلاتها ، فلم تعد تقوم لها قائمة ، وقد طلب بعض الأجانب من جلالة الإمام امتيازاً بإصلاحها واستغلالها فلم يلب طلبهم خشية امتداد أيدي الأجانب إلى اليمن بجرائها ... وقد أوجب خراب مملحة الصليف عمران مملحة عدن التي يستخرج ملحها من البحر .

وفي اليمن أحجار بازلتية سود ، وأحجار كلسية وجبسية بيض صالحة للبناء وأحجار كالرخام تقطع ألواحاً رقيقة ، فتخرج شديدة الشفوف واللين والمتانة كأنها

الزجاج أو الميكا ، يستعملونها لسد النوافذ ويأتون بها من حوالي صنعاء . ولا تخلو بلاد اليمن البركانية من ينابيع مياه حارة كبريتية عليها حمامات يقصدها الأعلاء ، أشهرها حمام علي في قضاء آنس وحمام بيت الفقيه وحمام ناحية عر وحمام قعطبة وحمام رداع .

وقد ردد الهمداني وغيره من مؤلفي العرب وأطنبوا في معادن اليمن وأحجاره الكريمة ، فذكروا وجود الذهب والفضة والحديد والنحاس . وقيل إن بعض الخبراء من الإفرنج أخبروا أيضاً عن وجود معادن الحديد والكروم والنحاس والفحم الحجري والكبريت والنفط ، وذلك في النماذج التي جلبت لهم للفحص ، أو في الأماكن التي توصلوا إليها . لكن أحداً لم يحقق حتى الآن صفاء هذه المعادن وغنى مناجمها إن كانت لها مناجم دارة ، ولا يزال اليمن بحاجة إلى خبراء في الجيولوجيا والمعادن يرودونه روداً علميّاً ، ويحققون الصفاء والغنى المذكورين اللذين يشك في كفايتها ووفائها بنفقات الاستخراج .

وكذلك لا يعرف سبب إهمال المعادن القديمة التي ذكرها الهمداني وغيره ألنفاد مناجمها أم لصعوبة استخراجها ؟! وجل ما قيل[1] : إن منجم الفضة في الرضراض بين بلاد همدان وخولان كان يستثمر قبل الهجرة إلى أن هبط أحد كهوفه وسد منافذه فترك . ومثله منجم الرصاص في بلاد نهم ، ومنجم الفضة في سارع ، قيل : إنهما كانا يستثمران في عهد الإمام شرف الدين وابنه المطهر (٩٢٣ - ٩٨٠ هـ) إلى أن هبطت كهوفها أيضاً وسدت منافذهما فتركا .

وقيل : إنهُ كان في جبل نقم (قرب صنعاء) في عهد الحميريين منجم للحديد ظلوا يستثمرونهُ قروناً ، وكانت الأسلحة المصنوعة من هذا الحديد ذات قيمة باهظة لجودته ، وقيل أيضاً إنهُ كان في جبل صبر (قرب تعز) منجم للذهب

---

(١) سالنامة ولاية اليمن لسنة ١٣٠٤ هـ ، مطبعة صنعاء .

استثمر طوال قرون . ولم يبق من المناجم القديمة التي تستثمر سوى منجم الحديد في جوار صعدة . ويذكر أن الحديد القليل الذي يستخرج منهُ يؤتى بهِ إلى صنعاء وغيرها ، ويباع بضعفي ثمن الحديد الأوربي المجلوب إلى اليمن ، ويعمل منهُ الجنبيات (جمع جنبية وهي السكين التي لا بدَّ لكل يماني أن يعلقها في وسطه) والجرد (جمع جردة وهي ضرب من السيوف العريضة) .

أما الجزع الموشّى والمسيَّر والعقيق الأحمر والأصفر اللذان يستعملان في صناعة الخواتم والشذب الذي يعمل منهُ ألواح وصفائح ونصب سكاكين وأمثالها من الأحجار الجميلة التي ذكرها الهمداني فإنها لا تزال موجودة في اليمن يرتزق من نحتها ونقشها أرباب صناعتها في صنعاء وغيرها .

الظواهر الجوية :

إن فعل الظواهر الجوية في اليمن عظيم وشديد وأكثر ما نرى هذه العظمة والشدة في قمم الجبال . فبخار البحر الأحمر والمحيط الهندي وما يتصاعد من جو تهامة اللاهب يميل دائماً للتكاثف فوق ذرا سروات اليمن ولا سيا فوق منحدراتها ومناكبها الغربية المتجهة نحو تهامة الحديدة . وكل الأماكن في تلك المنحدرات والمناكب يغمرها الضباب المتلبد صيفاً وشتاء ، يحدث ذلك كل يوم من بعد الظهر إلى غسق الليل وقد يدوم بضعة أيام دون انقشاع ، وقد لا ترى سماء الأماكن المذكورة صفاء الأديم خلال العام كله إلا أياماً معدودات . وأروع مسارح النظر في جبال اليمن وأوديته تلك التي كثيراً ما يصادفها السائر في الطريق الصاعدة من الحديدة إلى صنعاء وفي غيرها من الطرق أيضاً . فهو يشاهد أمواج الضباب عن كثب وقد تحيط به وتحول دون رؤيته منافذ الطريق فيخال نفسه غواص بحر زاخر ، أو يشاهدها عن بعد مئات من الأمتار لم تلحق العلو الذي بلغه جامدة أو مغذة السير تحت أقدامه وهي غاشية التلعات

والمنحدرات ، وحاجزة المعاطف والفجاج ، فيحسب أنه راكب طائرة يحلق فوق الغمام وفوق أعلى القنن الشاهقة الآخذ بعضها برقاب بعض .

وتهطال الأمطار في اليمن عجيب . ففي أيامها حين تكون السماء صافية الأديم في الصبح والضحا ، تتلبد بعد الظهر بالسحب المكفهرة القاتمة ، وإذا بالرعود تقصف والبروق تومض قصفاً ووميضاً متواليين وشديدين يبعثان الروع والوجوم ، وإذا بالأمطار تنهمر بشدة كأنها من أفواه القرب ، وكأن فعل خيوطها ضربات السياط ، تظل على هذا المنوال ساعة أو ساعتين ثم تنقطع ، فتهدأ ثورة السماء وتبقى الأرض ومافيها من الجبال والأودية والقيعان ريانة فياضة بالسيول الدافقة أو الغدران المجتمعة ، ترى انتشار قطراتها وتسمع خريرها إلى مدى بعيد مما يبهج السمع والبصر ، ناهيك بالطيور التي تنطق وقتئذٍ من فجاج الصخور وغصون الأشجار ، مغردة زاقية . وإذا أمسى المساء تتبدد الغيوم وتسطع النجوم ، وإذا أصبح الصباح تبزغ الشمس وتنعكس أشعتها على قطرات المطر المتبقية ، فتظهر كالدراري اللامعات وتظهر السماء صاحيةً ضاحكةً كأن لم يكن بالأمس شيء ... فلا يأتي الظهر إلا وتعود الغيوم للتلبد والسماء للاكفهرار والرعود والبروق والأمطار إلى ما فعلته مساء أمس ... وهكذا في كل يوم ..

وهذه الأمطار تهطل في اليمن في مواسم معينة تخالف ما في الشام وأشباهه من الأقطار . فهي تبدأ في شهر آذار وتدوم حتى أيلول ومن عادتها أنها تقل في أيار وحزيران وتشتد في شهري تموز وآب ، وأنها ـ كما قلنا ـ تمطر في الغالب من وقت الزوال إلى أخريات النهار .

بيد أن الأمطار قليلة أو هي أقل من الحاجة في اليمن . فهو على الرغم من حوطته بالبحر الأحمر والمحيط الهندي في غربه وجنوبه ، ومن أن الجبال الجذابة للسحب ممتدة في أكثر مساحته ، ليست أمطاره غزيرة بقدر غزارتها في المناطق

المماثلة لهُ في العرض والوضع الجغرافيين في آسية وإفريقية . وهذه القلة هي التي دعت سكان اليمن الأقدمين ـ وهم الذين آثارهم تدل على أنهم كانوا أيقظ وأنشط من سكانه الحاضرين ـ إلى أن يخزنوا السيول الفائضة في موسم الأمطار ولا يضيعوا قطرة منها بفضل الأسداد التي شادوها وقد تقدم ذكرها .

ولئن كانت صخور اليمن البركانية الجرد الصمّ غير صالحة لخزن المياه في أجوافها بالقدر الكافي لإسالة الأنهر العظيمة فإنك لا تجد في اليمن أمثلة لأنهار البلاد الجبلية كما في الشام والأناضول ، وجل ما هنالك ينابيع وعيون ثرة تتدفق هنا وهناك بمقادير لا تزيد في أكبرها عن خمسين ليتراً في الثانية ، فتجري في الأودية التي تقدم الكلام عليها إن كانت بين الجبال ، أو تجري في قنوات أو مجار مسدودة أو مكشوفة يدعونها « غيول » جمع غيل إن كانت قرب القرى والمدن ، ينهلون منها ويروون بها مساحات يسيرة من الأرض أحياناً .

على أن مقادير المطر في العصر الأخير صارت أقل مما كانت عليه في العصور الخوالي ، يظهر ذلك للممعن في كثرة الغيول والأودية الجافة أو الجارية وعمقها المتناقص . ولم يسجل ميزان المطر في مرصد صنعاء الجوي[1] سنة ١٩٣٥ م أكثر من ٣٠٠ مليمتر . وهذا المجموع العائد لسنة واحدة وإن لم يكن كافياً للاعتداد به ، لكن بقية السنين لا تكون فيها الزيادة على ما يظهر أكثر من نصف أو ثلثي المجموع المذكور ، وهو يعد قليلاً على كل حال إذا قيس بجفاف إقليم اليمن وجفاف صخوره وأتربته .

ولا يزال شيوخ صنعاء يذكرون بحسرة إتراع الغيول بالماء . وقد كانت مثلاً قبل ٤٠ـ٥٠ سنة تروي في شمالها مساحات واسعة في قرى شعوب والروضة

(١) وضع هذا المرصد العالم الألماني راتجس الموفد من جامعة هامبورغ سنة ١٩٣٣ م وقد مكث ورفيق له في اليمن سنتين يبحثان ويدرسان آثاره الحميدية وشؤونه الجغرافية والطبيعية التي أمكنهم الوصول إليها ووضعا كتاباً نفيساً عن نتائج أبحاثها .

والجراف ، فأصبح الآن بعضها جافاً كل الجفاف ، وبعضها تناقص إلى ثلث أو نصف مقداره السابق ، فصارت تلك المساحات غامرة نادرة بعد أن كانت زاهرة ناضرة . ولم يتسع لي الوقت للاهتداء إلى أسباب هذا التناقص المريع أكان من أسباب بيولوجية بحكم وفرة الزلازل وتوالي تصدع الأرضين وعور الينابيع[1] ، أم من الفتك بالحراج واستئصال الأشجار خلال الحروب والفتن التي لم تنقطع في اليمن إلا منذ عهد قريب أم من عوامل جوية وفلكية ؟

ولما كان القطر اليماني قريباً من خط الاستواء تختلف فصول السنة الأربعة فيه عن نظائرها في الأقطار البعيدة عنهُ . ففي اليمن يكون الربيع في أشهر كانون الثاني وشباط وآذار والصيف في نيسان وأيار وحزيران والخريف في تموز وآب وأيلول والشتاء في تشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول . واليمانيون لا يستعملون في التوقيت إلا الأشهر القمرية العربية ، فهم لا يعرفون أسماء الأشهر الشمسية الأفرنجية ولا السريانية . وإذا أرادوا التوقيت على الحساب الشمسي لمعرفة مواعيد الزراعة استعملوا أسماء البروج التي تتقلب فيها الشمس . فيأتي فصل الربيع عندهم في بروج الدلو والحوت والحمل والصيف في الثور والجوزاء والسرطان والخريف في الأسد والسنبلة والميزان والشتاء في العقرب والقوس والجدي . ويستعملون أسماء منازل القمر وهي مجاميع النجوم التي يتقلب فيها القمر وعدتها ٢٨ منزلة وهي الغَفْر والزبانا والإكليل والقلب والشولة والنايم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر والحوت والسرطان والبطين والثريا والدابران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك . ولهم في تعيين مواسم الزراعة

---

(١) قال الهمداني عن تأثير الزلازل في تقليل مياه اليمن : قال في كتابه الإكليل ٨٨/٨ عند كلامه على غيل وادي نهر : (وكان هذا الغيل في الجاهلية على ضعف ماهو عليه اليوم حتى وقعت في اليمن زلازل قطعت بعض ماءاته) .

اصطلاحات غريبة كالقارع والعشا والصواب والظلم والصلم والعلب وسهيل وعلانّ والروابع الأولى والأخرى وأمثالها مما يطول عدّه وشرحه .

وإذ كان القطر اليماني في داخل المنطقة الحارة يحصل في جباله وتهائمه ما يحصل في بقية البلاد الداخلة في المنطقة المذكورة من حر وقر قد يكونان شديدين في بعض الأماكن والفصول .

والحرارة تتبع العلو عن سطح البحر ، فهي شديدة في تهامة وضعيفة في الجبال . ويضاف في اليمن إلى اختلاف الحرارة بين الجبال والتهائم ، بل بين مكان وآخر في الجبال والتهائم نفسها ، اختلافها أيضاً في ذات المكان ، وفي كل يوم بين الصباح والظهر والمساء ، وبين الهزيع الأول والثاني من الليل ، ثم إن الضباب الذي لا ينقطع انتشاره في الأماكن المتجهة إلى الغرب في ظهر السلسلة ، والمطر الذي لا ينقطع تهطاله في موسمه بعد الظهر من كل يوم ، يسببان حين قدومهما هبوطاً في درجة الحرارة يكون فجائيّاً ومؤثراً ، وهذا الهبوط يلجئُ اليمانيين ولا سيما أهل المدن منهم إلى تغطية رؤوسهم وظهورهم باللحفة ، وهي قطعة من الصوف مستطيلة واسعة ، لابد لكل يماني أن يحملها صيفاً وشتاءً على منكبهِ ، فهم يلتحفون بهذه اللحفة ، ويتدثرون بالفرو ، ويهرعون إلى مساكنهم ، وينكبون على تخزين القات وشرب منقوع قشر البن الساخن دفعاً للبرد الذي يخشونهُ كثيراً .

وكلما ابتعد السائر من الساحل ومضى نحو جبال الداخل شعر بالانتعاش من خفة الحرارة والرطوبة وتناقصها التدريجيين ومن ازدياد الجفاف . وهذا الجفاف البالغ حده الأقصى في إقليم الجبال يؤثر وينفع في فناء بعض الميكروبات أو عدم نموها وتكاملها .

والضباب يكاد لا يحدث في صنعاء ، فجوها شديد الجفاف لا يعرف الرطوبة

إلاّ قليلاً في موسم الأمطار ، كما أنها لا تعرف الحر ولا البرد الشديدين . فهواؤها سجسج عليل في أكثر الأيام .

ودرجة الحرارة في موسم الصيف وقت الزوال تختلف بين ٢٥ و ٢٧ وفي الصباح بين ١٢ و ١٣ ، وأشد أيام البرد فيها من غرة تشرين الثاني إلى منتصف كانون الثاني . وهو مهما يشتد لا يهبط إلى تحت ٣ تحت الصفر ، ويعود للارتفاع في النهار إلى ١٥ أو ٢٠ . وأكثر مدن النجد اليماني العالي وقراه على هذا المنوال من الاعتدال اللطيف . وإذا هبطت الحرارة إلى الصفر وتحته ينسج البرد على الماء زرداً وقد ينزل الجمد المعروف بالبرد ، وقد تكون حباته كبيرة كالبندق أو الجوز ، وقد يبقى هذا البرد على وجه الأرض بضعة أيام دون أن يذوب . وزعم بعضهم أن الثلج المعروف في جبال الشام يهطل على قمة جبل النبي شعيب (٣٥٠٠ متر وهو أعلى قمم اليمن طرّاً) ولم أتحقق ذلك . ولو كانت نجود اليمن وجباله في عرض القطر الشامي لغمرتها الثلوج واستحال العيش فيها ، كما استحال على ما هو أعلى من ١٥٠٠ متر في بلاد الشام .

الإقليم : يراد بالإقليم مجموع الظواهر الطبيعية والكيمياوية الحادثة في جو مكانٍ ما وأرضه . ويهتم الباحثون بهذه الظواهر لأنها من أشد العوامل تأثيراً في حياة حيوان ذلك المكان ونباته ، وفي درجة نموهما وارتقائهما .

فاليمن في جملتهِ ذو إقليم عجيب يختلف كل الاختلاف عن بقية الأقاليم المعروفة . وشكل أرضهِ وارتفاعها كلما تبدلا أمام السائر من الساحل إلى قسم الجبال تبدلت معهما رقة الهواء وحره ونقاوة الماء وطعمه . فنشأ بحكم ذلك التبدل إقليمان مختلفان ، أحدهما حار خاص بتهامة والثاني بارد أو معتدل خاص بالجبال . ثم إن كلاًّ من هذين الإقليمين أيضاً يحوي أقاليم منفصلة عديدة لاختلاف الارتفاع والانخفاض والاتجاه والانبساط اختلافاً بارزاً في رقاعهِ المنفصلة ؛ فشروط الحياة والمعيشة التي تتغير بتغير الظواهر الطبيعية والكيمياوية

في تلك الأقاليم أوجبت أيضاً تغير أشكال النباتات والحيوانات وألوانها في كل مكان . لهذا تجد في اليمن أعشاباً وأشجاراً وأزهاراً وأثماراً من التي تنشأ وتنمو عادةً في المناطق الحارة والباردة وما بينهما من المناطق المعتدلة . لكنك كلما صعدت من أسفل إلى أعلى وكلما جلت من اليمين إلى اليسار رأيت أجناساً من النباتات وأنواعاً وميزتَ أشكالاً وألواناً وروائح تختلف ولو قليلاً عما رأيتهُ وميزتهُ منها في مكان آخر من اليمن نفسه . ناهيك باختلافها عما في بقية الأقطار كالشام والأناضول مثلاً .

وأكثر الفصائل النباتية المعروفة في بقية الأقطار الشرقية والغربية لها أفراد وجماعات في اليمن . لكن هذه تختلف نوعاً عن نظائرها في تلك الأقطار باللون والحجم والطعم . فالخرنوب ويدعونه في اليمن القرنيط أصغر ورقاً وأرفع قروناً وأقل حلاوةً من خرنوب جبال الشام . ومثل ذلك التين ويدعونه البَلَسْ فهو لا يكاد يؤكل من رداءته . وعلى ذلك قِسْ بقية الأثمار من مشمش وتفاح وسفرجل وليمون وغيرها . فقد أثر فيها الإقليم وأخفض جودتها ، حاشا العنب فإن أنواعه في غاية من الطيبة .

ويختلف حيوان اليمن أيضاً عن أمثاله في بقية الأقطار . فبقره ذو سنام ضخم يتدلى فوق أعلى الكاهل ، والعراب من خيله ذات مزاج عصبي شديد ، لا تسير إلا قفزاً ووثباً ، وجمله رفيع القوائم صغير الجثة لا يحمل إلاّ أثقالاً خفيفة ، وغنمهُ عديم الصوف أو قليله نحيل الخصر ، وبشره أقرب إلى قصر القامة وصغر الهامة وهَزَل الجسم وشحوب اللون ورخاوة المزاج منهُ في بشر سائر الأقطار العربية .

ناهيك بزي أهل اليمن في الاكتساء والاحتذاء وفي المذاهب والمشارب وفي الأطوار والعادات . فإن لكل من أقاليم تهامة والجبال فروقاً بارزة في هذه الشؤون . فجميع سكان تهامة وبعض سكان الجبال نصف عراة ، بينما سكان المدن

وبعض أهل القرى يكتسون ، وقد يتدثرون بالفرو . والتهامي يعجز عن توقل عقبات الجبال والقفز بين صخورها ومنحدراتها الكؤد ، شأن أهل الجبال ، كما أن الجبلي تخور عزائمه إذا اضطر للغوص في رمال التهائم . وابن هذا الوادي يصقع إذا صعد الجبل الذي فوقهُ ، وابن ذاك الجبل يتلظى إذا هبط الوادي الذي تحته ، وكل منهم راضٍ بما قدر له ، لا يمكن لأحدهم أن يقاتل الثاني إلاّ إذا استدرجهُ إلى أرضه .

وصف الهمداني هذه الحالة في « صفة جزيرة العرب » فقال مثلاً عن جبل تخلى : ومن ولد في رأسهِ فقبيح غير صحيح وخاصة النساء ومن ولد في صفحه فصبيح غير قبيح ، وطباع سكانه وأهله تخالف طباع من في صفوحه في العقل والنجدة والطول . اهـ .

عالم النبات : قلنا إن أكثر الفصائل النباتية المعروفة لها أفراد وجماعات في اليمن حاشا الصنوبرية فإنني لم أر لها أثراً إلاّ عدداً قليلاً من السرو في صنعاء وذمار ، جلبهُ الترك في زمنهم حتماً .

وقد أخذت معي إلى اليمن فيما أخذتهُ من مختلف الأشجار المثمرة وغير المثمرة مئـات من غراس السرو الأهرامي والأفقي والصنوبر المثمر والصنوبر البري المعروف بالحلبي والعفص والآروض والكازواريا ، غرست ذلك في أماكن مختلفة من صنعاء ، فإن أبقوا عليه وعنوا به تزدان نجود اليمن وجباله بهذه الأشجار الجميلة . وتضيق هذه العجالة عن تعداد نباتات بلاد اليمن وذكر أسمائها المحلية .

وقد عني بهذا الأمر فيما مضى العالم الطبيعي الشهير فورسكال أحد أعضاء البعثة العلمية الدانماركية التي وفدت برئاسة نيبوهر إلى اليمن سنة ١٧٦٣ م / ١١٧٧ هـ ، وقد توفي فورسكال وقتئذٍ في بلدة بريم .

وأدرج العالم النباتي الألماني شوينفورت في كتابه المسمى : (الأسماء العربية لنباتات مصر والجزائر واليمن) المطبوع في برلين سنة ١٩١٢ م ماذكره فورسكال

من النباتات بحسب اصطلاح اليانيين ، ولم يخل الترك في زمنهم من عالم يعنى بدرس أحوال اليمن من النواحي العلمية ولا سيا بدرس نباتاته ، ومنهم الطبيب أمير اللواء إبراهيم عبد السلام باشا صاحب كتاب (الرحلة اليانية والجغرافية النباتية في اليمن) طبع الآستانة سنة ١٣٢٤ هـ . وعني العالم الألماني راتجنس أيضاً بنبات اليمن ولا سيا في كتابه جداول توزيع فصائل النباتات اليانية بحسب ارتفاعات أماكنها عن سطح البحر .

والذي يسترعي النظر في اليمن ولا سيا في الجبال هو أشجار العضاه الشائكة وانتشارها بكثرة هائلة يكاد لا يرى غيرها ، ومثلها الأشجار اللحمية الشائكة ذات العصارة اللبنية . والأولى تنتسب للفصيلة القرنية والعائلة السنطية ، والثانية للفصيلة الأوفوربية فمن الأولى الأنواع الآتية نذكرها مع أسمائها اليانية :

سَلَم سَلاَم «السنط»	Acacia arabica	قات	Acacia senegal
عسق	Acacia asak	سيال «في مصر طلح»	A cacia Seyal
سيلام	Acacia flava	حارس	Acacia trotilis
سمر	Acacia spirocarpa	طلح	Acacia abyssinica
ظبه	Acacia mellifera	الضهى	Acacia elaucophyila
عرفطة	Acacia nubica	دفران	Acacia fluticosa

ومن الفصيلة القرنية أيضاً السدر Ziziphus spina Christi والسنا cassia absus والعشرق cassia obovata وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره .

ومن الفصيلة الأوفوربية الأنواع الآتية :

عُمْق	Euphorbia ammak	خريش	Euphorbia marticulata
كلخ ، غلق	Euphorbia cactus	سبيسب	Euphorbia monticola
شرور	Euphorbia fruticosa	قصاص	Euphorbia polycantha
أم اللبن ، مليبنة	Euphorbia granulata		
رميد	Euphorbia schimperi	سبيع	Euphorbia peplua

وغني عن البيان أن الفائدة الاقتصادية من هذه الغابات معدومة أو يسيرة . فلا يفيد بعضها إلاّ للاحتطاب . ومن المؤسف أن يكون القطر اليماني محروماً من الحراج التي لا يخلو منها أمثاله من الأقطار الجبلية . ويظهر أن الحروب والفتن التي لم تنقطع من اليمن إلاّ لعهد قريب قضت على حراجه وجردت معظم جباله فلم يبقَ فيها من الأشجار والأنجم البرية إلاّ ما هو قليل النفع قليل الالتفاف ، منتشر في مناكب الجبال ومنحدراتها وحول الأودية ، على حالة منفردة أو على هيئة أدغال قليلة الكثافة ، وأشجارها من العضاه الشائكة التي عددناها ، وليس في اليمن من الأشجار الصالحة للنجارة والبناء سوى (الأثل camarix nilotica) الذي يغرسونهُ في صنعاء بكثرة حول البساتين أو كغابات صناعية ، وشجر آخر يحصل في الجبال يدعونهُ (طنب cordia abyssinica) لا بأس بصلابته ، لولا صعوبة عمله وقلة وجوده ويليها من ذوات النفع القليل شجر الطالوق ficus vasta يشبه جميز مصر والشام بضخامته ، لكن ثمره لا يؤكل وخشبه قليل الصلابة والنفع ثم الطلح والسدر وأمثالها .

وفقدان الحراج والأشجار الصالحة للصناعة يضطر اليمانيين لجلب أخشاب النجارة من البلاد الأجنبية وإضاعة قسم من ثروتهم الضئيلة في سبيل شرائها . وهذا ما استوقف نظري حين شروعي بإدارة الأعمال الزراعية ، فاستجلبت لهم من مشاتل إيطالية مئات من أشجار الحراج التي تنمو في الأماكن الجبلية كالسنديان quereus pedunculata والقيقب acer platauvides والسويد campestris uhnus والدلب piatanus orientalis وأنواع الصنوبريات التي تقدم ذكرها ، ناهيك الأوكاليبنوس والكاتاليا والآكاسيا وغيرها مما يصلح للزينة أيضاً . غرست بعضها لأجل التجربة في مناكب جبل نُقْم المشرف على صنعاء وبعضها في صنعاء والقرى المجاورة لها . ولعلهم إذا عنوا بها وفاقاً لما علمتهم وكتبت ، واستكثروا من التي تنجح تجربتها عندهم يجدون منافعها في المستقبل ويحدثون منها أحراجاً تغنيهم عن جلب الخشب من الخارج .

وأكثر الفصائل النباتية أفراداً وجماعات في اليمن هي :

الفصيلة الكبارية ، : ومنها الكليومة الخماسية الورق ، والكليومة الغربية والكبر الخوذي (في تهامة) .

الفصيلة الخزامية : ومنها الورس أو الصباغ الأصفر ، يكون في تعز والعدين ويصدر إلى أوربة

الفصيلة الطرفائية : ومنها الطرفاء البنلية والمعضلة واسمها في اليمن الأثل تكثر في صنعاء وضواحيها ، ويستكثرونه بغرس عقله على صفوف منتظمة .

الفصيلة الجنازية : ومنها الخبيزة والأبويتلون والبامياء والختمية وحب المسك الذي يعلق نساء حجيلة بذوره كالمسابح في رقابهن ، لأنها إذا دلكت تنشر ريحاً طيباً كالمسك .

الفصيلة السلاسترينية ومنها القات الذي يمضغ اليانيون أوراقه ، وسنأتي في بحث الزراعة على إيضاح ذلك .

الفصيلة العنابية ومنها السدر والنبق في تهامة والجبال

الفصيلة القرنية الفراشية ، ومنها السلب في تهامة ، ينسجون من أليافه حبالاً وأكياساً وأقمشة ، والحلبة التي لابد لليمانيين أن يأكلوها في كل طعام ، والفصفصة واسمها في اليمن القضب ، والنيلة والسيسبان

الفصيلة القرنية السترالبينية : ومنها الخيار شنبر السنامكي (حجيلة) والتمر هندي (تعز)

الفصيلة القرنية الميموسية

قـام المرحوم أحمـد وصفي زكريـا بسؤال أحـد مسؤولي الـزراعـة بلحـج عن الأشجار المعروفة بالمنطقة فكتب له الجواب التالي :

الشجر المعروف

أنواع الليمون

برتقال حلو . يوسفي . جيلي . خُمَّاشْ . جريب فروت . نارنج . حـامض نوعان طويل ومدور ؛ الأول قشرته جافة والثاني قاتمة إترنج .

جوَّافـة أحمر وأبيض مـدور وطـويـل اسمـه في لحـج زيتـون . تين سكري . وأسود أمريكاني . وأبيض بلس يماني .

(مـانجو) اسمـه في لحج (عمبـأ) فيهـا جملـة أنواع منقـولـة من الهنـد منهـا الألفنزو والبايرة وبقية الأنواع بلدية .

توت أحمر طويل الثمر

عنب عاصمي بياض عيون أسود أطراف رازقي

رمان . بابي في لحج اسمه عَنْبْ . فرسك إنجليزي ومصري ويماني

چمروك

چامبو (نوعان أسود وأبيض)

شيكو

لتشي

جُنْذَة

أقلَهْ

القشطة العادية اسمها بالهندية (ستافل)

قشطة حمراء اسمها بالهندية (رامفل)

قشطة ناعمة بدون قشور اسمها بالهندية (مامفل)

قشطة كبيرة مشوك (إفريقي) اسمها في بعض لغات إفريقية والمغرب

كرفنص بالهندية أو بالإنكليزي چيك فروت وهي فاكهة كبيرة مثل البطيخ تعلق في أصل عود الشجرة

برقوق (كمبنيشن) نوع آخر يمني من نوع (المري بولان) ونوع ثالث أوراقه حمر (ياباني)

النبق نوعان مدور كبير ، وعنابي طويل منقول من نبق نحو امداوار في الهند

الموز شجرة قصيرة نوعان كاكي وأبو نقطة . الطويل موز أحمر وموز كبير قرن الثور . والموز الصيني صغير

لوتس يشبه البرتقال

بدام باللغة الهندية ومعناها لوز وفي لحج يقال (بيذان) الذي قال فيه شاعر صنعاء :

كل الشجر فديه على البيذان أكلٌ وظل

شجرة الجوز الهندي ويقال له في لحج « نارجيل » وأصلها من لغة الهند (ناريل) الذي قال الشاعر اليمني دون أن يرى الثمرة .

مكحول من ربِّه وفي صدره حبوب النارجيل

فالته : باللغة الهندية شجرة ثمرها عنقودي حبوب حمر مثل النبت الصغير منقولة من حيدر آباد يصنع شرابات لذيذة

(ماهونجا) الشجرة التي رأيتها يصنع من عروقها النشاء

المشهور من الأشجار الموجودة في اليمن
في قسمي الجبال والتهائم على اختلاف المناطق

الأشجار التي لها ثمر	الأشجار التي لا ثمر لها
البن	الصفصاف
العنب على تعدد أنواعه	الفلفل المالطي
الرمان الحلو والحامض	الكالبتوس

السفرجل
البرقوق والمشمش
الخوخ
الأجاص
الكمثرى
التفاح
الليمون الحلو والحامض
النارنج
قليل من البرتقال واليوسفي
الأترج
العنب (الأبناء الهندي والشامي)
النخل في المناطق الحارة
التمر الهندي
خيار شنبر
الجوز
اللوز
الموز
التين (البلس)
التين الإفرنجي
التوت الأحمر وقليل من الأبيض
شجرات من الزيتون لا تثمر
الخروع
حبة الملوك
خرنوب

القاوق
الطنب (سبستان)
زرح (جور)
السدد
الأثل
الطلح أم غيلان ومن القرض وله أنواع كثيرة كالسمر والسلم
العشّر
الأراك
الحناء
قصب فارسي (حلال)
السرو
شجرات من الفستق غير الجيد
الطرفاء

عالم الحيوان : وعالم الحيوان يبدي في اليمن كثرة وروعة غريبتين . فالجبال تحتوي على أفراد قليلة من الضباع والذئاب ، وعلى أسراب كثيرة من القرود . وفيها كثير من الحشرات والهوام المؤذية كالأفاعي والعقارب والرتيلاوات السامة والبق . وفي تهامة أسراب كثيرة من الغزلان السارحة . واسم القرد في اليمن (رباح) . على حين أن هذه الكلمة في اللغة تطلق على القرد الضخم[1] .

وللقرود في اليمن ألوان عديدة . فمنها الأسود والأصفر والأحمر . وهي تسرح وتمرح مجتمعة بحيث لا يقل عدد السرب عن العشرات وأحياناً عن المئات . وهي تعيش في المناطق ذات المياه ، فتسطو على الزروع والبقول وتتلفها ، ولكل سرب رئيس كبير الجثة يحكم على سربه حكم القائد في جيشه . ولما كان القرود جبناء وشديدي الإحساس يسيرون بحذر وانتباه كالجند المتخذ وسائل الحيطة في أرض معادية ، فإنهم يضعون لكل سرب قرداً أو قردين في الطليعة والساقة[2] والجناحين الأيمن والأيسر . فإذا ظهر أمام السرب السائر مانع ما في إحدى الجهات المذكورة يصيح القرد الموظف في تلك الجهة ليقف السرب كله ويصغي إلى مصدر الصوت ، فإذا صاح القرد الموظف صيحة ثانية ينطلق السرب بسرعة منهزماً نحو الجهة المقابلة الأمينة ، وعند الهزيمة يمتطي الصغار ظهور أمهاتهم أو يتعلقون حول بطونهن . والقرود قلما تتعرض للإنسان ، ما لم يستفزها فترشقه حينئذٍ بالحجارة أو بما يماثلها .

أما الطيور الكواسر كالنسر والعقاب والصقر والحدأة والرَّخَمَة وغير الكواسر كالحمام والقمري والعصفور والشحرور والبلبل والهدهد والحجل والقنبرة والشقراق وغيره فحدث ولاحرج عن كثرة أنواعها وأجناسها واختلاف أشكالها وألوانها

---

(١) في معجم الحيوان لأمين معلوف ص ١٧ « إن هذه اللفظة من أصل سامي بمعنى رب أو شبهه ، لأنهم كانوا يعظمون القرد في اليمن كما كان يفعله قدماء المصريين » .

(٢) الساقة : ساقة الجيش مؤخره (ح) .

وأصواتها وغرابة طيرانها حول المساكن وفوق الرؤوس بلا وجل ، ويعزى ذلك إلى كراهة صيد الطير لدى اليانيين أرباب المذهب الزيدي .

(**الأديان**) الدين العام في اليمن هو الإسلام . ومسلموه إما شيعة من أتباع مذهب زيد بن علي بن الحسين بن علي ، الذين يقولون بوجوب الإمامة وتعينها في أحد أبناء بيت النبوة الحائز على الشرائط الآتية :

أن يكون ذكراً حرّاً مجتهداً علويّاً فاطميّاً عادلاً سخيّاً ورعاً سليم العقل ، سالم الأطراف صاحب رأي مدبراً مقداماً فارساً . وإما سنية من أتباع مذهب محمد بن إدريس الشافعي ، الذين لا يقولون بحصر الإمامة في آل البيت . وجميع سكان جبال اليمن الأعلى زيدية ، كما أن كل سكان جبال اليمن الأسفل والتهائم شافعية . والزيدية يؤلفون ثلث سكان اليمن ثم الشافعية يؤلفون الثلثين . لكن السيطرة في يومنا بيد الزيدية كما كانت أيضاً في أكثر العصور الماضية . وقد تقدم القول : إن الفروق ملحوظة بين أتباع المذهبين من نواحي الأخلاق والعادات والحالات السياسية والإدارية .

ويقيم في جبال قضاء حراز قليل من الإسماعيلية أتباع داعي الدعاة (سلطان البهرة) في الهند ويسمونهم مكرميين وفي الهند بهرة . وهم غير الإسماعيلية الذين يؤلهون آغا خان الزعيم الهندي المعروف ، واليهود يؤلفون عشر سكان اليمن ، وهم منتشرون في أكثر مدن اليمن وقراه ، يقيمون وحدهم في أحياء منعزلة ويؤدون جزية ضئيلة لاتتجاوز الريالين لقاء أمن واطمئنان لا يرون نظيرهما في أي قطر آخر ، وهم مكلفون إرخاء العارضين ولبس أزياء خاصة ذات لون أسود أو ما يماثله وعدم ركب الخيل وتقلد السلاح . وذلك لكي يميزوا من المسلمين ولا يخل أحد باطمئنانهم . وعلى الرغم من مظهرهم الدالّ على الخفض والضعة فإنهم أهنأ حالاً من المسلمين المنكوبين بالبؤس والخمول . فمعظم الصناعات

في اليمن في أيدي اليهود ، وكذا معظم التجارة ، وكل الصيرفة ، فهم الحاكمون في الحركة الاقتصادية .

(الطبقات) :

كيفما جال الغريب في بلاد اليمن يشاهد أساليب الحياة وتقاليد المعيشة ، والأطوار والأفكار ماتزال على ما كانت عليه قبل بضعة قرون ، منها : أن اليمانيين مازالوا ينقسمون كما كانوا في عهود أجدادهم الغابرين إلى طبقات عدة هي : السادة والفقهاء والقضاة والنقباء والمشايخ والعقال والقبيليون فهؤلاء علية القوم والمنظورون فيه . ويلي هؤلاء العوام وأرباب الحرف كالحداد والنجار والجزار والبناء والمزين والحمامي والنّشاط والدوشان والمقهوي والرعوي وعيال العقال ... وأمثالهم المعدودون من الخشارة[1] في المجتمع اليماني .

(السادة) : لا تطلق كلمة السيد في اليمن إلاّ على المنتسبين لآل بيت الرسول ﷺ ، ولا يجوز استعمالها لغيرهم . والسادة في اليمن كثيرون ، تجدهم أينما ذهبت ، أسرهم معروفة وأنسابهم محفوظة . وهم أسمى طبقات اليمن وأوفرها احتراماً وإعزازاً . وهم القابضون على عنان العقائد والميول والمسيرون للآراء والنزعات .

وإذا صادف اليماني رفيعاً كان أم وضيعاً واحداً من هؤلاء السادة وإن صغر سنه ورق حاله يهوي على ركبتيه ويديه بالتقبيل . وإذا ما ألقى أحد هؤلاء السادة خطبة في مسجد أو حادث جمعاً في منزل أو أذاع نشرة في البلاد يدعو لزعامته أو نصرته ، لا بد أن يشرع بالفخر والتمدح ، وأنهُ من آل بيت الرسول المخصوصين بالتقديم والتكريم وقراء الذكر الحكيم الذين ورد في وجوب محبتهم والتعلق بأذيالهم كذا وكذا من الآيات والأحاديث ، كما يذكر مثلها في فضائل اليمن وأهل اليمن ، وأشهرها حديث (الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية) .

---

(١) الخشارة : الرديء من كل شيء (ح) .

وكل الأمارات والعمالات الرفيعة والمقامات والوظائف الدارة في اليمن هي للسادة بادئ ذي بدء مهما قلت معرفتهم وكفاءتهم ، وكل صدقات الفطر والهدايا والنذور الدينية في الأعياد والمواسم وغيرها من الأوقات تجبى لهم مهما كثر مالهم وسعد حالهم .

فتأمل بعد هذه الوجاهة والسيطرة الروحيتين الفائقتين كم يؤثر هؤلاء السادة في إنهاض الشعب اليماني البائس الذي ركبوا منكبيه منذ أحد عشر قرناً ، لو تهيأت لهم شروط ذلك الإنهاض من علم نافع وشعور قوي أو وطني . والقاعدة عند السادة أن يصاهر بعضهم بعضاً . فالسيد لا يرغب في زواج ابنته إلاّ من سيد . ولا يصبو ابن السيد للاقتران إلا من (شريفة) وهو لقب بنات السادات ، وقد يقترن السيد ببنت غير شريفة ويكون ولده منها سيداً ، ولكن الشريفة إذا اقترنت بغير سيد لا يكون ولدها منهُ سيداً .

☆ ☆ ☆

الفقهاء : هم شيوخ الدين المتضلعون والمشتغلون بالفقه وغيره من العلوم الشرعية الإسلامية ويكونون من غير السادة . وللفقهاء أيضاً في نظر الشعب اليماني احترام يقرب مما للسادة ، وما ذكرناه عن أولئك يشمل هؤلاء أيضاً في الجملة .

القضاة : هم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين في دوائر الحكومة اليمانية من غير السادة .

النقباء : هم أعقاب حكام بعض البلاد فيما مضى الذين دالت دولتهم فانتقلت أملاكهم إلى بيت المال ، ولهؤلاء أيضاً قدر معروف .

المشايخ : هم عمد القرى والأحياء وذوو الحول والطول فيها . والمشيخة تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء .

العقال : طبقة توازي المشايخ بالقدر والنفوذ . وقد يكون السيد والشيخ عاقلاً .

القبيليون : القبيلي هو المعروف بالقروي أو الفلاح في عامة الأقطار العربية . وقد دعي بذلك لأن قرويي اليمن وفلاحيه ما برحوا محتفظين بأنسابهم واجتماعهم على هيئة قبائل وبطون وأفخاذ . فهناك همدان وسنحان وعنس وحاشد وبكيل وأرحب ونهم وبلحرث وغيرها من القبائل العربية القحطانية المعروفة من قبل الإسلام ، لا تزال هي والفروع العديدة التي تشعبت منها في العصور المتوسطة والأخيرة ، وتسمت بأسماء شتى كذي محمد وذي حسين وبني جبر وبني بهلول وبني الحارث والحدا وغيرها موجودة في اليمن على الحالة والفطرة اللتين تركهما أجدادهم .

فالقبيليون هم جمهرة الشعب اليماني ودهماؤه وخدام زرعه وضرعه وجنود سادته وحكامه ، وحملة دواعي بؤسه وشقائه ، يرهب جانبهم ، ويقام لهم وزن لأنهم كانوا وما برحوا أتباع الناعقين وأعوان الواثبين والخارجين .

وقبيليو اليمن ليسوا من الأعراب الرحل سكان بيوت الشعر المعروفين في بقية الأقطار العربية ، حتى إن اليمن يكاد لا يعرف لهؤلاء أثراً لفقدان البراري والصحاري الصالحة لسرح الإبل والغنم والخيل والترحال ، بل هم من المتعلقين بمزارعهم ومحارثهم ، والقاطنين في قرى ودور حجرية في الجبال ، وفي عرائش وأكواخ من الشجر والقش في التهائم .

والقبائل في تهامة وفي الجبال كانوا وما برحوا تحت نفوذ زعمائهم والغالبين على أمرهم ينقادون لهم انقياداً أعمى ، وأول عنصر الزعامة في القرى يبدأ بالعقال والمشايخ ، فكل من هؤلاء في قريته صاحب الزعامة الزمنية والقابض على زمام الآراء والحقوق . وينقاد هؤلاء إلى زعيم كبير يدعونه (شيخ المشايخ) يسيطر

على قرى عديدة تختلف قلتها وكثرتها بحسب قوته . ثم إن كلاً من هؤلاء ينقاد إلى الرئيس الأكبر الذي بيده أمر القبيلة كلها .

أما الزعامة الروحية والسيطرة العليا الزمنية الإدارية والمالية والسياسية فهي بيد الأئمة الذين لم ينقطع تعاقبهم منذ أواخر القرن الثالث الهجري على الرغم من الدول التي تداولت الحكم في اليمن .

والإمامة قد لا تبقى في يد سيد واحد بل ينازعه فيها غيره أحياناً من الحائزين على الشروط الأربعة عشر . ونفوذ الأئمة وسيطرتهم هائل جداً . فالإمام بحسب المذهب الزبيدي رئيس ديني وأمير المؤمنين وخليفة المسلمين . وقد غالى الأئمة في فرض طاعتهم وتقديسهم ورووا أحاديث ووضعوا دساتير قاسية جداً ؛ فالصبي اليماني أول ما يتعلمه في الكتاب أن : « طاعة الإمام منّ طاعة الله ومعصية الإمام من معصية الله » وأن « لا يد فوق يد الإمام » وأن « ليس للرعية إلاّ ما طابت به نفس الإمام » ، وغير ذلك من الأقوال الكامة للأفواه والقاطعة لنياط القلوب مهما أساءَ الأئمة وأخطؤوا بصفتهم بشراً على كل حال .

الألقاب : ومن غرائب اليمن أن الألقاب الفخمة التي كانت تستعمل في عصور انحطاط دول الإسلام ما زال لها في اليمن حكم قائم لا يحيدون عنها في تراسلهم وتخاطبهم . فكل سيد أو قاضٍ علامة وكل فقيه فهامة ، وكل من كان ابناً للإمام فهو سيف الإسلام ، وهذا لقب لا ينازع أبناء الإمام فيهِ أحد . وكل من كان اسمه أحمد فهو صفي الإسلام ويناودونهُ بالصفي ، ومن كان اسمه محمداً فهو عز الإسلام ويناودونهُ بالعزي ، ومن كان اسمهُ عليّاً فهو جمال الإسلام ويناودونهُ بالجمالي . وهكذا بالفخري وبالشرفي ... إلخ .

الزراعة

معيشة اليانيين قائمة على الزرع والضرع ، لكن زراعتهم إلى حد الكفاف لا إلى حد التصدير والاتجار . فسكان التهائم لا يستغنون عن استيراد الدقيق الهندي المعروف بأبي فيل ، وليس في اليمن من المحاصيل الزائدة والصالحة للتصدير سوى البن والجلد ، اللذين لا يعتد بها في الكثرة والإيراد . وقد يصدرون قليلاً من التبغ والسمن والعسل والورس وسليط السمسم وأحجار العقيق بأنواعه الأحمر والمشجر والسماوي ، لكن هذا القليل لا يكون إلاً في سني الرخاء القليلة أيضاً . فاليمن لا يقاس من حيث الخير والمير بمصر والعراق حتى ولا بالشام ذي الجبال . وقديماً قال ابن البرهان الحكيم : واسم اليمن أكبر منهُ لا تعد في بلاد الخصب بلاده (صبح الأعشى ٥/٧) .

وإذا كان لتهاون كبراء اليمن بإصلاح مرافق البلاد عامةً والزراعة خاصةً أثر كبير في هذا حتى الآن ، فلقسوة الطبيعة أثر أكبر ، يحاول الفلاح الياني أن يغالبها بجهود جبارة جديرة بالثناء والرثاء . والواقع أن قسماً عظيماً من النجود والتهائم غير قابل للحرث والزرع . ففي النجود ترى المتون والحرار التي وصفنا كثرتها ووعرتها . وفي التهائم كثبان الرمال والبراري الجافة تشغل قسماً عظيماً لا تقل نسبته ـ على ما ظهر لي ـ عن ستين في المائة من عموم المساحة ، والبقية التي قدرها أربعون تستثمر استثماراً مكلفاً لضيقها ونقصها عن الحاجة ، وهي منبثة على غير اتصال في الأودية والمنحدرات والمنبسطات .

والفلاح الياني من أشقى فلاَّحي العالم لكثرة كده وعثرة جده ونقص العناية بأمره ، فهو يضطر :

أولاً ـ بحكم كثرة الجبال التي وصفناها مراراً إلى أن يتجشم في منحدراتها عملية شاقة مكلفة يحرث بها أرضين جديدة وينشئ غيطاناً صناعية يسميها جرباً (جمع

جربة) يملؤها بالتراب الذي ينقله على ظهره ، وقد يكون ذلك من مكان سحيق بعد أن يدعم أمام التراب بجدار عريض لا ينقص ارتفاعه عن مترين أو ثلاثة في أكثر الأماكن .

وهذه الجرب تكون صغيرة المساحة في الغالب لضيق الأرضين فلا تتجاوز المئة أو المئتين متراً مربعاً . وهي تحسب عندهم بوحدة من القياس يدعونها لُبنة ، ذرعها يختلف بحسب المناطق فتكون تسعة في تسعة أذرع أو ضعفي ذلك .

وابن الجبال في اليمن لا يغادر أصغر بقعة في جباله مما يمكنه استثماره إلاّ ويتعلق بأذيالها ويحمل لها التراب ويقلبها جربة . والسائر في الجبال أينما يتوجه ير هذه الجرب متدرجة من سفوحها إلى قممها ، بعضها فوق بعض كالمصاطب المتوالية وهي تعد بالعشرات وأحياناً بالمئات ، فيما يكون المنحدر شاهق العلو .

ثانياً ـ يعتمد الفلاح اليماني في الحرث على عملية النقب **defoncement** واسمها عنده (القلط) . ذلك لأنه لا يستطيع الحرث بالبقر في كل زمان ومكان ، تارةً لقلة البقر الذي تجتاحه الأوبئة والأمراض المستولية من حين لآخر ، ولا من يداويه لفقدان الأطباء البيطريين ، وتارةً لتعذر صعود البقر ونزوله من أكثر تلك الجرب المتدرجة المرتفعة ، وتارةً لأن أرض الفلاح ضيقة ومواسمه التي يستغلها منها متوالية لا يعوضها بالسماد فتنتهك قواها ويحتاج حينئذٍ إلى استمداد الخصب من تحت تربتها .

لهذه الأسباب يتكل على سواعده فيقلب عاليها سافلها إلى غور ٣٠ ـ ٤٠ سنتيمتراً ، وهو يتخذ لذلك معولاً سقياً اسمه (مفرس) صغير المقبض ذا حديدة مستدقة طويلة . ولا يخفى أن هذه العملية أيضاً شاقة وتستدعي أيادي عاملة كثيرة تكلف وقتاً ونقداً طائلين . ولكن الفلاح اليماني يتجشمها على الرغم من ذلك ، ويكرر عملها كل سنتين أو ثلاث مرة في رأس الدورة الزراعية . والشقاء

الناشئ من هاتين العمليتين وأمثالها حدا باليانيين أن يسموا العامل فيهـا بـالأجرة اليومية (شاقي) ويجمعونها على (شقاة) .

أما في القيعان والأودية المنبسطة فقـد يستعمل الفلاح اليماني المحراث المجرور بالبقر . لكن محراثه من أسقم المحاريث الشرقية التي كلها سقيم . فالطرف النهـائي من سكتـه عريض نحو ٥ ـ ٦ سنتيمترات ، وحقـه أن يكون رفيعـاً ليسهل نفوذه ، ولو كانت تربة اليمن مندمجـة ثقيلـة لاستحـال الحرث بـه . ولكنهـا خفيفـة سهلـة التفكك . ثم هو بعد الحرث بالبقر أو بعد « القلط » يستعمل التمشيـط Hersag ، ويتخذ له مشطاً اسمهُ عنده (المشبَّر) له أسنان من الحديد ضخمة دقت تحت لوح من الخشب ، مستطيل الشكل يجره بـالبقر فيكسر بـهِ التلع البـاقيـة بعـد الحرث ويفتتها . وهذه عمليـة نـافعـة محمودة لم أدرِ من أين اقتبسهـا الفلاح اليماني ، وهي كثيرة الاستعمال في أوربـة ، وقليلتـهُ أو هي شبـه مفقـودة في بـلاد الشـام رغم لزومها ، ورأيت أيضاً مما يحمد للفلاح اليماني أنهُ بعد عمل التمشيط يستعمل التمهيد Nivellement ، ويتخـذ لـه زحـافـة خشبيـة مستطيلـة الشكل في طرفهـا لسـان حديـديٌّ ينفـذ في التراب أثنـاء العمل ، اسمهـا عنـده (المحرّ) ، يـدفع بهـا تراب الأقسام الواطئة إلى الجربة فيدحو سطحها ويمهـده لكي تتوزع ميـاه الري أو ميـاه الأمطار فوقـه بـالتسـاوي . ثم حينمـا يقسم الأرض المستويـة إلى أحواض يستعمل المسحاة المعروفة لدى بستانيِّ بلاد الشام ، أو يدفعها شخص ويجذبها آخر ، وذلـك لرفع الحواجز بين القسائم ، واسم المسحاة عنده (مسبّ الحديد) وحصـاد الزروع يؤتى بالأيدي أو بالمناجل ، والدارس يؤتى دوساً بأرجل الحمير أو هرساً بـأسطوانـة من الحجر الثقيل تشبه التي تستعمل في بلاد الشام لدحو الأسطحة دفعاً للوكف .

☆ ☆ ☆

أمـا تركيب الصخـور الجيـولـوجي في اليمن فجـلُّ أراضيـه في الأكثر رمليـة طينية ، صفراء اللون ، قليلة الاندماج ، وسط في خصبهـا ، على أن هـذا الخصب

يزداد في الأرضين المستوية أو المروية بمياه السيول ، والمحروثة بطريقة (القلط) المذكورة آنفاً . وأغلب أراضي القيعان المنبسطة في النجود أعذاء ويدعونها (أرض عَقَر) ويجمعونها على أعقار . وهي تشرب من مياه الأمطار فقط ، أو من مياه السيول التي يعنون بسوقها وفرشها فوق حقولهم . كما أن أغلب الأراضي في قعر الأودية مستوية يدعونها (أرض غيل) تشرب من مياه الينابيع والمسايل .

والحاصيل التي يعنى بها فلاحو القيعان والأودية المذكورة هي الحبوب كالقمح ويدعونه بُرّاً والشعير والذرة على اختلاف أنواعها . وعندهم للبر أنواع عديدة ، منها البوني والميساني والسمرة والعربي . فالبوني والسمرة والميساني من الأنواع الشتوية التي تزرع في الأعقار في كانون الأول وكانون الثاني وتحصد في نيسان وأيار . والعربي من الأنواع الصيفية التي تروى ، وهو يزرع في حزيران ويحصد في أيلول .

ولهم في زرع الأنواع الشتوية في الأعقار طريقة يدعونها (القياض) ، هي أنهم يخطون بالحراث في الأرض المهيأة ـ خطوطاً متوازية أقرب إلى الانحناء من الاستقامة ، ويلقون الحب في الأزلام المحفورة بين الخطوط أو المتون إلقاءً ويتخذون لهذا أنبوباً طويلاً من الصفيح يربطونه بقبض المحراث على النحو الذي يزرعون به الذرة البيضاء في بلاد الشام ، فيخرج الحب باتساق كأنه مزروع بآلة البذر الأوربية .

وللشعير أنواع منها السقلة الذي يؤكل خبزه لبياضه وجودته ومضارعته للبر ، وهو يزرع في غرة تموز ويحصد في منتصف تشرين الأول . وفي بعض الأماكن يمكن زرعه مرة ثانية في السنة . ومنها نوع اسمه الأسود يمكن زرعه مرتين في السنة صيفاً وشتاءً .

ومن الشعير ما هو ذو صفين كالشعير الحضوري ، وما هو ذو ستة صفوف كالشعير الميساني .

أمـا الـذرة الصغيرة Sorgo فلهـا عنـدهم عـدة أنـواع بحسب الألـوان : حمراء وصفراء وبيضـاء وغبراء ، ولكل من هـذه الأنواع عـدة أصنـاف ، وهي تـزرع في نيسان وأيار وتحصـد في تشرين الأول وتشرين الثـاني . أمـا الـذرة الكبيرة Mais المعروفة في مصر بالشامية وفي اليمن بأسماء شـام وروممي وهنـد ، فلهـا أيضـاً أنواع عديدة ، تزرع في نيسان وأيـار وتحصـد في تشرين الأول . فـأنت ترى من ذلـك أن في اليمن لكل من أجناس الجبوب أنواعاً شتويـة وصيفيـة ومواسم زرع وحصـاد متوالية لاتكاد تنقطع في أكثر شهور السنة .

والمسافر في نجود اليمن وأوديتـه كيفـا وفي أي وقت يتجـه ير حقولاً تبـذر ، وأخرى تسقى ، وأخرى تحصـد ، ويرى زروعـاً قـد نبتت وأخرى بجـانبهـا ومن جنسهـا قـد اهتزت وربت ، وأخرى قـد حملت سنـابلهـا ، وأخرى قـد اصفرت واستحصدت وهلم جرّا ، وهذا من عجائب اليمن .

وللهمداني في كتابـه « صفـة جزيرة العرب » عبـارة في هـذا الموضوع تؤيـد مـاقلنـاه وتـدل على قـدم المصطلحـات الزراعيـة اليمانيـة وغرابتهـا قـال : « ومن عجائب اليمن أن أكثر زروعها أعقار فلذلـك متن عجينهـا ولان خبزهـا . وهو أن تشرب الجربة في آخر تموز وأول آب ثم تحرث بأيلول إذا جمدت أي شربت مـاءَهـا وجف وجهها ، ثم تحرث في تشرين كرةً أخرى ثم في تشرين الآخر كرة ثالثة ، ثم بذرت في كانون الأول فأقام فيهـا الزرع إلى أيـار وصرب (يعني فطم) ولم يصب ماءً ، فأما القرارة بالهجيرة فـإنـهُ يصرم (يعني يقطع بهـا متعجلاً بنيسـان أو آخر آذار فتكون الجربة بهـا كثير من جمهـا فتحرث ويبـذر فيهـا ثـانيـة فتـأتي بطعـام معجل لحرارة الزمان يصرم بحزيران اهـ .)[1] .

---

(١) اسماء الشهور : كانون الثاني ـ يناير . شباط ـ فبراير . آذار ـ مارس . نيسان ـ أبريل . أيار ـ مـايو . حزيران ـ يونيو . تموز ـ يـوليـو . آب ـ أغسطس . أيلـول ـ سبتمبر . تشرين الأول ـ أكتوبر . تشرين الثاني ـ نوفمبر . كانون الأول ـ ديسمبر .

وفي اليمن غير الحبوب المذكورة اللوبياء واسمها عندهم الدجرة ، والفول ذو الحب الصغير والعدس والعتر المشابه للجلبان والسمسم وأجوده الماربي والجوفي والخردل ، وهم يعصرونها واسم زيتها سليط ، والعلس المشابه للبر .

أما في تهامة فحرها لا ينبت البر والشعير ، وإنما العناية فيها للذرة الحمراء ، وأجودها البكر ، والبيضاء وأجودها الصيف ، وللدخن واسمه عندهم طعام ، وللذرة الشامية وللسمسم وللطهف .

وفي زبيد وريمة وحفاش قليل من العصفر والنيلة والحناء ، وفي أماكن أخرى التبغ والكمون واليانسون والشمار والحلبة وقصب السكر والموز .

وفي أنحاء مفحق والعدين الورس ، وكل ذلك لسد الحاجة لا للتصدير .

ومن دواعي الأسف أن كثيراً من الحبوب والنباتات المذكورة مصاب بأمراض وحشرات مختلفة تحتاج إلى اختصاصيين يعنون بأمرها على أن يعنى بتنفيذ وصاياهم .

وقد تقدم في بحث الأودية أن أزكى أرض اليمن تربة وأوفرها ماءً وأكثرها مزارع ورياً هي الأودية . وعلى الرغم من هذه المزايا لا يسع المتأمل فيها إلاّ أن يعجب ويأسف من اقتصار سكانها وملاكها سادات اليمن على زراعة الحبوب والنباتات المذكورة آنفاً . فليس في اليمن من النباتات والأشجار الاقتصادية الصالحة للتصدير والاتجار إلاّ القليل ، وأخص هذا القليل البن وسيأتي ذكره . ولو أنهم عنوا بإيجاد النباتات والأشجار الاقتصادية التي تجلب لهم دراهم من الخارج وسعوا في إصلاح الزراعة وإزالة عراقيلها لكفتهم مؤونة العوز وأغنتهم .

وثمة من المحاصيل التي أطنب فيها الهمداني (في صفة جزيرة العرب) النباتات والحيوانات الآتية التي لم يتسنّ لي رؤيتها والتثبت من بقائها حتى الآن . قال : « سكر العشر لا يكون إلاّ بنجران ، وهو سكر ينزل من الهواء على

ورق العشر وعلى غيره أحيانـاً ، وهـو ضربٌ من المن وهيئتـه مثـل قطـع اللبـان والمصطكي ، وقـد يحل ويعمل منـهُ سكر كبـار مطبع في القـوالب ، ومنهـا المحـط ويدعى القَصـاص وهو حـانق للبواسير ، ولا تصيب هـذه العلـة أحـداً في خيوان لاستعمالهم إياه في القدور ويعقـد بـالعسل ويهـدى . وأهـدى منـهُ بعض سلاطين تهامة إلى العراق فكتب إليه أن احتفظ بحظائر هذه الشجرة ، فـأعلمهم أنـهُ نبـات جبـال قبـائل وادعـة وأرحب . ومنهـا الورس واللبـان اللـذان لا يكونـان في غير اليمن .

وقـال : وفي اليمن من كرام الإبل الأرحبيـة والمهريـة والصوفيـة . ومن البقر الجندية والجنديريـة في الجسم والقوة وطيب اللحم ، والجيلانيـة السود الحرش التي تدبغ جلودها للنعال ، ومنها الشرع المدلهمة ، ولها حيالة وحد في قرونها وبـأس ، وتقتل السباع وهي العراب من البقر ، والأخرى الدرب والـدربـة السنـام ، ومن الحمير للسرج الحضرمية ثم المعافرية . ومن الخيل العنسيـة والجوفيـة ، وبهـا الكاذي الذي لا مثيل له في بلد يشبه رائحة السبلة في الثوب ، غمره ودهنـه نفيس ، وبهـا الدعبب وهو اللي وهو من حبوب الباه ودهنه نفيس . إلى أن قال : وأما حشائش اليمن فكثيرة لمن تفقدها . اهـ » .

ويظهر أن أهل اليمن في العصور الغابرة ما كانوا يعرفون الخضراوات الدارجـة في بقيـة الأقطـار ـ بعضهـا إن لم يكن كلهـا ـ فقـد ذكرت التواريخ أن السلطـان صلاح الدين الأيوبي لما أرسل أخاه توران شاه ليملك اليمن بـالنيـابـة عنـهُ ، وظلَّ هـذا نحو سنتين (٥٦٩ ـ ٥٧١ هـ) كانت من أول دواعي شكـواه من اليمن وطلبـه من أخيـهِ الرجوع إلى الشـام هـو فقـدان الخضراوات والفـواكـه . وقـد ظـلَّ هـذا الفقـدان إلى عهـد الترك . فهم الـذين أدخلـوا أكثر الخضراوات والفـواكـه وعلمـوا اليمانيين ـ على قدر ما يعلمهُ الجنـدي والموظف ـ طرائق زرعهـا وأكلهـا ، تراءى لي ذلـك من أن اليمانيين يعرفون الخضراوات بـأسمائهـا التركيـة فيقـولـون للبـاذنجـان

باطلجـان وللفليفلـة بو يـار وللسلق بـازي ، حتى إن اللبن الرائب لا يعرفونـهُ إلاَّ باسم يوغورت . على أنهم قلما يستعملونها .

وليست الأشجار المثمرة معروفة في قمم الجبال إلاَّ في صنعاء وتعز وأمثـالها من المـدن وهي قليلـة ، وجلهـا رديءٌ ومريض بمختلف العلل والحشرات . فـالتفـاح والكمثرى ويـدعـونـهُ عنبروث والسفرجـل والخـوخ ويـدعـونـهُ فرسـك والمشمش ويـدعونـهُ برقوق ، والتين ويـدعونـهُ بلس ، مما لا يستحـق الأكل إلاَّ اللـوز ولـه جبل خاص باسمه فإنهُ جيد .

وربما تردت هذه الأثمار ومرضت لازدحـامهـا واشتبـاكهـا لفقـدان العنـايـة والمعرفة بانتخاب البزور والغراس وبالتطعيم والتقليم وغيرها من الأعمال البستانيـة الفنية التي يجهلها اليانيون . وهذا مـادعـاني لفتح المـدرسـة الزراعيـة وطبع ونشر عدة رسائل منها رسالـة خـاصـة في فن زراعـة الأشجـار وفـاقـاً لحـاجـات البلاد اليانية ، وذلك خلال المدة القصيرة التي حددوا وجوب مكوثي فيها . وليس عندهم من الفواكه أطيب من العنب وإن لم أدركه أو أذقه ، وله في صنعاء وضواحيها فيما قيل ثمانية عشر صنفاً .

وهم يربون شجيرات العنب على هيئـة دوالٍ عـاليـة يعرشونهـا فوق أخشـاب أفقية مستندة إلى عمدان من الحجر طولها نحو مترين . ويجعلون هذه الـدوالي على صفوف مـزدوجـة بين الـزوج والـزوج نحـو سـتـة أمتـار أو أكثر ، وبين الصفين في الزوج ثلاثة أمتار . ولا يعرفون طريقـة أخرى لغرس الكروم . وهم يتعجبون إذا سمعوا أن كروم العنب في بلاد الشـام وأمثـالهـا مؤلفـة من شجيرات قصيرة السـاق القائمة أو المتمددة ، المغروسة صفوفاً متقاربة .

ويـنـدر عنـدهم البرتقـال والليمـون والأترج ولا يعرفهـا إلاَّ الخـواص ممن لهم بساتين في وادي ضهر قرب صنعـاء . على حين أن غيره من أوديتهم الحـارة صـالح

لتكثيرها . وقد سعيت إلى ذلك ، وجلبت كثيراً من غراسها وغراس المندرين كما جلبت كثيراً من أصناف التفاح والكمثرى والمشمش والخوخ المعروفة في الشام بالدراقن وذلك للتجربة وإصلاح الموجود لديهم منها بالتطعيم .

ورأيتهم يجهلون أيضاً بعض الأشجار المثمرة التي رأيتها مناسبة لإقليمهم الجبلي كالزيتون والفستق والصنوبر والكرز فجلبت من هذه أيضاً ، ومن المشملة الصالحة لأوديتهم فزرعت بزور بعضها ، وغرست غراس الآخر ، ورأيت بدء نجاح القسم الأوفر منها ، ومن أشجار الحراج والزينة التي تقدم ذكرها . فإذا لم يهملوا هذه الأشجار الثمينة وتعهدوها وفاقاً لما كتبت وأرشدت يؤمل حصول فوائد جمة لهم منها في المستقبل .

البن اليماني وأصنافه :

وأحسن وأبرك ثمر أوجدتهُ القدرة الإلهية الفاطرة لبلاد اليمن ، وجعلت كل رغائبه متناسبة مع جوّ هذه البلاد وتربتها هو (البن) ، والبن من الفصيلة الفوية Rubiaceae ومن العائلة السنكونية Cinchonea واسمهُ العلمي Cafea Arabica . قيل : إن موطنهُ الأصلي بلاد الحبش ، ولم يزرع في اليمن قبل بداية القرن التاسع الهجري ، وكان ذلك على يد شيخ فاضل اسمهُ جمال الدين بن أبي الفخر .

والبن يجود حول صنعاء وأمثالها من النجود العالية الجافة ، بل في الأماكن الجبلية المتوسطة في ارتفاعها بين (١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ م) المعرضة لأبخرة البحر والأمطار الاستوائية ، وهو يعلو بحدود ٣ ـ ٤ أمتار له ساق قائمة مستقيمة ، لا يضخم قطره أكثر من ٦ ـ ٧ سنتيمترات ، والأغصان الجانبية النامية على هذه الساق تمتد في كل أطرافها بنسبة واحدة موازية للأفق وطول يقرب من المتر .

وأوراق البن تشبه عن بعد ورق الليمون بشكلها ولونها الأخضر القاتم

وخلودها . وأثمار البن حبوب ذات قشر يكون في أول أمره أخضر ثم يصفر أو يحمر احمراراً أرجوانيّاً ، وإذا جفّ يسود اسوداداً فاتحاً . ولا يثمر كل البن دفعةً واحدة بل يتتابع موسم الإثمار ، فيوجد البن الأخضر في كل وقت . ومن عيوب زراع البن في اليمن أنهم يقربون أشجاره بعضها إلى بعض تقريباً ضارّاً لا يتجاوز المتر أو المتر والنصف ، وحقه أن يكون ثلاثة أمتار ولا يتعهدونهُ كما يقتضي . ولو تعلموا طرائق زراعته في البرازيل وجزائر أمريكا المتوسطة التي رقت زراعة البن فيها ، وخدموه كما يجب وعنوا بعمليات تخميره وغسله وتقشيره وغربلته بالآلات التي اخترعت خاصة للبن ، ثم بتصنيفه وحسن تنضيده وحزمه وسوقه ، وأخيراً لوعرفوا كيف يبيعونهُ إلى البلاد الخارجية ولا يسلمونهُ إلى التجار الأجانب في الحديدة وعدن المتحكمين في البن اليماني والآكلي أتعاب زراعه .

قلت : لوأنهم فعلوا ذلك كما ذكرتهُ لهم وكتبت ، إذن لنالوا من وراء البن وحده أرباحاً طائلة ربما فاقت كل الزراعات ، بالنظر لما للبن اليماني من الجودة المنقطعة النظير .

ومن غرائب اليمن أن أهله لا يشربون قهوة حب البن بل يشربون منقوع قشره الذي يغلونهُ كالشاهي ، وطعم هذا المنقوع بدون سكر كطعم منقوع البابونج . وهو لا بأس به يخفف الظمأ ويقاوم بعض المقاومة فعل القات ويخفف من أضراره التي سيأتي ذكرها .

وأشهر أماكن زراعة البن في اليمن وادي لاعة ووادي الأهجر غربي كوكبان وسفوح جبل ملحان وجبل حفاش شرقي اللحية وجبال حراز وبرع وريمة وجبال بلاد آنس وبني مطر وجبال وصاب شرقي زبيد وجبل راس بين العدين وحيس وجبل حبيش بين تعز ومخا وبلاد الحجرية . بيد أن البن الناشئ في الأماكن المذكورة لا يتساوى في الخواص المرغوبة . فالتجار الذين لا يغادرون فرقاً

وتفاوتاً في أي محصول إلاّ أحصوه قسموا البن اليماني إلى أقسام عديدة يمكن حصرها في خمسة أصناف :

فالصنف الأول : يتألف من البن المطري والحيمي والحرازي ؛ فالمطري يحصل في أنحاء بني مطر ، وهو بالطعم والرائحة أعلى البن وأفخره دون منازع ، ولذا دعوه بلؤلؤ البن . وحبته صغيرة ومنكسرة ولونها أخضر فاتح . ويلي المطري الحيمي وأحسنه يحصل في ناحيتي عر ومفحق ثم في أنحاء صعفان وبني إسماعيل وبيت المدعي . ويلي الحيمي الحرازي الذي يحصل في ناحية حراز . والبن الحيمي والحرازي أكبر حجماً وأنظم شكلاً من البن المطري لكنهما أقل طيبة .

والصنف الثاني : البن الشرقي الذي يحصل في جبل شرق وبلاد آنس . وحبوب هذا الصنف منتظمة وبيضية الشكل للغاية . تكاد لا تختلف الواحدة عن الثانية بالطول والعرض ، وهي بالطيبة أيضاً في الدرجة العليا . لولا أن زراع هذا الصنف يستعجلون بتقشيره وإنزاله إلى أماكن البيع فيخسر من طيبته قسماً كبيراً . لأن البن مهما يكن جنسه ونوعه لا يجود مالم يترك قبل التقشير نحو ستة أشهر على الأقل ريثما يجف .

والصنف الثالث : البن الشامي الذي يحصل في بلاد اليمن الشمالية كقضاء حجة وجبل رازح في أنحاء خولان الشام . والبن الذي يحصل في أنحاء عفار وبيت قدم يحسب أيضاً من هذا الصنف . وكل حبوب هذا الصنف كروية الشكل إلاّ بن عفار فإنهُ بيضي قليلاً .

والصنف الرابع : البن العديني الذي يحصل في بلاد اليمن الجنوبية كأنحاء عدين وتعز وإب والحجرية . وهي أوطأ أنواع البن اليماني بالطيبة والقيمة ترسل إلى الخارج عن طريق عدن ومخا .

والصنف الخامس : البن الذي يحصل في الأماكن المتوسطة ما بين التهائم

والنجود كأنحاء برع وحفاش وملحان وريمة ، وبن ريمة يعادل البن العديني بالقيمة . أما بن حفاش وبرع وملحان فهو أوطأ أنواع البن اليماني بلا خلاف .

ولا بدّ من التنويه أن تجار البن في أسواقه العالمية المعروفة إذا اشتروا البن الذي يحصل في جزيرة المرتينيك وهو أجود وأعلى أنواع البن الأمركي بأربعة قروش فإنهم يشترون البن اليماني المنتسب إلى الصنف الخامس بسبعة أو ثمانية قروش ، ناهيك ما يدفعونهُ للأصناف التي فوقه . ويذكر أن في قضاء غامد من لواء عسير بناً أعلى بكثير وأطيب من الصنف الأول الذي ذكرناه ، بل من كل بن العالم على الإطلاق ، وحبوبه كروية ومثل حب اللؤلؤ ولا تختلف الواحدة عن الأخرى قط .

ومما يذكر بمزيد الأسف أن محصول البن في اليمن كله ، ليس من الكثرة والقدر الذي يحمد عليه . فقد قيل : إن جميعه لا يتجاوز ٨٥٠٠ عدة ، والعدة عندهم تزن نحو مئة كيلوغرام ، فيكون المجموع ٨٥٠٠ طن . في حين أن في اليمن أماكن كثيرة صالحة لزراعة البن أهملت ، أو خصصت لشجر القات الضار الآتي ذكره .

القات وأضراره :

القات شجر خبيث ابتلي اليمانيون بمضغ أوراقه المخدرة ونشروا زراعته في كل جبالهم وأوديتهم ، وهو من الفصيلة السلاسترينية Celastrineae واسمه العلمي Catha Edulis ، وطنه الأصلي الحبشة ، ومنها انتقل إلى اليمن في القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري كما جرى قبله بالبن ، والدليل على أن وطن القات هو الحبشة وأن اليمانيين ما كانوا يعرفونه قبل القرنين المذكورين هذه العبارة الواردة في صبح الأعشى للقلقشندي ٣٠٦/٥ قال في بحث الحبشة : وعندهم (يعني أهل الحبشة)

شجر يسمى جات بجيم بين الجيم والشين[١] ولا ثمر لهُ ، وإنما لـه قلوب (يعني أوراق) تشبه قلوب النارنج تؤكل فتزيد في الذكاء والفهم وتفرح[٢] إلاَّ أنها تقلل الأكل والنوم والجماع . وعنايتهم بهِ عناية أهل الهند بالتبل وإن كان بينهما مباينة . وأي نفع فيما فائدته تقليل النوم والأكل والجماع اللاتي هي لذائذ الدنيا . حتى يحكى أنهُ وصف لبعض ملوك اليمن فقال : أنا لا يذهب متحصل ملكي إلاَّ على هذه الثلاث ، فكيف أسعى في ذهابها بأكل هذا ؟[٣] .

والقات يعد في يومنا أجل محاصيل اليمن وأوفرها ريعاً ، ولكن في داخل البلاد لا خارجها لأنه لا يصدر ولا يربح منهُ إلاَّ اليمانيون ، بعضهم من بعض . وقد انتشرت زراعته انتشاراً هائلاً أكثر مما كان قبل ربع قرن ، وزاحمت زراعته زراعة البن وغيرها مما هو صالح للتصدير إلى خارج البلاد . وأجود القات يحصل في جبل صبر قرب تعز .

وأشجار القات معمرة تشبه عن بعد أشجار الحور ، يتراوح طولها من المتر إلى خمسة الأمتار ، أوراقه قلبية الشكل صغيرة وقاسية وشديدة الإخضار . وزهره صغير أبيض ولا يستفاد من الشجرة إلاَّ غب مرور ثلاث سنوات على غرسها ، والغرس يكون بالعقل لا بالبذر . ومحصوله يستمر طول السنة . وله أنواع مختلفة تختلف بحسب الأماكن التي ترد منها ويمتاز بعضها عن بعض بالطول والحلاوة .

والقات داهية اليمن الدهماء ومصيبته العظماء . ابتلي به كبيرهم وصغيرهم وجليلهم وحقيرهم وهم لا يبغون عنهُ حولاً ولا يقبلون به جدلاً . بل يمدحونه

---

(١) يظهر أن حرف الجيم لما انتقل القات إلى اليمن انقلب فصار بين القاف والكاف كما هو لفظ اليمانيين .

(٢) هذا زعم يقوله اليمانيون أيضاً في يومنا ليسوّغوا ابتلاءهم بالقات .

(٣) أين هذا الملك ليرى الآن مابلغت حالة أهل بلاده باستعمال ماعافته نفسه وقد كان جد مصيب .

ويهجون من يذمه بأبيات وجمل لا يقرها المنطق . وقد أدى استعماله منذ ثلاثة أو أربعة قرون إلى أن أضاع صحتهم وبدد فطنتهم وأضعف همتهم وبعثر ثروتهم وأصبحوا على تعاقب الأجيال صغار الأجسام هزال الأبدان صفر الوجوه غائري العيون ضعاف النسل . لا دأب لأحدهم مهما عضه البؤس بنابه إلاّ أن يقتر على نفسه وعياله لينفق معظم ما يجنيه على شراء القات ومضغه كيما يخدر رأسه ويبسط نفسه على النحو الذي يحصل للمبتلين بالأفيون والحشيش في الصين والهند وغيرهما .

وفي ظني أنهم لولا هذا القات لما عدموا الصحة والهمة اللتين كانتا لأسلافهم قبل الإسلام وبعده . وقد شاد هؤلاء الأسلاف ـ الحميريون والسبئيون ـ حضارات ومصانع لا تزال آثارها تبعث الإعجاب والإكبار ، وكان لهم القدح المعلى في حمل راية الإسلام في فتوحاته الأولى من حدود الصين شرقاً إلى شواطئ الأطلنتيك غرباً . لكن أخلافهم ابتلوا بالقات فأضاعوا من جرّائه خصال أولئك الأسلاف الجسمية والروحية ، وأصبحوا على الحالة التي لا يحمدون عليها .

واثم القات أكثر من نفعه في تخدير الفم والمعدة على النحو الذي تفعله الكوكا وفي بعث الجذل والنشو والسهر ، وفي ما يزعمونهُ من مضادتِه للزحار والملاريا ووقايته من النزلات المعوية وتقويته للهضم .

أما آثامه فمن احتواء أوراقه على مادة **النانن** والقهوئين والقاتين . **والنانن** يجفف الباطنة والقهوئين يطرد النوم وينبه الأعصاب ، والقاتين على خلاف القهوئين يرخي البدن ويسكن الأعصاب ، وهو إلى ذلك يقلل شهية الطعام ويضعف الباه ... ويوجب الصداع والقبض وآلام الأمعاء الغليظة ، ويؤدي النشو والاسترخاء اللذان يحدثها إلى فتور ينفذ إلى قرارة النفس فيجعلها خاملة خائرة . ومن خواصه تأثيره على الغدد اللعابية وتزييده إفراز اللعاب وإجباره الماضغ على التفل بكثرة كما يجبره **النانن** على شرب الماء بترادف واستمرار .

وقد يؤدي الابتلاء بالقات إلى الجنون وناهيك مرض الباسور المتفشي في اليمن كثيراً . والنساء المبتليات بهِ يجنين على أنفسهنَّ وأطفالهنَّ ، لأن الطفل أثناء الحمل والرضاعة يتغذى بخلاصة القات . أضف إلى ذلك أن المبتلى ينفق كما قلنا معظم مايجنيه ثمناً للقات الذي يباع بأثمان غالية في حين زوجته وأطفاله يتضورون جوعاً أو يقتاتون بالشيء الغثيث .

هذه هي عوامل هزال النسل وخموله في اليمن فإذا داما قرناً أو قرنين ولم يبعث الله بمن يستأصل هذه الشجرة الخبيثة ويعدمها بالكلية ، ويمنعها عن اليمانيين منعاً باتّاً ، قد تؤدي بهم إلى نتيجة جد محزنة .

واستعمال القات يدعى في اليمن (تخزين) من كلمة الخزن . ولهذا التخزين أوقات وأماكن معينة يرتادها أكابر القوم وأغنياؤهم . أما الفقراء والعمال والباعة والصناع ، واسم هؤلاء هناك (عيال السوق) فيخزنون وهم سائرون في طريقهم أو قاعدون في حوانيتهم وراء بضاعتهم أو منهمكون في صناعتهم . لاتفوتهم لقمة منه ، وتراهم وقد انتفخت أوداجهم بما وضعوه من ورق القات الذي جعلوه كالكرة التي أكبر من الجوزة وملؤوا أفواههم بها يحركونها دوماً . أما الكبراء والأغنياء فلهم مكان مسقوف مغلق قد يكون خاصاً بواحد منهم في صنعاء (المفرج) وفي الحديدة (المبرز) ، وهو غرفة كبيرة مستطيلة تكون في أعلى طبقة من دورهم ذات الثلاث أو الأربع طبقات ، ولها نوافذ واسعة مشرفة من عل على مناظر بعيدة . يمدون فيها الطنافس والمفارش والمساند الجميلة . يتكئون عليها ويحتشدون . ويكون وسط المفرج مملوءاً برزم القات وأمام كل من الجالسين نرجيلة طويلة ضخمة يسمونها (مداعة) لا يقل طولها عن المتر متقنة الصنع ، عليها رأس كبير فيه تنباك يدعونه الحومي يأتي من حضرموت ، وهو قوي شديد الأثر ، ولكل نرجيلة نبريج طويل وغليظ مغلف بقماش حريري رقيق مزركش وطول النبريج لا يقل عن أربعة الأمتار . ويكون وسط المفرج أيضاً منقل كبير

عليه الأباريق النحاسية المملوءة بمنقوع قشر البن ، وفناجينه ، وإبريق فخاري فيه ماء يستعمله ماضغ القات لغرغرة فمه ، ومبصقته نحاسية يستعملها للبصاق ولطرح بقية أوراق القات التي ينتهي مصها ولا يبلعها بل يمص ماءها ثم يطرحها في المبصقة .

ومجالس التخزين تبدأ كل يوم من بعد الظهر إلى بعد العصر حيث يذهب كل امرئ إلى عمله . ثم يجددون المجلس من بعد العشاء إلى وقت متأخر من الليل . وحين هم يخزنون يتحادثون ويتنادمون أو يتمازحون أو يغنون ويطربون . وهم إذ ذاك لابد أن يغلقوا الأبواب والنوافذ لأن نشوة القات وبهجته لاتتم مالم يكن جو المجلس حاراً محصوراً ، ولهذا ترى هواء هذه المجالس حاراً وكثيفاً وفاسداً من جراء تصاعد دخان النراكيل وأنفاس الجالسين المزدحمين وروائح عرقهم الذي يكثر بسبب هذا الحر وكثرة شربهم الماء . فإذا دخل إنسان غريب غير معتاد على هذا المنظر ضاق صدره واكتأب وحاول الخروج والابتعاد . وإذا سألتهم عن سبب إغلاق النوافذ وتكثيف الهواء وإفساده أجابوا : إن ذلك لخوفهم من البرد بحكم أن جبال اليمن باردة وأن البرد أساس كل علة . وهو جواب غير مقنع . ولما كانوا يقضون الساعات الطوال كل يوم في هذا الجو الفاسد منذ أجيال صارت أجسامهم هزيلة وصحتهم متأخرة على النحو الذي قدمنا ذكره .

هذا والقات يرد كل صباح محملاً على ظهور الجمال من أماكنه إلى المدن فيهرع تجاره قبيل الفجر إلى استقباله في خارج المدينة . ويتخاطفونه ويشتري كل منهم ما وسعه الجهد ويأتون به إلى السوق وهنا تجد الناس قد تهافتوا على شرائه كتهافت الجياع على شراء الخبز أيام الحروب أو المجاعات ، يتزاحمون بالمناكب ريثما يفوز كل منهم برزمة أو عدة رزم ، يهرول بها راجعاً وكأنه حاز السعادة للدارين .

وجملة القول : أن أضرار القات باليمن وشعب اليمن جسيمة ، تعصف بصحتهم

وحيويتهم وتهدد نشاطهم وتضيع أوقاتهم ، وفي اعتقادي انهم إذا ظلوا مبتلين بهذا القات ومواظبين على استعماله كل يوم فلا خير لهم ولا مستقبل ولا مجال لبروزهم ومجاراتهم شعوب العالم . وإن مكافحة هذه الشجرة الخبيثة والسعي إلى استئصالها وحرقها وتحريم زراعتها والاستعاضة عنها بأشجار مثمرة اقتصادية صالحة للتصدير ، وجلب العملة الصعبة كالبن الذي هو أصلح ما يعيش لديهم ويجود ، ثم البرتقال والليمون والزيتون والفستق والصنوبر المثمر ثم الأشجار الحراجية التي تعطيهم ما هو مفقود لديهم من الخشب للصناعات وغير ذلك مما يثبت بعد التجارب المكررة أنه يعيش في أجواء اليمن وأتربته ، هو من أول واجبات الجمهورية اليمانية العتيدة التي بدأنا نسمع بمشاريعها وإحداثاتها الطيبة ، فلعلها فاعلة بما تمنيناه إن شاء الله .

الصناعة

معيشة أهل اليمن بسيطة وحاجاتهم قليلة ، ومعظمهم يعيش حافياً عارياً ، إلاً من فوطة تستر نصفهُ الأسفل ، ولذا هم في غنى عن كثير من المصنوعات الكمالية والإفرنجية التي يمتص الغرب بها ثروة أهل الشرق .

ولا تخلو مدن اليمن من الصناعات الضرورية الشرقية ، ولو أنها على أضعف درجاتها وأبسطها ، فعندهم منها السكافة والخياطة والحدادة والنجارة والصياغة والنسيج والبناء . يشتغل محترفوها بما يتناسب مع أذواق اليمانيين الساذجة .

وعندهم صناعة عصر السمسم والخردل اللذين يأكلون زيوتها . ولما كان لا أثر للزيتون ولا لزيته في اليمن فهم لا يعرفون صناعة الصابون . ويأتيهم الصابون من أوربة ولا يستعمله إلاً المترفون منهم في المدن ، أما القرى فقلٌ فيها من يعرفه من سكانها .

وقد كان اليمانيون فيما مضى معروفين بأنهم صناع اليدين وحذاق في الحرف

التي عددناها ولا سيما نسج الأثواب المخططة الغالية المعروفة باسم (البرد اليانية) . والمدن التي كانت مشتهرة بهذه الحذاقة صنعاء والسدة والشعر وزبيد وبيت الفقيه والحديدة والمراوعة ، وقد قضت مصنوعات الغرب على صناعات هذه المدن وأشقت أهلها ، ولم يبق من آثارها إلاَّ القليل ، وتفاقم الخطب في السنين الأخيرة بمصنوعات اليابان الرخيصة .

وقد بقي من آثار صناعة النسيج القديمة صنع القماش المشابه لما يدعى في مصر بالغزلية ، وفي الشام بالديما ، وصنع اللحف والمآزر التي يتزر بها النساء ، وصنع البسط على اختلاف أنواعها وألوانها ، وكذلك الفوط والمناشف .

وبعض الصناعات في يد اليهود كالصياغة وتركيب الزجاج وتجصيص الجدران وصاغة اليهود يصوغون من الذهب خواتم وعقوداً وأساور وخلاخل جميلة ، ومن الفضة والنحاس أواني منقوشة ظريفة ، ومنها النراجيل التي يدعونها مداعاة ، والخناجر التي يدعونها جنبيات .

وقد كان الوالي التركي الشهير حسين حلمي باشا شاد في سنة ١٣١٩ هـ في صنعاء مدرسة عظيمة للصناعة ، إلاَّ أنها هجرت بعد جلاء الترك ، وأخيراً انتهت الحكومة اليانية إلى ضرورة إحياء الصناعة ففتحت مدرسة عملية لتعليم بعض الصناعات كالنسيج والنجارة والصابون وجلبت لها اختصاصيين من الشام ومصر ، ولا يعلم مدى دوامها ونجاحها بعد .

التجارة

يستورد اليانيون من الخارج عن طريق عدن والحديدة الأقمشة المتنوعة والصابون والسكر والأرز الهندي والدقيق الهندي المعروف بأبي الفيل ، والتمر البصري ، ذلك لفقدان زراعة الأرز عندهم ، ولقلة محصول القمح في الجبال ومحصول التمر في التهائم .

ويصدرون عن طريق عدن والحديدة أيضاً المحاصيل التي تقدم ذكرها وهي البن والجلد والتبغ والعسل والسمن وزيت السمسم وأحجار العقيق ، ولكن هذه المحاصيل لا تصدر إلاّ في سني جودها وفيضها . وإن صدرت لا تقابل ربع الوارد .

ومعظم التجارة في ميناءي عدن والحديدة بيد اليهود والهنود وبعض اليونان والطليان ، وفيها نفر من الشاميين أبناء حلب ودمشق يستوردون المنسوجات والمصنوعات الشامية التي لا يزال لها بعض الرواج في اليمن ، بعد أن كان في عهد الترك أكثر من الآن .

ومن مصائب اليمن وأهله أنهُ ليس فيهِ نقود حكومية ولا بنوك رسمية أو أهلية فنقودهم الريالات النمساوية القديمة المسكوكة في سنة ١٧٨٠ ، وقد ضربوا لها في صنعاء أجزاء كالأرباع والأثمان . وبنوكهم التجار الأجانب واليهود ووكلاء البواخر الإنكليزية في الحديدة وفوق الكل البنك الإنكليزي الهندي في عدن ، وهؤلاء يتحكمون في زراع اليمن وتجاره . ذلك بأنهم يسيطرون على أسعار المحاصيل والنقود اليانية فيرفعونها ويخفضونها كما يشاؤون . واليانيون لا يبدون حراكاً لجهلهم أساليب التجارة والمراسلة وعدم سماحهم لأحد بفتح بنوك وابتعادهم عن الاتصال ببقية الأقطار ، لذلك ترى الحركة المالية والاقتصادية في جمود وتبلبل محزنين ولا من يداوي العلة .

المباني في المدن والقرى :

لا بد أن تبنى القرى في اليمن على نشوز عالية أو في شفا المنحدرات أو وراء أكمة أو صخرة كبيرة ، للدفاع والمراقبة خوفاً من الطوارئ التي لم يخل اليمن منها ، وإذا لم يجدوا مكاناً حصيناً تام الحصانة ، مستوفياً شروط النشوز والإشراف الحربي على ما حوله أحاطوا القرية بسور من التراب أو الحجر بعضها لصق بعض .

والمدن أيضاً تبنى حسب أوجه الدفاع المذكورة ، فتبقى محصورة محدودة بالأسوار العالية ، لهذا ترى البيوت مكتظة والأزقة ضيقة ومعوجة أو يغلب أن تكون واجهات هذه البيوت جميلة ذات منظر جميل وخلاب ، إلا أن داخلها بشع وباعث للكآبة . والأزقة تترك على حالها دون رصف أو تعديل أو تقويم ، فتكثر معارجها ومعاطفها . وما من صاحب بيت إلا ويضع يده على جزء من الطريق الذي أمامه ، فيجعله مربط دوابه أو ملقى قمامته ، فترى الأقذار محتشدة في كل مكان .

والنور والشمس قليلا الوجود في مدن اليمن ، وكيفما التفت تجد عطفات ملوثة مظلمة وجدراناً متداعية وخرائب متهدمة .

هذا في الجبال أما في تهامة فليس فيها ذلك المنظر الجميل الذي نجده في دور مدن الجبال . لأن بلاد تهامة المحرومة من القمم نجد دورها عرائش ذات طبقة واحدة ، جدرانها من الطين وسقوفها الواطئة من سيقان الذرة ، أو أغصان الأشجار ، مما يجعل منظرها لا يتمتع بجمال أو فن .

غير أن بعض مدن تهامة الساحلية ، ولاسيما الحديدة ومخا تحتويان على دور جميلة حجرية ذات ثلاث أو أربع طبقات تشبه دور الجبال وقد تفوقها . على عكس المناطق الداخلية في تهامة التي لاتتمتع بهذا الجمال ، بل ترى دورها مؤلفة من باحة مفتوحة اصطفت حولها غرف خاصة ومطبخ وبيت للمؤنة وإصطبلات الدواب . ويجعلون أمام الباب الخارجي سوراً من السياج يحيط بجهة البيت ، ويجعلون في الباحة المذكورة غرفة سقفها وجدرانها من الأغصان المورقة يسمونها (المبرز) يتخذونها لاستقبال الضيوف أو للاستراحة والاستمتاع .

وقد يكون المطبخ وغرفة النوم والإصطبل قريباً بعضها من بعض ، فيشترك كل منها بروائح الآخر وسوائله وجوامده أو يصيبه رشاش منها . أما

المراحيض فتجعل في الباحة أو وراءها ، وكثيراً ما يستغنون عنها . وقلما يخلو داخل البيوت والفنادق من بقايا التبن والأرواث والأقذار المختلفة .

أما الغرف فإنها لاتستعمل النور إلا من داخل الباحة وعن طريق نافذة صغيرة أو تقتصر الإنارة على الباب الصغير فقط .

أما أثاث الغرف فقطعة من الحصير ، وفي دور المترفين عدد من البسط والطراريح والمساند ، ويقتني أهل تهامة للنوم الأسرة المصنوعة من الخوص والليف يرفعون أنفسهم بها عن الأرض خوف الحشرات .

والنارجيلة لا بد من وجودها . أما أدوات المطبخ فعدد ضئيل من الطناجر والصحون النحاسية والجرار الخزفية . أما الموائد فالصواني من القش أو الخزف . وتكون الآبار داخل باحة الدار أو خارجها ، وقد يشترك بها أهل الدور المجاورة . ولا يخلو داخلها وحولها من الوحل والتبن والروث .

وينام التهاميون في أكثر أيام السنة في العراء وعلى السطوح ، ويشترك أفراد الأسرة كلهم حين النوم في مكان واحد .

مساكن الجبال :

ودور مدن الجبال تكون قليلة العرض شاهقة الطول وذات طبقات عديدة ، ولكن لا يكترث بالناحية الصحية قط ، لا في وضع الدار ولا في اتجاهها . لأن أهم ما يفكر البناؤون والمعماريون فيه أن يجدوا بادئ ذي بدء طرف منحدر أو كنف صخرة أو جوف مخبأ يقحمون البناء فيه مما يشكل اكتظاظاً بالأبنية في طرف المنحدر أو الجوف ، لكننا لانجد أي مسكن بالجهة الفسيحة التي يكثر ورود الشمس والهواء إليها . بل قَصارهم أن يجعلوا الجبهة كيفما وافقتهم مع موضع المنزل .

وهم يكثرون في الطبقات السفلى من فتحات المرامي للدفاع ، ويجعلونها في

كل الجدران مجتمعة أو مفردة . لكنهم لا يفتحون أي نافـذة ولو صغيرة جـداً . على حين نجد في الطبقات العليا بعض النوافذ الصغيرة .

وشكل بناء الدور مربع أو مستطيل ، أمـا في القيمـان المستويـة فقـد تكون مدورة شبيهة بالأبراج ويجعلون في طبقتها العليـا غرفـة ذات زوايـا . ولا بـد من وجود فتحات المرامي في كل الجدران المدورة .

فترى أن مساكن اليانيين في كل الجبـال لا تختلف عن أوكار النسور من حيث الحصانـة والرفعـة واتخـاذ أسبـاب الـدفـاع . لأن الحروب والفتن التي لم تنقطع في اليمن قط طوال العصور الخالية جعلتهم في قلق وحذر دائمين يقضيان باتخاذ الحـذر والحيطة صوناً للأرواح والأموال المهددة دائماً .

فإذا دخلت أحد دور مدن الجبال فتنفذ من باب واسع فتعترضك إصطبلات المـاشيـة ومستودعـات التبن ، ثم تشرع بـالصعود في درج كثير الاعوجـاج شـديـد الضيق ، كثيف الظلمة تتلمس به الجـدران والمـدارج تلمسـاً بـاليـدين والرجلين ، بحيث لاترى النور الضئيل إلا من ثقوب المرامي ، وفي هـذه الأقسـام غير المنـورة إن لم تنحن لا بد أن يرطم رأسك السقف ، وإذا ماتلمست بيديـك لا بـد أن تلطم وجهك بجدران المنعطفات .

والطبقة الأولى التي تصلها تتألف من فنـاء متوسـط أو صغير حولـه غرفـة أو عدة غرف لها أبواب وقـد ملئت كل الغرف أو بعضهـا بـالحبوب والمؤنـة . على أن أكثر الـدور تحتـوي على مستـودعـات تحت الأرض لخـزن القمـح والشعير والـذرة وغيرها من الحبوب ، وفي هذه الحـالـة نجـد أن المعز والغنم والـدجـاج قـد احتلت الطبقة الأولى من الدور .

ثم تستأنف الصعود في درج كالذي تقدم وصفـه فتصل إلى الطبقـة الثـانيـة ، فـإذا كانت الـدار مؤلفـة من طبقتين فحسب نجـد هنـا غرفـة أو غرفتين منـورتين

قليلاً خلافاً لما كان الوضع في الطبقة الأولى ، وقد نجد المطبخ أيضاً وهو في اليمن في الطبقات العليا دائماً وليس له مداخن ويستعاض عنها بفتحات مدورة كبيرة مصفوفة في أعلى جدار المطبخ قرب السقف ، فيخرج بعض الدخان من هذه الثقوب ، وينتشر جلّه في داخل الطبقة يفتش على منافذ للهروب . ثم تستأنف الصعود في درج ثالث إلى السطح فتجد فيه باحة ضيقة أو واسعة حولها غرفة استقبال الضيوف أو الغرفة التي يسمونها (مفرج) أو (منظر) .

وفي أكثر القرى تكون المراحيض على السطح وفي إحدى زواياه ، وندر أن يجعلوا لها سقفاً أو باباً .

والأثاث في تلك الدور من الحصر أو البسط المفروشة على الأرض وطراريح مستطيلة مدت في جوانب الجدران تجاه بعضها بعضاً ، فوقها مساند مدورة أو منبسطة نظيفة أو غير نظيفة ، ثم قد يكون على الجدران شراشف أو مناشف عريضة علقت عوض السجاد ، وثمة على الرفوف أو على القماري التي تفتح فوق النوافذ زجاجات فارغة ، وأوان مختلفة وضعوها بقصد الزينة ، وفي السقف يعلق مصباح ينار بالبترول . وفي أرض الغرفة ووسطها صينية نحاس يدعونها معثرة أو (معشرة) قد تكون كبيرة أو صغيرة ، بيضاء أو صفراء ، يضعون عليها نارجيلة من صنع اليمن تكون طويلة رشيقة ، ومحلاة بالفضة أو غير محلاة ، وحول النارجيلة المتافل ، التي يتفلون فيها بقايا القات الممضوغ . كذلك نجد مجامر البخور وقواعد نحاسية طويلة ذات مقابض ، تتخذ لوضع فناجين منقوع البن ، ونجد الطاسات الصغيرة الخاصة بالشرب . وقرب الصينية نجد منقلاً معدنياً أو خزفياً فيه عدد من الجنبيات وهي أوانٍ من الخزف لغلي قشر البن يسدون أفواهها بالقش ، وترى بخار القشر المغلي يتصاعد منها .

هذا وصف دور اليمن إجمالاً ، على أن صنعاء وتعز وذمار وكوكبان وتهامة ويريم وثلا والطويلة وأمثالها من أمهات المدن والقرى ذات الحضارة والثروة

البارزتين تحتوي على دور شاهقة يبلغ عدد طبقاتها الخمسة أو الستة ، فترتفع كناطحات السحاب في أميركة ، وتتعدد في أسباب التجمل والرخاء ، فترى الباحات في كل طبقة مبلطة أو معدسة (عدسة) وحولها غرف عديدة جميلة صالحة كل الصلاح للمبيت ، وزخرفت جدرانها بالنقوش والرسوم التي تعمل من الجص ، وزخرفت نوافذها بقطع عديدة من الزجاج ذي الألوان الحمر والزرق والصفر وغير ذلك من الألوان المختلفة الجذابة ، مشكلة صور الشمس والأقمار والنجوم . وقد نجد بعض النوافذ قد استبدلت هذا الزجاج الملون بقطعة واحدة من الميكا الشفاف ، وثمة مراحيض فسيحة نظيفة .

أما الأثاث في مثل هذه الدور أو القصور فتكون أنظف وأتقن مما سلف ذكره ، ففيها السجاد العجمي الفاخر والمعشرات الجميلة والنراجيل الرشيقة والصحون والفناجين الهندية .

وأكثر عناية اليانيين في هذا المضار تتوجه للمفارج التي إما أن تكون في ذروة الطبقة العليا أو في طرف من الحديقة إذا كانت الدار ذات حديقة . وهذه المفارج غرف فسيحة ذات نوافذ عريضة كل العرض يشرف القاعد فيها إذا كانت عالية على مناظر ممتعة في البعد والإشراق . أما إذا كانت المفارج في الحديقة فإنها تطل على الأشجار والرياحين أو على الحوض الواسع العميق ذي الفسقيات والمياه الصاعدة المتناثرة منها ، وكثيراً ما يزينون جدران هذه المفارج بأبيات أو دعوات ذات معان مبتهجة مكتوبة بالخط النسخي ، أو يرسمون أزهاراً ملونة ...

وكيفما كانت عظمة دور اليمن أو ضعتها فهي تبنى في الغالب بوضع الحجر فوق الحجر بدون مؤنة بينهما . وأرض الطبقات تكون من الطين الذي يدونه فوق سطح مؤلف من أغصان الأشجار ، التي يضعون بعضها جنب بعض ويضيقونها ويدونها فوق جسور كبيرة من خشب الآثل أو الطنب وأمثالهما مما يوجد في اليمن ، ولهذا إذا هبت رياح باردة تنفذ من بين الأحجار وتبدل حرارة

الدار بسرعة ، وهذا التبدل يكون على أشده في الدور التي ليس في جدرانها ملاط . ولما كانت أرض الغرف من الطين فهي تتشعث في وقت وجيز وتتوسخ ، ويكثر فيها البرغوث والبق (الفسفس) . على عكس الدور التي تكون أرضها مبلطة أو معدسة بالإسمنت فهي سالمة إلى حدٍ من هاتين الآفتين .

إن عدم الاكتراث بتوجيه البيوت نحو مصدر الشمس وصغر الأبواب والنوافذ وحرمانها من ألواح الزجاج يجعل داخل الدور فاقد الشمس والهواء ، وإذا كانت الدار خاصة بأناس مزارعين فإنا نجد داخل الدار متشبعاً بروائح المواشي وعلفها وروثها .

وتجعل المراحيض في دور اليمن حيث تجري السوائل نحو الخارج والجوامد إلى الداخل ، ولا نجد في أي مدينة في اليمن مجار عمومية للأقذار ، فالأقذار الجامدة تجمع في داخل البناء ، أو في طرف الشارع في موضع مستور بجدار ، فإذا ما تفسخت يسترونها بالرماد أو بالتراب ، ثم يوعزون إلى اليهود المختصين بهذه المهنة فينقلونها .

ولما كانت مجاري السوائل النازلة من المراحيض والمطابخ تنسكب على الشوارع والأزقة وهي مكشوفة ، فترى جوَّ المدن والقرى في كل مكان مشبعاً بأكره الروائح .

ويقل صرف الماء في البيوت لقلته وصعوبة سحبه من الآبار والسواقي . لذا ترى النظافة قليلة إلى حد ما .

فهذه الشرائط المخالفة لقواعد الصحة جعلت اليانيين بعيدين عن السلامة العامة فأبدانهم قذرة ، ووجوههم صفر شاحبة ، ونفوسهم معتلة وأخلاقهم مختلفة . لأن الصحة الكاملة لا تكون إلا في الوسط النظيف .

أما التدفئة في اليمن فتكون بالمناقل التي يغلون فيها جبنات القشر (البن)

ولا يكـون قصـدهم الـدفء بـل الحصـول على منقـوع القشر المغلي ليس إلا . وهم يتدفؤون بشرب بضع حبـات من هـذا المنقوع ويسمون ذلـك (تقشراً) . أي إنهم يجدون ينابيع الحرارة في داخل أبـدانهم لا في خـارجهـا ، وإذا أصبح الصبـاح ببرد شديد ينتشرون في الأزقة والساحات ويتدفؤون بأشعة الشمس .

والأسواق في البلدان والقرى في اليمن عموماً ضيقة . وحوانيت الباعة في هـذه الأسواق حجرات جد صغيرة مرتفعـة عن الأرض تشبـه خمّ الحراس ، نرى البـائع جالساً في مؤخرتها ، وفي يده نـارجيلـة ، وقـد حشر نفسـه وراء سلعـه المبسوطـة أمامه .

ولا تخلو المدن الكبيرة ولا سيما الحديدة التي يكثر فيها الأجانب والغربـاء من مخازن كبيرة ونظيفة بالمقارنة .

وحوانيت القصـابين تكون منعزلـة عن السوق العـام ، ويكون داخـل هـذه الحـوانيت وخـارجهـا في غـايـة القـذارة ، وترى اللحـوم معرضـة للغبـار وأسراب الذباب .

ولا تزال أبواب أسوار المدن في كل أنحاء اليمن وحتى في العـاصمـة صنعـاء على الرغم من انتشـار الأمن تغلق بعـد صلاة العشـاء ، ويمنع الـدخـول والخروج منهـا فيستلمها الجند والحراس إلى مطلع الفجر كأنهم في حالة حرب أو إدارة عرفية .



الملابس والأزياء

ومن غرائب اليمن أن أزياء أهله وإن كانت عربية ، لكنها لا تشبه ما في بقية الأقطار العربية . فالرجال في المدن يلبسون القنابيز الفضفاضة المسدودة من الأمام ، ويجعلون أكمامها عريضة واسعة طويلة إذا تدلّت تصل إلى الأرض ، وهم يشبكون هذه الأكمام وراء ظهورهم فتظهر كالحدبة . وهم لا بد أن يتمنطقوا بمنطقة عريضة مرصعة عند مترفيهم بالفضة أو الذهب يضعون في وسطها سكيناً عريضة يدعونها (جنبية) ، ولا بد أن يجعلوا على أكتافهم قطعة مستطيلة من نسيج الصوف أو القطن يدعونها (لحفة) يستعملونها لوقاية الرأس .

والعوام في المدن والقبليون في القرى لا بد أن يصبغوا هذه الثياب والفرط وأبدانهم أيضاً بالنيلية الزرقاء ويعتقدون أنها تنفع وللبرد تدفع .

والنساء في القرى يشبهن بأزيائهن وسفورهن التام نساء القرى في بقية الأقطار العربية . أما اللواتي في المدن فحجابهن شديد ، يسترون بملاءة فضفاضة بالألوان الزاهية كالأحمر والأصفر والأزرق على مثال ملاءات النساء في قرى غوطة دمشق .

والأثاث والرياش في بيوتهم لا يزال على الطراز القديم فهم يفرشون الحصر والطراريح والسجاجيد الممددة على الأرض ويتكئون على المساند وهم لا يعرفون استعمال الكراسي والأرائك ولا القعود وراء المناضد حتى في دواوين الحكومة أيضاً .

ثياب أهل اليمن

ثياب الرجال :

القميص : هو الخارجي ذو الأكمام الواسعة (الأردان) .

الزنة : هي القميص الداخلي ، وهي تلبس تحت القميص الخارجي السابق الذكر ، أو تكون وحدها إن لم يوجد القميص ، فتكون هي الخارجية .

المدرعة : هي التي على البدن مباشرة ، وهي قصيرة فوق الحقرين وتقابل عندنا (الفانيلا) ، وتكون تحت القميص إن لم تلبس الزنة .

السروال : هو طويل يستر النصف الأسفل من الجسم فيغطي الخصر وكامل الأرجل ولا يلبسه إلا الفقهاء وأمثالهم ، أما عامة الناس فقلما يلبسونه .

الطراش : هو الحذاء المفتوح الأصابع .

اللحفة : يحملها اليماني على منكبه .

غطاء الرأس : العمامة للفقهاء ـ والقبع للعامة ـ والغماية للقبلي ـ والحمادة للجندي . وكلها عمائم تختلف بطريقة لفها وبعض هؤلاء يلفون العمامة والقبع على قوفية (كوفية) .

ثياب النساء :

اللحفة : الستارة ، اليلك : الفرو القصير بلا أكمام .

الحرم : الفرو الطويل ذو الأكمام .

إزار النـاس (النسـاء) : ستـارة وهـو غطـاء للـوجـه ويتكـون من برقـع للصغيرات والكبيرات .

مغمق : وهو البشمق أي الصرماية وهي حذاء الناس .

زنة النساء : إذا كانت سوداء فهي الشقة ، ويضعن على رؤوسهن عصبـة على شكل (كرة) مؤلفة من عدة طيات تدعى مصرات تصر رأسها فيها .

فرادي : وهـو ثـوب أبيض تحفـه على شكل عـزبـات[1] صغيرة ، وتسمى عصابة ، ثم مقرمة فيظهر رأسها منتفخاً ، تضع طرف الستارة عليها .



(١) ما يشبه الورد (م إ) .

المعارف في اليمن

إذا نظرنا إلى ماتقوم به سائر البلدان العربية من الاهتمام بنشر الثقافة وفتح المدارس على اختلاف أنواعها للبنين والبنات من ابتدائية ومتوسطة وثانوية ودور المعلمين والحقوق والطب والصيدلة إلى غير ذلك ، فإننا لا نجد أثراً لمثل هذه المدارس في اليمن ؛ وقد كان حظ اليمن منكوداً حتى في أثناء حكم الدولة العثمانية ، فإنه نظراً لنفور اليمانيين من الأتراك واشتعال الثورات المستمرة لم تتمكن الحكومة التركية من فتح مدارس تذكر ماعدا بعض المدارس الصغيرة التي لم تحصل عليها إلا بصعوبة كبيرة ، ولهذا بقيت اليمن في عزلة تامة بالنظر لبعض البلاد العربية التي استفادت بعض الفائدة من مكاتب الأتراك .

ولكن لليمانيين اهتماماً خاصاً في تعليم أطفالهم قراءة القرآن والكتابة ، ويكون هذا التعليم على أيدي معلمين تستأجرهم الأهالي في كل قرية أو مدينة ، ولهذا لم يكن هناك للأمية نصيب يذكر حيث تبلغ نسبة الأمية ٥٪ ، هذا وإن كانت هذه المدارس لا تفي بالمطلوب ولا تتعدى نطاق تعليم المبادئ الأولية .

ولما جلا الأتراك عن اليمن واستلم زمام الحكم الإمام يحي ، بدأ بتوسيع هذه المدارس بشكل أولي فكان في ذلك تشكيل عدة مدارس ، منها مدرسة الكتاب بغية الحصول على موظفين في دوائر الحكومة .

كذلك فتحت مدرسة حربية يدخلها أشراف العرب والسادة ، وكانت مدة هذه المدرسة تختلف نظراً للحاجة فمن سنة واحدة إلى أن أصبحت خمس سنوات ويقوم بالتعليم في هذه المدرسة بقية من الأتراك يعاونهم في ذلك أبناء رجال اليمن الذين تخرجوا من مدارس الآستانة وما زالت في تحسن .

المدارس الابتدائية :

فتحت مدرسة حكومية باسم مدرسة الأيتام في صنعاء ، يهرع إليها ذوو

الفاقة حيث يجدون فيها مع التعلم قوتهم الضروري والكسوة والنوم وغير ذلك ، وآخرون يدخلون هذه المدرسة للتعلم فقط ، ولا يتناولون الأكل ولا ينامون فيها ، ويسمى الواحد منهم النهاري . وعدد طلاب هذه المدرسة يتراوح بين ست مئة وثمان مئة ، وهي ذات ستة صفوف ابتدائية ويختلف منهجها عن مناهج البلاد العربية ، إذ لم يدخل العلم الحديث كما دخل بقية الأقطار العربية ، والأمل في تعديل المناهج الدراسية لبلوغ المقصود كما سمعنا .

والمتخرج من هذه المدرسة يوظف في دوائر الحكومة براتب بسيط أو يرسل ليعلم في القرى والمدن .

المدارس الأهلية :

قلنا إن اليانيين لا يهملون أولادهم بل يلجؤون إلى إرسالهم إلى المدارس الأهلية ، وهذه مقتصرة على القرآن والكتابة ومبادئ الدين وهي منتشرة في البلاد كافة وإن كانت فائدتها صغيرة .

وعندما تسنم سيف الإسلام عبد الله بن أمير المؤمنين وزارة المعارف شرع بفتح مكتبين يضمان أبناء الأهالي لتعليمهم مجاناً ، وتمتاز دروس هذين المكتبين عن المدارس الأهلية بوجود شيء من الجغرافية والحساب والتاريخ بصورة أولية وكل الأساتذة يمانيون .

دار المعلمين :

فتحت مدرسة يخرج فيها معلمون في القرى والمدن ، ومنهج هذه الدار يعنى بالدروس الدينية واللغوية مع شيء من الحساب والجغرافية والمساحة . وتختلف مدتها نظراً للظروف والحاجة فمن سنتين إلى ثلاث .

المدارس في التعليم الراقي :

في صنعاء مدرسة تسمى المدرسة العلمية تحوي عدداً كبيراً من الطلاب الذين

لهم تفوق في علوم الدين واللغة ، مثل الحديث وأصول الدين والتفسير ، ومن اللغة المعاني والبيان والبلاغة وسائر فروع اللغة العربية ، وفي هذه المدرسة قسم داخلي ، ويمكث الطالب فيها مدة تتراوح بين ٧ إلى ١٠ سنين ، ويخرج منها عالماً وهي أشبه بالأزهر . وبعد خروج الطالب منها يعين حاكماً أو ماأشبه في الوظائف اللائقة به ؛ وكل أساتذتها من علماء اليمن البارزين وهم يتناولون راتباً جيداً .

المدارس في الجوامع :

لا يخلو جامع مهما كان صغيراً من وجود عالم أو أكثر يقوم بالتدريس في شتى العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية ونحوها .

وهؤلاء العلماء يبذلون أنفسهم للتعليم لوجه الله تعالى لا يريدون جزاءً ولا شكوراً ، ويكون نظام التعليم بشكل حلقات داخل المساجد ، وفي كل وقت ليلاً ونهاراً ، وعدد الدروس في اليوم الواحد قد تبلغ ستة أو سبعة ، أما طلاب هذا العلم فهم من الذين تدفعهم أنفسهم لطلب العلم والتفقه في الدين لا حباً بالوظائف ، ومنهم التجار وأصحاب الحرف وغير ذلك . وفي هذه المساجد من يقوم بتدريس القرآن الكريم مثل القراءات السبع والتجويد وأكثر هؤلاء من مكفوفي البصر .

المدارس في القرى :

لا ينتظر أهل القرى مساعدة الحكومة في إرسال المعلمين بل يقومون بفتح مدارس لتعليم أولادهم القرآن والخط والدين وتسمى (مِعْلاَمَة) ولا يرضى الفلاح اليماني بدخول ولده في الأعمال الزراعية ومساعدة أبيه حتى يحصل على العلوم المذكورة ، وبهذا عدم عدد الأميين في اليمن . وعندما فتحت الحكومة دار المعلمين صارت تزود هذه القرى وتلزم بالتعليم مجاناً ، ويقوم المعلم في القرية بالإرشاد الديني وغيره مثل صلاة الجمعة والعيدين ومواعظ الآخرين حسب المناسبات .

كلمات يمانية معكوسة

بلاد داخل	البلاد الخارجية
مطلع ، منزل	فوق ، تحت
دافئ	سخن
الحوت	السمك
البرقوق	المشمش
عنبرود	الكمثرى
أجاص	الخوخ
الفرسك	الدراق
ثربة	اللية

شركة	اللحمة
الجلجلان	السمسم
الحسيك[1]	الشعير
البر	القمح
السليط	الزيت
ازقم	أمسك
سكي	أريني
قمبر	اقعد

مواطن السكن في اليمن

الألوية	أسماء الأقضية	مراكز الأقضية	صنوف	أسماء النواحي	عدد القرى المرتبطة بالنواحي
صنعاء	صنعاء	صنعاء		بلاد البستان ، بلاد الروس ، بني بهلول ، بني الحارث ، بني حشيش ، همدان ، سنحان ، أرحب ، نِهم ، خولان ، الحدا	
	جبل حراز	مناخة	١	حراز نفسها ، مفحق ، عر ، متوح ، حجّيلة	
	كوكبان	طويلة	١	كوكبان نفسها ، محويت ، شبام	١٥٦
	آنس	ضوران	١	آنس ، عتمة ، جبل شرق ، جهران	٥٨٢

(١) ولا يقال (حسيك) إلا لكمية الشعير ، والفول الذي يعطى للحمير (م إ) .

الألوية	أسماء الأقضية	مراكز الأقضية	صنوف	أسماء النواحي	عدد القرى المرتبطة بالنواحي
	حجة	حجة	٢	حجة ، بني عوام ، شغادرة ، مسور ، عفار ، ٤٢ عزلة	٥٨٢
	ذمار	ذمار	٢	ذمار ، مغرب عنس	٣٣٩
	يريم	يريم	٢		١٩
	رداع	رداع	٢	رداع نفسها ، سوادية ، جبن	٣١٤
	عمران	عمران	٢	عيال سريح	٢٥٦
الحديدة	الحديدة	الحديدة		حديدة نفسها ، قمران ، جبل برع ، حفاش ، ٣٢ عزلة	١٧
	زبيد	زبيد	١	زبيد نفسها ، حيس ، وصاب العالي ، وصاب السافل	٣٩٤
	لحية	لحية	١	لحية نفسها ، زهرة	٦١
	زيدية	زيدية	٢	بني قيس	
	جبل ريمة	ريمة	١	ريمة ، جعفرية ، كسمة ، سلفية ٨٥ عزلة	٧٢٠
	حجور		١	محابشة ، عاهم ، خمس ، قارة ، حرض ، عبس ، ٤٥ عزلة	
	بيت الفقيه		٢	جمعاً ٣٠ قبيلة	
	باجل		٢	باجل ، ملحان ، ١١ عزلة	١٤١
تعز	تعز			تعز ، تربة القحم ، قاعرة ، مقبنة ، ذي شراق	٩٠٢
	إب		١	إب ، مخادر	٥٦١
	عدين		١	عدين ، حبيش	٧٨٠
	قعطبة		١	جبل مريس ، نادرة ، حشيا	٥٧٠
	حجرية	تربة		حجرية ، قبيطة ، حبش	٤٥٣
	مخا		١	١٣ عزلة	
					٨٢٥٤

أوصاف مدن اليمن

صنعاء

صنعاء واقعة في الدرجة ١٥،٢٢ من العرض الشمالي و ٣٢،٤٤ من الطول الشرقي ، وهي في وسط سهل (أفيح) يمتد من الشمال إلى الجنوب ، ويحده من الشرق (جبل نقم) ومن الغرب (جبل عصر) .

وفصول السنة في صنعاء هي كالفصول الجارية في كل جبال (السراة) يصادف الربيع في أشهر كانون الثاني وشباط وآذار . والصيف في نيسان وأيار وحزيران وتموز ، والخريف في آب وأيلول وتشرين الأول والشتاء في تشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني .

وتكون الحرارة في صنعاء ـ كما هي في كل بلاد الجبال ـ تحت دورها الحجرية في أيام الحر ٢٢ ـ ٢٧,٥ وفي أيام القر ١٠ ـ ١,٥ إلى ٢٠ درجة .

ويحيط بصنعاء سور كبير ذو أبراج عديدة بني بنوع من الطين المقاوم لفعل الأمطار مدة مديدة ويعنى بترميمه من حين إلى آخر .

وفي صنعاء نحو ٥٠٠٠ بيت حجري و ٣٠ مسجداً أو جامعاً و٢٠ حماماً و٢٠ خاناً ويدعى الخان سمسرة .

وسوقها كبير ذو حوانيت عديدة ولكنه عار من الانتظام والترتيب وحوانيته صغيرة ، ماعدا عدداً قليلاً بني في عهد العثمانيين الأخير ، وهي كبيرة واسعة ويقدر نفوس صنعاء بنحو ٢٥٠٠٠ مسلم و ٢٥٠٠ يهودي .. والمسلمون يعرفون الكتابة بالعربية ، كما أن اليهود يعرفون العبرانية .

وفي طرف صنعاء الشرقي بناء كبير كان دار الحكومة يقيم فيها ولاة اليمن وكبار موظفيه ، وتجاه هذه الدار جامع (البكرية) المبني على الطراز التركي . وبقربها مدرسة للأيتام ، وفي داخل (قلعة القصر) مبان وثكنات عسكرية ومستودعات للعتاد والمؤن ومطحنة وجامع كان بناه (مراد باشا) حفار الآبار ـ أحد ولاة الترك القدماء .

وفي غربي صنعاء مستشفى عسكري كبير اتخذه الآن الإمام مقراً ومسكناً ودعاه (بدار السعادة) وفي (باب السبح) قرب هذا المستشفى مخفر عسكري . وفي (بئر العزب) دار عظيمة كان يقطنها الولاة العثمانيون ، وقد جعلوها الآن مدرسة لطلاب العلوم الشرعية ، وفي قربها بناء عظيم جميل بناه (حسين حلمي باشا) باسم (مدرسة الصنائع) لا يزال مهجوراً خاوياً على عروشه .

وفي خارج صنعاء وفي جنوبها ثكنات عسكرية عظيمة تسع كوكبتين تدعى (الأوردو) منها ما كان للمشاة ومنها للمدفعية . وفي ذروة (جبل نقم) ثكنة أخرى .

ويمر من وسط صنعاء ماء يدعونه (الغيل الأسود) يستقون منه ويروون بعض البساتين في ضاحية (شعوب) .

وحدائق صنعاء كثيرة فيها من أكثر أجناس الأشجار كالعنب والسفرجل والدراق .. والخضراوات المتنوعة ..

وفي فصل الشتاء إذا وقفت خضراوات صنعاء عن الإنتاج تأتيها من الأودية المجاورة البعيدة عنها نحو ٧ ـ ٨ ساعات في كل يوم ، فلا تنقطع البندورة مثلاً طوال السنة .

وقد استجلب إليها الترك كثيراً من البذور والزهور والخضراوات وأغراس الأشجار فنمت نمواً حسناً إلا أن أكثرها قد ضاع بعدهم ...

وحول صنعاء ضواح جميلة منها (الروضة) التي تبعد نحو ثلاثة أرباع الساعة (ووادي ضهر) الذي يبعد ٢,٣٠ ساعة و (حدة) التي تبعد ١,٣٠ ساعة . ويذهب المترفون من أهل صنعاء إلى القريتين الأوليين ويصيفون فيهما .

وينسج أهل صنعاء الفوط التي يلبسها الأهلون والبزوز السوداء والملاءات الخاصة بالنساء وأغطية مفارش الدور .

وقد اختص اليهود ببعض الصناعات كصياغة الذهب وعمل البارود والحفر بالجص والعلب الفضية . وقد مهر البناؤون اليانيون ببناء المباني الجسيمة المشهورة في صنعاء وغيرها . فهم قد حذقوا هندسة البناء ، ولهم مهارة خارقة في بناء الجدران والأقواس ، ونحت الأحجار ورصفها بعضها مع بعض ، ومن الغريب أنهم يبنون الجدران الشاهقة وقبب الجوامع والحمامات والمآذن المرتفعة وأمثالها من المباني المتناهية في العلو بدون قالب ولا صقالة ، ولا يعرفون استعمال الفادن (الشاقول) بل يقدرون استقامة المباني بالنظر حيث إنه يستحيل على الفادن أن يظهر لهم خطأ ما . وهم يستعملون نوعاً من الجص يأتون به من (بني حشيش) و (بني حارث) القريبين من صنعاء ، وهو جص متين للغاية ، ولهذا تكون مبانيهم قوية .

ويحصل في النواحي السبع التابعة لصنعاء الحنطة والشعير والعدس والذرة الصفراء والحمراء والبيضاء والفول والذرة الشامية والخردل وفي بلاد (الشاب) وبلاد (الروس) مغارس البن .

وفي صنعاء وملحقاتها ـ كما في بلاد اليمن ـ ترى الثيران والأبقار ذات السنام والجمل والحمير والغنم والماعز والدجاج ، ومن الحيوانات البرية المعز البري والغزال والأرنب والثعلب والنمس . ومن الطيور القمري والحجل والغراب والعصفور والنسر .

وهواء صنعاء يوافق تربية الخيل حتى إنها لاتصاب هنا بمرض (الصفافي) و (الفراحة) بتاتاً وتعمر من ٣٠ ـ ٥٠ سنة .

وجنس الخيل إن لم يكن كخيل العراق والشام ، لكنها جميلة وسريعة على كل حال . وفي أنحاء صنعاء تكثر القرود ويصادف قليل من النمور والضباع .

وفي صنعاء الأواقي عديدة ، منها المتخصصة . وللباعة تنظيم خاص ولو أنه أقل ترتيباً مما هو عليه الحال في الشام .

أما بائعو الخضر والفاكهة فهم يضعونها في سلال أمام حوانيتهم . فترى بينها الناضج والفج والصحيح والفاسد تنتظر أياماً عديدة إلى أن يأتيها صاحب النصيب ويشتريها . ومن العبث أن ننتظر مجيء جلواذ (خادم) البلدية ليراقب أمور الصحة العامة . لأن البلديات وإن وجدت ليست رئاستها إلا مرتزقة لبعض الأعيان . ولفقدان الأطباء لدى البلديات لاتنفع النصائح والوصايا التي تبذل في هذا السبيل .

المساجد :

تكون المساجد في الغالب مربعة الشكل وذات سقف واطئ وعديمة النوافذ ومظلمة . وجلها لا يكون في أرضه حصر ولا طنافس بل التراب أو البلاط الحجري فحسب . وثمة في خارج باحة المسجد صف من المراحيض . وفي داخلها حوض للوضوء حوله عدة قسائم ، مرتبة ترتيباً حسناً ، لكن الماء الآتي إلى هذه القسائم الخاصة ينبع من حوض واحد ، لذا فهو مخالف للصحة ، ويمر المصلي من الألواج الخارجية والداخلية ، ويحاول الطهارة والوضوء ، وإذا جاء للصلاة يمد اللحفة التي لابد لكل يماني من حملها على منكبه ويصلي .

الحمامات :

تكون الحمامات دائماً عميقة تحت مستوى الأرض بخمسة أو ستة أمتار . وذلك

كي يسهل توزع المياه المسحوبة من الآبار في أرجاء الحمام ، وتبقى سخونته محفوظة . فينزل القاصد إلى هذه الحمامات بدرج ، وينفذ إلى القسم الخارجي منها من باب صغير ، فيجد بركة ذات نافورة ، والأثاث من الحصير .

أما القسم الداخلي فكل غرفه وخلاياه وأجرانه تشبه ما في البلاد الشرقية ، لكن الماء البارد ينقل من الخارج .

وفي مدينة صنعاء كثير من الحمامات ، ولا تخلو بقية البلدان والقرى من حمام واحد أو اثنين ، أما أهل تهامة فيستحمون في عرائشهم ، وهم أكثر عناية بالمغسل والنظافة وقد يكررون ذلك مرة أو مرتين في كل يوم ، ولا بد للقادم من سفر أن يغتسل ، ولعل الحافز لهم إلى ذلك هو دواعي الإقليم .

دوائر الحكومة :

بنى العثمانيون في عهدهم الأخير عدة ثكنات ومباني عسكرية وملكية ضخمة في صنعاء وغيرها من المدن ، وجعلوا الثكنات في الغالب خارج أسوار هذه المدن . وقد استعمل الجيش اليماني وعمال الحكومة أكثر هذه المباني . ولكن إهمالهم يكاد يقضي عليها ، وقد لا يمضي ربع قرن آخر حتى تصبح أثراً بعد عين .

السجون :

لم يبن العثمانيون ولا الحكومة اليمانية الحاضرة مباني خاصة بالسجناء . وإذا كانوا يعتقدون أن السجين إنسان يستحق التعذيب والتنكيل ، كانوا وما برحوا يلقون به في قبو أو إصطبل ضيق رطب وعفن ، يكون في الغالب تحت برج شيخ القرية أو رئيس القبيلة أو عامل الحكومة ، وقد يشغلون المساجين بالأشغال الشاقة ، بالنظر إلى أنه لا يجوز أن يأكل أحد من بيت المال دون مقابل .

وثمة دور كبيرة اتخذوها سجوناً يحشرون فيها أولاد المشايخ والعقال المقبوض عليهم رهائن ، استبقاءً لطاعة آبائهم وأنسبائهم . وهؤلاء الأولاد الذين يبلغون المئات في كل معقل يظلون فيه سنين عديدة مغلولي الأرجل بقيود الحديد ، ويكون معاشهم من آبائهم . ومن رأى هؤلاء الأطفال الذين يقضون ريعان شبابهم في السجون والقيود يحكم بأن هذه الحياة الشقية التي يقضونها سوف تلقي أسوأ الأثر وأشنع الطابع في نفوسهم وتفكيرهم ، ويقر بأن (معاقل الرهائن) في اليمن ليست إلا (مدارس الشرور والشقاء) .

المستشفيات :

في صنعاء مستشفى حكومي واحد من آثار العثمانيين ، يداوون فيه المرضى والجرحى بالأجرة ، ولو كانوا جنوداً وضباطاً ، حتى لو أصيبوا في الحرب في سبيل البلاد ، ويشرف على هذا المستشفى طبيب إيطالي ، وقد بنت الحكومة المتوكلية في غربي صنعاء مستشفى حديثاً انتهى من عهد قريب ، إلا أن التداوي فيه سوف لا يختلف عن الأول بحال . أما بقية المدن والقرى فمحرومة من الأطباء والمستشفيات بالكلية ، لأن حياة الإنسان لا يعرف قدرها إلا حيث تشع أنوار العلم والحضارة ، ولما كانت بلاد اليمن بحكمها الحالي بعيدة عن ذلك فمن العبث البحث عن وسائل الاستشفاء .

الأماكن العامة والمتنزهات :

المقاهي قليلة الوجود في اليمن ، والموجود منها قل من يرتادها ، وليس عندهم حدائق عامة سوى بعض الحدائق الموجودة بين الدور في أحياء صنعاء ، يشترك الناس بالاستمتاع بها . لكن المتنزهات الأصلية المفقودة هي التي تكون في مفارج الأغنياء وحدائقهم الخاصة . وليس هناك ساحات عامة .

وكلما أراد الأهلون الفسحة انتشروا في الميادين العامة أو جلسوا جانب

الجدران أو أمام الدور منصرفين للمباسطة والمحادثة . وليس عندهم ألعاب وملاهٍ تستحق الذكر . وقد يجتمع الصبيان أو الشبان فيلبسون أحدهم أزياء مضحكة فيسيرون خلفه ، ويدورون في الأحياء هازئين مصفقين .

وفي الأعراس والأعياد يدقون الطبول التي يدعونها (مرافع) ويرقصون على أنغامها مشهرين الجنبيات بأيديهم .

طريق صنعاء ـ الحديدة

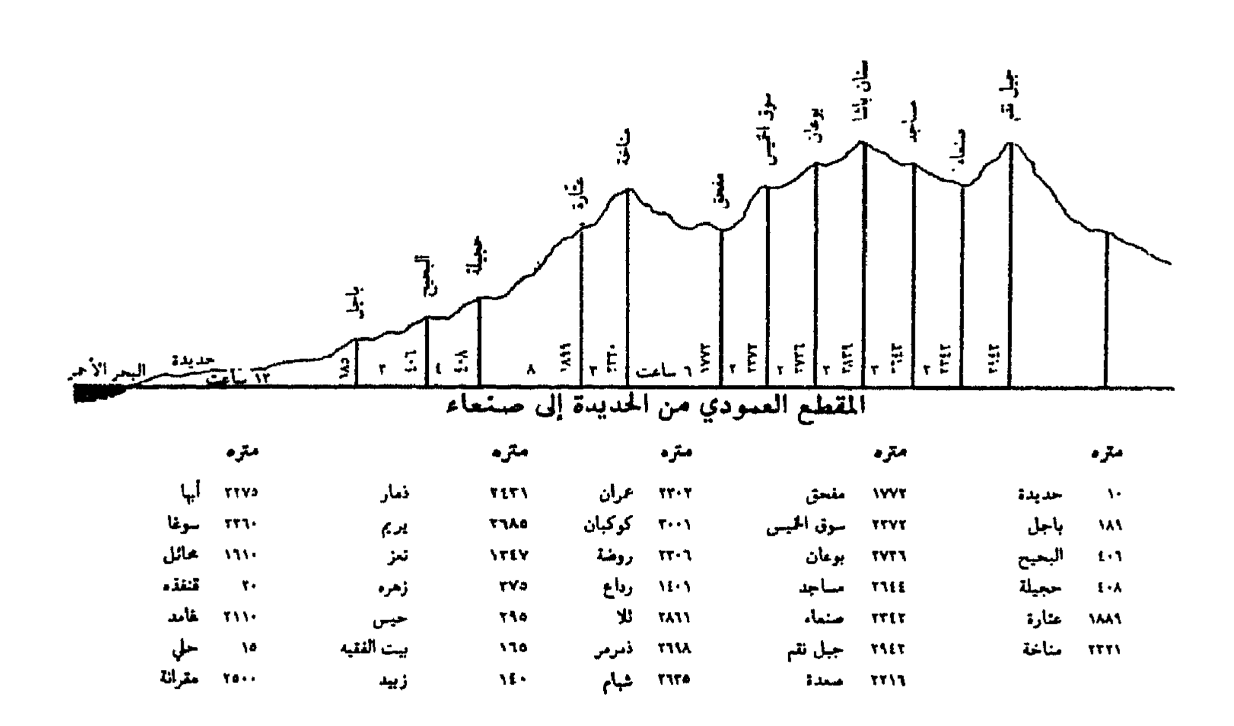
يخرج المسافر من صنعاء ماراً بسهل صنعاء (المحيط بالمدينة) فعقبة عَصِر ، وبعد أربع ساعات يصل إلى (متنة) آخر مرحلة للقادم من الحديدة ، ثم إلى (بوعان) التي فيها قلعة وبضعة أكواخ عند جسر جميل الهندسة ، وفيه طريق العربات الطويل ، أما القوافل فتسير في طريق وعرة ، ثم يصل المسافر إلى ذروة بوعان فيرى مشهداً مثل مشهد بوعان .

ومن بوعان يتجه المسافر إلى (مفحق) ، ماراً بـ (الحيمة) ثم سوق الخميس وسط المنحدر بين بوعان ومفحق . ومفحق في واد سحيق ضيق ، وما بين بوعان ومفحق طريق في غاية الوحشة والوعورة . ثم من مفحق يعود المسافر إلى الصعود ثم النزول مراراً ... حتى يصل إلى (سفح جبل حراز) المصعود إليه من نقيل مناخة ، وفي رأس نقيل مناخة مناظر هائلة . وتقع (مناخة) على قمة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس .

وفي مناخة يرى المشاهد وادي موسنة أمامه شمالاً بغرب ، دونها جبلا حفاش وملحان ، والأودية الشرقية التي بينه وبين صنعاء ودونها جبل تيس وعقبة بوعان ، ومن مناخة نزول ثان إلى أوطأ أرض في اليمن إلى وادي حجام في سفح جبل وِسْل وهناك جبل الطويلة في الأفق الشمالي يتصل ظله شرقاً بالحيمة ،

وقنة شبام التي تظل مناخة بعد الظهر ، وهي أعلى قنن اليمن ، وبعد ظل شبام يتراءى في الغرب جبل ريمة وأعلى قمة فيه جبل برع .

ويمر هناك على (القهارة) إحدى معاقل الإسماعيلية . ثم (اللكمة) من قرى جبل مسار وتحتها العريف ووراءها جبل صَعْفان وفيه حصن متوح . ثم يمر بـ (وسل) فـ (حجيلة) فـ (عبال) فباجل حتى يصل إلى الحديدة .



المقطع العمودي من الحديدة إلى صنعاء

متره		متره		متره		متره		متره	
١٠	حديدة	١٧٧٢	مفحق	٢٣٠٢	عمران	٢٤٣١	ذمار	٢٢٧٥	أبها
١٨١	باجل	٢٣٧٢	سوق الخميس	٣٠٠١	كوكبان	٢٦٨٥	يريم	٢٣٦٠	سوغا
٤٠٦	البحيح	٢٧٣٦	بوعان	٢٣٠٦	روضة	١٣٤٧	تعز	١٦١٠	عائل
٤٠٨	حجيلة	٢٦٤٤	مساجد	١٤٠١	رداع	٣٧٥	زهره	٢٠	قنفذه
١٨٨٩	عثارة	٢٣٤٢	صنعاء	٢٨٦١	ثلا	٢٩٥	حيس	٢١١٠	غامد
٢٢٢١	مناخة	٢٩٤٢	جبل نقم	٢٦٩٨	ذمرمر	١٦٥	بيت الفقيه	١٥	حلي
		٢٢١٦	صعدة	٢٦٣٥	شبام	١٤٠	زبيد	٢٥٠٠	مقرانة

الطريق من عدن إلى صنعاء

لحج ـ الدُكيم آخر حدود سلطنة لحج من الشمال ، بعدها سلطنة الحواشب ووادي تُبَن يتصل شمالاً بإب . ويبدأ هنا القصيد يظهر في الأفق (جبل وردة) والجبال حوله وأمامه (الخندق) قرية خيامها من القش . (المسيحير) عاصمة ابن ماتع سلطان الحواشب ، وهي قرية من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها في وادي (تبن) سلسبيل فضي إلى جنبيه الحقول المزروعة . (ماوية) مختبئة في الجبل وراء الوادي يصعد إليها .

(وادي الذهب) من أجمل الأودية وأخصبها في اليمن الأسفل . تجري فيه المياه ويزرع ثلاث مرات في السنة . (وادي نخلان) وبعده نقيل المحرس ، ومنه يصعد إلى (نجد الأحمر) ٤٠٠٠ قدم علو ... يجف الهواء ويبرد الماء . ثم ينزل من النجد إلى بلدة (إب) في سفح جبل بعدان . في **إب** الزيتون والموز والعنب والتفاح والرمان . وفي اليمن الأسفل تنمو هذه الأشجار كلها ، لأنها لا تعلو أكثر من ٥٠٠٠ قدم . ولا تبعد أكثر من عشر درجات عن خط الاستواء .

(إب) مسورة قذرة وسط سهل حوله آكام ، بيوتها من الحجر وأكثرها ثلاث طبقات ، يكثر فيها الجدري والحمى وأكل القات ، وفيات الأطفال في اليمن كثيرة . وقلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولداً مثلاً أكثر من سبعة إلى عشرة . ويكثر فيهم النحول والشحوب وضعف الأعصاب .

وادي المَرْقِد : وهو يفوق وادي الذهب جمالاً وخصباً ، وفيه يرى لأول مرة البن الذي يشبه ورقه وزهره الليمون ، وفيه الجوز واللوز والخرنوب والموز .

بعد وادي المرقد نقيل جبل سماره (أعلى نقيل في اليمن) ٥ ـ ٦ ساعات ، في وسطه قرية اسمها (المنزل) . وفي رأس النقيل يشعر ببرد نجود اليمن . ومنه

يشرف المسافر وينزل إلى (قاع الحقل) وإلى الجنوب منه (ظفار) الحميرية ، وهذا القاع مزروع بزروع شتى .

قضاء حراز

مركز القضاء مناخة ، وهي في طريق القوافل وتبعد عن صنعاء ٢٢ ساعة في سفح جبل اسمه (شبام اليعابر) .

وفيها من عهد الترك ثكنة تسع كتيبة ومستودع للعتاد ودار للحكومة ومستشفى عسكري كبير .

ويتبع هذا القضاء نواحي عر ومتوح وحجيلة . وفي كل منها دور للحكومة ، ولا سيا في نعمى ففيها أبراج للجنود ، وأحواض للماء ، ومستودع للعتاد والأرزاق . وفي قضاء حراز تنمو الحبوب المتنوعة ، ويحصل فيه البن بكثرة ، وكل أنواع الفواكه ولا سيا العمبأ والموز والقات .

قضاء كوكبان

مركزه (الطويلة) وفيها دار للحكومة وبرجان للجنود ، وفي كوكبان المشهورة في تواريخ اليمن ثكنة تسع نصف كتيبة ، وفي هذا القضاء ناحيتان محويت وشبام ، وفي كل منها دار للحكومة .

قضاء حجة

حجة في غربي صنعاء وعلى بعد ٢٤ ساعة ، وهي واقعة على ظهر جبل في وسطه واد يشطره إلى قسمين ، التفت دورها حول قلعة اسمها الظهرين . وفي وسط حجة دار للحكومة وحوض كبير ، وفي أعلى دار الحكومة ثكنة كبيرة تسع كتيبة . وفيها مستشفى وأبراج وأحواض ماء .

ولهذا القضاء نواحي شغادرة وبني عوام ، وعقّار ، ومسور ، وفي بعضها أبراج وحصون بناها الترك .

ويكثر محصول البن في هذا القضاء ناهيك بأنواع الحبوب .

وهذا القضاء ذو أهمية كبرى لاحتوائه على واد اسمه وادي شرس ومياه جارية أخرى تروي أراضي غاية في الخصوبة والإنبات .

عمران

عمران شمالي صنعاء ومحاطة بسور ابتعد عن صنعاء عشر ساعات وتقع وسط سهل أفيح ينتهي بقاع البون . وفيها دار للحكومة ومستودع للعتاد ويقل محصول البن في هذا القضاء ومثله البر (القمح) ، أما الشعير والذرة والفول والبلس والعنب واللوز والمشمش فيكثر .

قضاء آنس

مركزه (**ضوران**) تبعد عن صنعاء إلى الجنوب الغربي ببعد ١٦ ساعة ، وفيها دار للحكومة كبير ، وهي في سفح جبل شاهق في قمته برج للجنود وضريح للإمام المتوكل إسماعيل بن القاسم يزار في اليوم الثاني من عيد الفطر .

وفي هذا القضاء (حمام معدني) يدعى حمام علي يفد إليه الناس في شهر صفر ، وينفع الاستحمام فيه من القروح والجروح وأوجاع المفاصل .

وفي هذا القضاء نواحي جبل شرق وعتمة وجهران ، في كل منها دار للحكومة .

ومحصولات هذا القضاء وفيرة بدرجة أقضية حراز وكوكبان وحجة . وفيه كل الحبوب ولا سيما البن ، وبن (جبل شرق) مفضل على كل البن حتى إن

(القشر) الحاصل منه إذا شرب يظن أنه موضوع فيه سكر . ويحصل في آنس عسل جيد ، وشمع يضيئونه في المفارج والمبارز[1] .

ويكثر في هذا القضاء السمسم ويعصرونه ويستخرجون سليطه .

وفيه كل الحيوانات الداجنة ولا سيا الغزال والمعز البري وفي الجبل المشرف على (ضوران) آثار وعاديات حميرية كثيرة .

قضاء ذمار

ذمار في جنوب صنعاء ، تبعد ١٨ ساعة وهي بلدة تحوي ٢٠٠٠ دار و١٠٠ دكان وحمام وخانات كثيرة ، وفي غربي البلدة قلعة مبنية من الحجر المنحوت ، وفيها دار للحكومة ذو ثلاث طبقات .

وثمة ناحية (مغرب عنس) وتجاه بلدة ذمار جبل اسمه (هران) فيه أطلال مبانٍ قديمة .

ويحصل في هذا القضاء غلال كثيرة من البر والشعير وأنواع الحبوب ، أما البن فقليل .

وقد اشتهر غنم ذمار ، وتزن أَلْيَة الغنمة ٧ ـ ١٠ كيلو غرامات .

قضاء يريم

يريم تقع في جنوبي ذمار وتبعد عنها نحو سبع ساعات ، وعن صنعاء ٢٥ ساعة ، يحيط يريم سور، وفيها ١٢٠٠ دار و ٥٠ دكاناً و ٣ ـ ٤ بحيرات ودار

---

(١) المفرج والمبرز : هي غرفة الضيوف في دور المترفين من أهل اليمن مخصصة لمضغ القات ، تكون في أعلى الدور وتملأ بكل أنواع الرياش والأواني المزخرفة يبقون فيه في كل ليلة إلى الساعة ٦ ـ ٨ عربية يخزنون [أي يمضغون القات] وينشدون الأغاني .

للحكومة وحمام ومدرسة . وفي جنوبها وعلى بعد خمس دقائق (عين المريمة) وهي عين جارية يقصدها الأهلون للنزهة .

أراضي قضاء يريم خصبة ومغلالة ، ويحصل فيها كثير من البر والشعير والذرة ، ولمشايخها عناية بتربية الخيل ، وفي جنوبها على بعد ساعتين خرائب مدينة (ظفار) عاصمة الحميريين . وثمة كهوف تحوي آثاراً كثيرة لو حفرت لظهرت .

رداع

رداع تقع في شمالي شرقي يريم على بعد سبع ساعات ، وعن صنعاء ٣٢ ساعة ، ليس لها نواح ، وغلالها قليلة ، ولكن لأهلها علاقات تجارية مع عدن لقربها منها . وفي هذا القضاء حمام معدني ينفع العلل والأسقام .

تعز

مدينة تعز جبلية في جنوبي صنعاء ، وعلى بعد ٦٢ ساعة عنها ، والطريق إليها يمر بذمار ويريم وإب . والمسافة من تعز لمخا ٢٤ ساعة ، وإلى عدن ٤٠ ساعة.

ومدينة تعز في سفح جبل شاهق اسمه جبل صَبِر ، وهي تتجه إلى الشمال . ولما كان جبل صبر من الجنوب ، وتقع تعز في أراضٍ ذات تضاريس أحاطت بها أكمات صغيرة . ولوجود بحيرة صغيرة تدعى (الهشمة) في شمالها صار هواؤها رديئاً .

وهي محاطة بسور ذي ثلاثة أبواب . ويستدل من أطلال تعز الدارسة أنها كانت فيا مضى مدينة عامرة جسيمة ، وقد صغرت عما قبل ، وليس فيها الآن

سوى نحو ٤٠٠ دار وخمس جوامع كبيرة وحمامين و ١٠٠ دكان و ١٥٠٠ مسلم و ٥٠ يهودي . وفيها دار للحكومة وثكنتان ومدرسة ومستشفى في شرقي المدينة .

نواحي تعز أربع ، ذيزات ، تربة القحم ، قماعرة ، مقبنة ، وجبل صبر خصب للغاية ، يحصل فيه كثير من البن والقات وغيرهما من المحاصيل ، ويحمل قات هذا الجبل إلى لحج وعدن حيث يباع فيهما . ويحصل في النواحي المذكورة أنواع الحبوب .

قضاء إب

مركزه إب في شرقي تعز، وعلى بعد ١٣ ساعة ، وعلى الطريق الآخذة من صنعاء إلى تعز ، وإبّ محاطة بسور فيها ٥٠٠ بيت ، و ٥٠ دكاناً ، وخان كبير ، و ٢٥٠٠ نفس ، وفيها دار للحكومة ، وفي جوار سورها حديقة .

وفي شمال غرب إب ، وعلى بعد ١,٥ ـ ٢ ساعة ، بلدة جبلة من بلاد اليمن المشهورة وفيها ١٥٠٠ بيت . وفيها جامع تركي على طراز جامع البكرية في صنعاء بناه محمد بك أحد الأمراء العثمانيين ، أشرف على الخراب ، ومثله مدرسة بناها المذكور ، ودار للحكومة .

وفوق جبلة جبل تعكر من الجبال المشهورة ، وفي قمته أطلال قلعة ... كانت خراباً ثم رممها طغتكين بن أيوب ثم خربت بعده .

وفي جنوبي مدينة إب وبينها وبين قعطبة ، وعلى بعد ثمانية ساعات من إب بلدة (عذارب) وهي ذات ١٥٠٠ بيت وجامع ضخم ودار للحكومة قديم وثلاثة أحواض ماء .

وفي قضاء إب جبل (بعدان) فوقه قلعة (حب) المتهدمة ، يظهر فيها أنقاض دار للحكومة ضخمة وسجون وحوانيت عديدة ، تدل على أنها كانت مدينة قديمة .

وقلعة حب أيضاً من آثار طغتكين بن أيوب .

ولقضاء إب ناحية واحدة اسمها (مخادر) قاعدتها مخادر ، واقعة على الطريق الذاهبة من إب إلى صنعاء ، وفيها قلعة صغيرة ذات جامع . وعلى الطريق على بعد نحو ساعة حوضان كبيران للماء .

ويعد قضاء إب من أغنى الأقضية بمحاصيله ، فيه البر والشعير والفاصوليا والبن والذرة والبطاطا وكل أنواع الخضراوات .

قضاء قعطبة

تقع قعطبة إلى الجنوب الشرقي من تعز ، وعلى بعد ٢٢ ساعة ، وفي جنوبي صنعاء وعلى بعد ٢٩ ساعة عنها ، وعلى بعد ٣٦ ساعةً عن عدن ، وليس في قعطبة سوى ٨٠ ـ ٩٠ بيتاً ونحو ٥٠٠ ـ ٦٠٠ نعش . وفيها دار للحكومة ودار للمكس (الجمارك) . ولقعطبة نواحي النادرة والحثيا والمريس ، وكانت ناحية الحواشب تتبعها أيضاً وتدار بمعرفة شيخها علي بن نافع .

وفي غربي قعطبة ، وعلى بعد ساعتين حمام معدني اشتهر بنفعه مثل حمام علي وحمام رداع .

ومحاصيل قعطبة أنواع الحبوب ، أما بنها فقليل .

قضاء الحجرية

وكان مركزها تربة.[ويقع جنوبي تعز] ، وهو موقع صغير ذو ٣ ـ ٤ بيوت فقط ، لكن مركزه هام من الوجهة العسكرية . وللقضاء نواحي قبيطة ومقاطرة وجبل حبش ، ويحصل في هذا القضاء كثير من البن والذرة وأنواع الحبوب والنخل وقصب السكر .

وفي هذا القضاء عدة مياه جارية . وفي شرق الحجرية نهر دائم الجريان من الشرق إلى الغرب ، بنى الأقدمون في أعلاه جدولاً متيناً شيدوه بالحجر والحصى عمقه وعرضه متر ، وطوله خمس ساعات ، وهو خراب الآن ، اتخذته المواشي طريقاً ومعبراً لها .

عدين

عدين تقع في الشمال الشرقي من تعز ، وعلى بعد ٢٢ ساعة ، ومحاصيل هذا القضاء كثيرة ، أخصها البن وقصب السكر والتمر الهندي والورس ، أما القصب فلا يستخرجون منه سكراً ، وأما الورس فلا يعرفون استخراج الصباغ منه بل يستوردونها من الخارج فيستفيد منهم الأغراب .

وتكثر القرود في هذا القضاء ومثله النمر والضبع .



يوميات عمل

وجدت بين أوراق أحمد وصفي زكريا مسودات رسائل دورية موجهة للمسؤول عن الزراعة في اليمن وهو السيف .

أو إلى أمير الجيش يبين فيها أعماله أو يجيب فيها عن رسائل تبدأ من تاريخ ١٦ صفر وحتى ٦ ربيع الأول عام ١٣٥٥ هـ وهو اليوم الأخير من عمله في اليمن .

(١)

إلى الإمام يحيي

وكنت عرضت لسمو سيف الإسلام سيدي عبد الله هذه المعاذير وفقدان الأسباب وعدم كفاية الشهرين الباقيين لي ، وأضفت إليها أيضاً أنني ، ولو استطعت القيام بهذا العمل على وجهه الكامل أو الناقص ، أطلب تأمين حقي في التأليف ، لأن التأليف عمل مضنٍ يحتاج لتعب أيام وسهر ليالٍ ، وهو من الأعمال التي تعرف كل الدول والأمم بأنه خارج الوظيفة وغير داخل في مقابل الراتب الذي يتقاضاه الموظف ، وإن الموظفين إذا كلفوا بالتأليف وألفوا يكافؤون حسب جهودهم وقيمة آثارهم .

وذكرت في الأخير لسموه أنه بدلاً من هذا وذا ، إذا أراد أن يحصل مني على كتاب زراعي عام كالذي يرغبه ، أمامه (مفكرتي الزراعية) التي كنت أول مجيئي قدمت إلى جلالتكم وإلى سموه نسخاً منها وقلت له : إن هذه المفكرة كافية ووافية بما يبتغيه ، وهي حاضرة ومطبوعة ومزينة برسوم عديدة يتعذر إيجادها في صنعاء لوأريد طبع مثلها ، وثمنها زهيد بالنسبة لما تكبدته في طبعها ، فإذا شاء استجلب من دمشق الشام بقدر ما يطلب من النسخ ليوزعها على من يعنى بهذه الأبحاث الزراعية من إخواننا اليمانيين ، فلم يقبل سموه باقتراحي وأصر على

أن أؤلف كتاباً جديداً خاصاً باليمن وشؤون اليمن ومناطق اليمن ...

فما زال سموه لا يقبل معذرة ، ولا يرضى بالحل الذي عرضته ، ولا يراعي فقدان الأسباب والأوقات اللازم تحصيلها للعمل الهام الشاق الذي يطلبه ، ولا يكتفي برسالة (فن الأشجار) التي ألفتها وقدمت لسموه قسماً منها للطبع ، ولا يحسب حساب أتعابي وجهودي في زرع البزور الكثيرة وغرس الغراس الوفيرة التي استجلبتها من فلسطين ومصر وإيطالية ، وفي تعليم التلامذة وتثقيفهم وإعدادهم للخدمة في أملاك ومزارع جلالتكم ، وفي تحرير وتقديم التقارير والتعليمات العديدة التي طلبها ... قلت مازال سموه لا يعنى بكل ذلك ويكلفني تكليفاً لا يطاق ، ويصر علي أن أعمل عملاً ناقصاً ومشوهاً ـ أحتكم إلى أعتاب جلالتكم لتنظروا إلى هذا الاختلاف في الرأي بنظركم السامي وإنصافكم العالي .

أقدم في طيه صحيفتين رقم ١١ و ١٢ تتمة أبحاث رسالة (فن زراعة الأشجار) وهما تحتويان على كل ما يتعلق بزراعة البرتقال . وسيكون البحث عن بقية الأشجار على هذا النسق ، فأرجو أن تتكرموا بإرسال هذه الأوراق أيضاً إلى المطبعة أسوة بعشر الصفحات التي تقدمت ليكون الإسراع بطبعها . واقبلوا ...

(٢)

للسيف ١٦ صفر

جرت في الأسبوع الماضي من ١٠ صفر إلى ١٥ منه الأعمال الآتية :

تلقى التلامذة من الدروس النظرية الأبحاث الآتية : زراعة الشعير ، زراعة القنب ، زراعة الكتان ، شروط إنشاء بساتين الخضرة ، وكيفية تقسيمها وانتقاء بزورها والعنايات التي تجري بها زراعة البطاطا .

على إثر توالي الأمطار طيلة هذا الأسبوع لم يتمكن التلامذة من العمليات في المشتل سوى أنهم في / ١٠ صفر أفرغوا آخر السلال الواردة من الحديدة ، وغرسوا

ما خرج منها في التنكات ، وهو البرتقال واليوسفي والسرو والصنوبر ...

ـ قلع كثير من غراس البرتقال واليوسفي من تنكاته ، بعد أن كاد ينجح ويورق وأرسل إلى أماكن بعيدة ، وذلك على خلاف الأصول الفنية ودون أن يؤخذ رأينا . كما أخذ كثير من غراس الصنوبر والسرو ، وأرسل إلى أماكن مختلفة في صنعاء لم نعلم بها ولا عن كيفية غرسها شيئاً . ولا تزال سلة الأوكاليتوس التي جاءت في الأسبوع الماضي ، وجف معظم غراسها واقفةً أمام باب المشتل دون غرس لأسباب لم ندر ما هي . كما صرنا لا ندري ما هي وظيفتنا بعد هذا الإعراض عنا وإقامة المثبطات أمامنا .

(٣)

كذا / ١٩ صفر

أشكو إلى سموكم التلامذة كافة ، فقد عطلوا أمس الدرس ، وكان السبب في ذلك التلميذ حمود العطاب الذي أبقى مفتاح باب المدرسة معه قبل الظهر وغاب به ، وهو غير حافل ببقاء رفاقه وأستاذه دون مكان ، وكما غاب حمود العطاب غاب معه أيضاً حميد اليناعي وأحمد البراق . ولما رأيت ما حدث قبل الظهر نبهت عليهم ولا سيا على أصلحهم علي الناظري أن يأتوا بعد الظهر الساعة الثامنة تماماً ، فلم يأت علي الناظري ، وبعد أن انتظر الباقون برهة اتخذوا الصلاة حجة على أن يعودوا بعدها ، ولكنهم ذهبوا ولم يعودوا أي أنهم أخلفوا بما وعدوني به . عرضت هذه الحالة المؤسفة لتأمروا سموكم بالقصاص الشامل للكل ، ولا سيا للمسبب الأصلي حمود العطاب وتفضلوا ...

نفد المداد والظروف والورق المسطر مما كنتم تفضلتم وأرسلتموه قبل أربعة أشهر ، فأرجو التكرم بإرسال ما يكفي من ذلك وقبول فائق الاحترام . / ١٩ منه

(٤)

كذا / ٢٠ صفر

غير خاف على علم سموكم أن الطبيب إذا لم يذهب إلى المريض ويره بعينيه ويجس نبضه بيديه ، وإذا لم يستنطقه عن كيفية بدء العلة وسيرها والأطوار التي مرت عليها ، لا يمكنه أن يشخص الداء ويصف الدواء ، وما من طبيب في العالم يمكنه أن يرجم بالغيب ويداوي وهو في صنعاء مريضاً طريح الفراش في صعدة أو في تعز مثلاً .

وإذا فرضنا أن ذلك الطبيب ذهب إلى صعدة أو تعز وزار المريض وعرف داءه لا يمكنه أن يعالجه ويشفيه مالم يكن مستصحباً الأدوية والعقاقير والآلات الجراحية . وما نفع هذا الطبيب مهما كان نطاسياً إذا لم يكن مستصحباً الأشياء المذكورة ، ألا يقف مكتوف الأيدي لا يشفي طبه علة ولا ينفع علمه غلة .

والمهندس الزراعي الذي هو طبيب النباتات أيضاً مثل طبيب البشر في الأمور التي ذكرتها ، إذا لم يذهب إلى النباتات أو الأشجار المعلولة ويفحص أرضها وجوها ، ويدقق أسباب العلة التي تشكو منها إن كانت من مرض طفيلي أو غير طفيلي ، وإذا كانت من الأول فهل هي من فطور أو من حشرات ، وما جنس هذه الحشرة وفصيلتها ، وهل هي من ذوات الفم القارض التي تكافح بالسموم المعدية أم من ذوات الفم الماص التي تكافح بالعقاقير الكاوية ... إلى آخر ما هنالك من المسائل المختلفة التي لابد في أن يعنى فيها بادئ ذي بدء ، ثم يشرع باستعمال الأدوية الشافية أو السموم الواقية من تلك العلة أو الحشرة ، وقد لا ينجح بالتجربة الأولى فيغيرها بتجربته الثانية وهلم جراً ..

لهذه الأسباب التي أعتقد أن سموكم تقدرونها ، لا يمكن لأحد في العالم أن يجيب عن الأسئلة الغامضة غير القيمة التي وردت من عمال بعض الأماكن بشأن

الأشجار والنباتات المريضة ، وإذا أصدر أحدٌ جواباً يكون رجماً بالغيب ونفض ثفالة الجيب ، وهذا ليس من شأن العلماء المخلصين . فعليه أعيد ما كنت ذكرته شفهياً إلى سموكم وهو لزوم استجلاب الأدوية والسموم المستعملة في معالجة الأمراض النباتية ومكافحة حشراتها مع المنافخ والمرشات التي تستعمل بها تلك الأدوية والسموم ، وقد درجت أسماء المطلوب منها في القائمة المربوطة طيه . فإذا وصلت هذه الأدوية والسموم والمنافيخ والمرشات وشئتم سموكم استعمالها في أماكنها ، وسهلتم لي أسباب الذهاب نحوها أستصحبها وأسير إلى حيث الأمراض والعاهات ، وأقوم بالفحص والمداواة في وقت واحد ، فتحصل حينئذ الغاية والفائدة المنشودتان بإذن الله تعالى .

ولست أرى في أمر استجلاب هذه الأدوية والأدوات أنجع من مراجعة وزارة الزراعة المصرية التي لاأدري إن كانت تتمكن من إيجاد ذلك أم لا ، أو من توسيط الطبيب الإيطالي المسيو ديبوزي كما جرى في أمر الغراس ، والرأي لسموكم في كل حال . واقبلو فائق ....

	عدد			كيلو
منفخ الكبريت	٣	الأدوية :	صابون أسود	١٥
برش نحاس	٥		مسحوق البيرتر	١٠
			عصارة التبغ	٥
			مسحوق الكبريت الطبي	١٠
			أخضر باريز	١٠
			حامض الزرتيخوس آسيدا	٥
	كذا		كبريتات النحاس	١٥

أرسلت في طيه تعليمات صنع قمر الدين المطلوبة ، وهي ستدخل في بحث المشمش الآتي في رسالة الأشجار . وبهذه المناسبة لا يسعني إلا أن أرجو الأمر إلى عمال المطبعة بالإسراع بالعمل .

(٥)

كذا / ٢٢ صفر ٣٥٥

جرت في الأسبوع الماضي من / ١٧ صفر إلى ٢٢ منه الأعمال التالية :

تلقى التلامذة عنا من الدروس النظرية الأبحاث الآتية : زراعة البصل ، زراعة الفاصولياء ، زراعة الباذنجان ، زراعة البندورة ، وبهذا قد انتهى الجزء الأول من كتابنا الدروس الزراعية ، ثم تبرعنا في الجزء الثاني فتلقى التلامذة بحث الهواء ، وتركيب كيفية انتفاع النباتات من الهواء ، الأرياح النافعة الضارة ، ثم بحث الحرارة وأسباب اختلافها ، تأثيرها في النباتات تأثير الصقيع في النباتات ، الزراعة الجبرية ، ثم بحث الماء ودورانه وفوائده ، اختلاف حاجة النباتات والأراضي للماء ، مقياس المطر ، منافع الثلج والندى وضرر الجليد والبَرَد ، ثم بحث الإقليم وأنواعه وأسباب اختلافه حسب درجات العرض والارتفاع عن سطح البحر والأمطار وتوزيعها والأرياح وشدتها والرطوبة ووفرتها .

ثم تلقوا بحث السماد وفوائده وأنواعه ، زبل المزارع وكيفية تحضير المزبلة والقمامة والأكسية .

أما العمليات فلم يعد ثمة مجال لإتيانها بعد أن رأى التلامذة أسوأ الأمثلة ، فغرس الأشجار على غير أصولها الفنية وفي غير أماكنها الموافقة ، فكما رأوا في الأسبوع الماضي كيف تقلع أغراس البرتقال واليوسفي من تنكاتها بعد أن كادت تعلق وتتفتح براعمها ، وفيها ماقد علق وفتح بالفعل ، وكيف تؤخذ هذه الغراس على ظهور الجمال إلى أماكن بعيدة ملفوفة بالأكياس لفاً لا يبقى ولا يذر من ترابها ذرة ولا يدع فيها أقل أمل للحياة ، رأوا في الأسبوع الأخير غراس الأوكاليبتوس التي يبست بسبب تأخر ورودها من الحديدة وتأخر غرسها بعد ورودها بنحو عشرة أيام ، رأوها كيف تغرس في (مقاشم) ليست صالحة لغرسها لو كانت ظلت حية .

ثم رأوا ماهو أدهى وأمر ، رأوا غراس الصنوبر المثمر التي لا تنمو إلا في أماكن خلوية عذبة (عقر) ولا ترغب الماء رأوها كيف تغرس في بستان سمو سيف الإسلام علي بين القصب الذي يشرب في الأسبوع مرتين .

فالتلاميذ يشهدون عمليات تعاكس النظريات الفنية التي يتلقونها من أستاذهم ، وأستاذهم الذي لا يكترث أحد بمراجعته ، ولا تسمع مشورته ، يقف مكتوف الأيدي محوقلاً ومحربلاً ونادباً خسران أنفاسه وضياع آماله وألقابه ، وآسفاً على هذه الغراس الثمينة التي تفدى بالمهج في أوطانها تعامل معاملة جد جائرة .

وأخيراً تفضلوا .....

(٦)

كذا / ٢٥ صفر

إن ذهابي إلى الروضة لرؤية الغراس الحديثة والقديمة تتضاعف فائدته في حالة ذهاب التلامذة كلهم معي ورؤيتهم ما يجب أن أراه . فيتلقون هناك دروساً في تطبيقات ماقرؤوه من النظريات على النباتات والأشجار والكروم الموجودة في الروضة والمعدومة في صنعاء .

فإن راق ذلك لدى سموكم أرجو تخصيص سيارة كبيرة لتأخذنا غداً أو بعد غد صباحاً وتعيدنا قبل الظهر ، وبذلك تتضاعف الفائدة وينتفع التلامذة نفعاً زائداً .

(٧)

كذا / ٢٦

إن مرض الصدأ المعروف في اليمن بالذحل والذي يطرأ خاصة على القمح هو

من الأمراض الطفيلية التي تحصل من فطر شبه الميكروب ، وهذا الفطر ينمو ويفتك في الأشهر التي تكثر فيها رطوبة الهواء ويزداد الضباب (السخان) ..

وقد كنت ذكرت إلى سموكم أن مكافحة هذا الداء بعد حدوثه وانتشاره غير ممكنة قط ، وأنه يوجد أدوية واقية إذا استعملت للبزور قبل زرعها تنجو عند نموها من المرض المذكور .

على أنه لما كان استعمال هذه الأدوية الواقية متعذر لدى أكثر الزراع ، وجد علماء الزراعة طريقة أخرى قد تكون أنجع في مقاومة فتك هذا الداء . وهي أنهم أوجدوا أنواعاً من القمح فيها مناعة تقاوم فتك داء الصدأ ، فلا تتأثر به ... وقد شرع الزراع يستعملون هذه الأنواع ويدرؤون شر هذا الداء .

ولما كانت وزارة الزراعة المصرية قد أوجدت في حقولها الغنية أحد الأنواع المذكورة واسمه لديها (القمح البلدي الهندي) ، فإني أقترح على سموكم أن تكتبوا إلى الوزارة المشار إليها وتطلبوا منها شراء ٢٠ ـ ٣٠ إردباً (الإردب المصري نحو أربعة أقداح يمانية) أو أكثر إذا شئتم ، وتصرحون لها وتشترطون إرسال هذه الكمية من النوع المعروف بالبلدي الهندي الذي ثبتت مقاومته ضد مرض الصدأ . فإذا وردت هذه الكمية توزعونها على الزراع الذين يشكون من حدوث مرض الصدأ ، في أنحاء ذمار ويريم مثلاً ، لكل منهم قدح أو قدحان ، على أن يجربوا زراعتها بكلتا الطريقتين المسقوية والعذية (الفيل والقياض) ويراقبوا نموها ، وبعد الحصاد والدراس يضبطون مقدار غلالها ، فإذا ظهر نجاح هذه الغلال وموافقتها لإقليم تلك الأنحاء وأراضيها وعدم تعرضها حقيقة للصدأ ، وعرف أي الطريقتين المسقوية أم الغيل ، كانت أنسب لذلك النوع ، لاتؤكل الغلال بل يحتفظ بها للبدر في الموسم القادم . وبهذه الصورة ينتشر هذا النوع وينجو الزراع من خسائر مرض الصدأ فيستفيدون ويستفيد بيت المال معهم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام سيدي

(٨)

كذا / ٢٩ صفر ١٣٥٥

جرت في الأسبوع الماضي من / ٢٤ صفر إلى ٢٩ منه الأعمال الآتية :

تلقى التلامذة من الدروس النظرية الأبحاث الآتية :

الأسمدة الخضراء ، خواص الأسمدة ، نقل السماد إلى الحقول ، مقدار السماد المستعمل ، زمن التسميد .

الأسمدة المعدنية ، لزومها وأنواعها وفوائدها .

الإسقاء وضرورته ، وسائط الإسقاء قديماً وحديثاً ، أوصاف ماء الإسقاء ، الدور ، زمن الإسقاء ، طرائق الإسقاء .

التجفيف ، مضار المياه الزائدة ، أسباب تكاثر المياه ، طرائق التجفيف .

خنادق التصريف ، أنواع الخنادق

(البستنة الشجرية) مناخ شروط تأسيس إنشاء بساتين الأشجار ، الموقع ، الموضع ،

الاتجاه ، التربة ، أعمال التأسيس ، المشتلة ، أنواع المشاتل ، المشاتل في الغرب والشرق ، طرائق تكثير الأشجار .

حسنات البذر وسيئاته ، شروط تهيئة البزور ، زمن زرع البزور وكيفيته ، التعقيل ، أي الأشجار تنجح بالتعقيل ، شروط العقلة ، زمن التعقيل وكيفيته ، حزمة العقل .

نثر التلاميذ السماد الكيماوي الآزوتي المعروف بنترات الصودا على غراس البرتقال والليمون التي لا تزال في تنكاتها ، كما نثروا ذلك على غراس الكمثرى والمشمش وغيرها المغروسة في بستان دار السعادة ، وبستان حضرة سمو ولي العهد ، وفي بستان المشتل .

أخذنا التلاميذ إلى قرية الروضة ، وأريناهم الأشجار المختلفة القديمة والحديثة .

الموجودة فيها ، وألقينا عليهم دروساً عديدة عن كل منها ، وشاهدوا نجاح فسائل الزيتون التي كنا / ١٦ ذي الحجة ١٣٥٤ هـ فصلناها عن زيتونة هرمة في بستان القصر المتوكلي ، كما شاهدوا نجاح بقية الغراس الإيطالية التي وزعت في مواقع مختلفة من القرية المذكورة ، فحصل لهم من هذه الرحلة انتفاع وابتهاج زائدان .

(٩)

السيف عبد الله ٥ / منه

يحتاج التلامذة إلى أمواس صغيرة للتمرن على عمليات التطعيم فأرجو الأمر لمن يلزم باشتراء خمسة أو عشرة أمواس وتسليمها إلى التلامذة واقبلوا .... وتحتاج أيضاً الغراس الواردة من إيطالية إلى غصن قائم طوعية من فروع الأثل أو غيره لتكون مسنداً لها ومقوماً لاعوجاجها ، فإذا وافق رأي سموكم أن تأمروا صالح الكيز بإحضار ذلك وتركيزه في أماكنه .

(١٠)

كذا / ٥

إن الخمسة والثلاثين جنيهاً مصرياً التي كنت استلمتها من سموكم / ٢٢ محرم أعدتها أمس إلى حضرة عامل صنعاء بناءً على الطلب الوارد من الحضرة الشريفة أيدها الله ، وبهذه المناسبة أبدي أن السيد يحي النهاري لما أحضر إليّ ثلاثة الجنيهات التي كنتم أعدتموها سموكم أخذ مني وصلاً يشعر باستلامي هذه الجنيهات الثلاثة وقد سهوت وقتئذ أن أذكر كلمة أن هذه الجنيهات الثلاثة هي من أصل الخمسة والثلاثين جنيهاً المبحوث عنها أعلاه ، وعدت فكتبت وصلاً ثانياً مصححاً وأعطيته إلى السيد المومى إليه وطلبت منه أن يعيد إلي الوصل الأول ليجري إبطاله حسب الأصول ، وتكرر مني الطلب وتكرر من حضرته التأخير

والاعتذار بالأشغال حتى يومنا هذا ، لذلك أرجو الإيعاز إليه من قبل سموكم أن يلبي طلبي وينقذني من القلق الذي استحوذ عليّ من جراء تأخره .

هذا وإني أرى نفسي مضطراً مرة أخرى لتذكير سموكم بقضية رواتبي التي تأخرت وطال تأخرها وأوجبت تراكم الديون والأكدار عليّ ، فها أن شهري الخامس على وشك الانتهاء بعد خمسة أيام من نهلو تاريخه ، على حين راتبي عن شهري الثالث لم أقبضه من يد حضرة عامل صنعاء إلا أول أمس ، وبقي الشهر الرابع والشهر الخامس الذي اقترب ميعاده .

ولما كانت مدتي المحتمة بستة أشهر لم يبق منها سوى ٣٥ يوماً ، أي في آخر يوم من شهر حزيران الغربي القادم ، وحيث إنني مضطر لمغادرة صنعاء ، إذ إن المادتين ٤ من [الاتفاق معي] .. على أن حق استيفائي للراتب ينتهي يوم خروجي من صنعاء ، والمادة الخامسة [منه] على استحقاق لأخذ ما صرفناه من نفقات فوراً في اليوم الأول من شهر تموز ، لهذا أرجو من سموكم من الآن أن تتفضلوا بتحضير رواتبي عن أشهري الثلاثة الباقية وقدرها ٧٥ جنيهاً عثمانياً ذهباً وتحضير ٤٠ جنيهاً مصرياً أجرة الطريق في عودتي حسبما هو منصوص في المادتين الرابعة والخامسة من اتفاقيتي وتسليمها لي مقدماً لكي لايحدث لي تأخر أو انتظار سفري في صنعاء بسبب هذه المبالغ الزهيدة ، واقبلوا ... [وهي] عين ما صرفته في طريقي أثناء المجيء لأصرف في الرجوع .

(١١)

كذا / ٥ منه

كنت عرضت إلى سموكم أنني حين قدومي إلى اليمن عرجت بمصر لأجل انتخاب وشراء الغراس والأسمدة الكيماوية التي طلبتموها قبلاً ، وأنني استطعت وقتئذ أن آخذ كيساً واحداً من صاحب سماد نترات الصودا بصفة هدية ونموذج ،

بينما صاحب بقية الأسمدة وعدني بإرسال أسمدتهم بعد ذهابي . والآن أفيد سموكم أن هذا الذي وعد قد أنجز ماوعد ، فقد جاءني في بريد أمس منه واسمه ثابت بك ثابت (الوكيل العام لنقابة المعامل الألمانية للأسمدة الآزوتية) كتاباً يحتوي على بوليصة شحن عن ٤٠٠ كيلو غرام من كل من الأسمدة الآتية ١٠٠ نيتروفوسكا و ١٠٠ ستيكستوف و ١٠٠ كبريتات النشادر و ١٠٠ نيترات الجير .

هو يقول : إن هذه الأسمدة قد شحنت من ميناء همبورغ إلى عدن على الباخرة دراشنفس / ١٧ نيسان ١٩٣٦ أي قبل ٣٩ يوماً ، فعليه لابد أن تكون قد وصلت إلى عدن حتى الآن ، لهذا أرجو التفضل بإرسال ورقتي الشحن الملفوفة طياً إلى وكيلكم التجاري في عدن كيما يتوسط لإخراج هذه الأسمدة وإرسالها إلى الحديدة بذلك ،

واقبلوا ...

(١٢)

للسيف علي / ٧ ربيع الأول ١٣٥٥ هـ

غب تقديم وافر التحية والتجلة ، أعرض أن قضية البن التي تكلمنا عنها قد بحثت بشأنها مع العارفين بالتجارة الخارجية ، ففهمت منهم أن رسوم الجمرك في بيروت على مئة كيلو تبلغ ليرة عثمانية ذهبية ، وأن أجور النقل أيضاً زائدة ، وأن البن البرازيلي والهرري يقع أرخص فيقبل الناس عليه لرخصه ولا يميزون بين الجيد والرديء ...

لهذه الأسباب أرجو سموكم أن تتأخروا عن إرسال مئة كيلو التي رغبتم إرسالها إلى بيروت ، ريثما أرجع إلى سورية وأبحث عن هذه القضية بحثاً كافياً وأكتب إليكم وقتئذ بما يظهر لي .

واقبلوا فائق الاحترام

(١٣)

للسيف عبد الله / ٨ ربيع الأول ١٣٥٥ هـ

جرت في الأسبوع الماضي من / ٢ ربيع الأول إلى ٧ منه الأعمال الآتية :

تلقى التلامذة من الدروس النظرية الأبحاث الآتية :

الترقيد وشروطه وأنواعه ، التطعيم وشروطه ومنافعه وأنواعه ، التطعيم بأغصان التطعيم بالبرعمة ، تصفيف الأشجار وكيفية عمله ، موسم غرس الأشجار ، كيفية غرس الأشجار ، التقليم وأسبابه وأعماله .

زراعة شجر المشمش ، شجر اللوز ، شجر التين ، شجر الكمثرى ، شجر التفاح .

(١٤)

له كذا / ٨ ربيع الأول ١٣٥٥ هـ

حسب الإشارة التي وردت من سموكم ذهبت / يوم الخميس مع بعض التلامذة إلى قرية الروض ، ففحصنا الغراس الحديثة والقديمة ، وقلمنا ما يجب تقليمه ونثرنا السماد الكيماوي على ما يستحق التسميد منها ، كما أننا عيّنّا لصالح الكيز مواقع غرس أشجار السرو التي استصحبناها وقتئذ ففتح حفرها وغرسها ..

وقد تجولت أيضاً صحبة القاضي الفاضل حسين المطهر بعض بساتين القرية المذكورة ووصلت حتى الموقع المسمى (ميسرة) ، فرأيتها جميعها متشابهة في رداءة الغرس وإصابة أشجار التفاح والدراق بمختلف العاهات .

ويرجع السبب الأصلي لهذه العاهات هو ما كنت ذكرته قبلاً ومراراً أن أشجار بساتين الروض متكاثفة ملتفة لا تكاد الشجرة تبعد عن جارتها أكثر من متر ، وقد اختلط الحابل بالنابل واشتبكت الفروع والأغصان حتى أصبحت هذه البساتين أشبه بالغابات والحراج لا بالبساتين ، فاستحال على أشعة الشمس الدخول

خلالها ، فجاعت الأشجار وهزلت من قلة الغذاء ، وقلة النور ، وقلة الهواء ، وقلة العناية بالخدمة ولا سيا بعملية التقليم ...

فالتفاح مصاب بمرض (المن القطني) الموجود في كل أنحاء العالم ، والذي ينشأ من حشرة صغيرة جداً اسمها المن القطني ، والدراق (الفرسك) مصاب بالصمغ وبحشرة أخرى من صنف المن ، والرمان يعتريه عارض فيسيولوجي يؤدي إلى تساقط أزهاره قبل انعقادها ...

وهذه الأمراض والحشرات يمكن مداواتها ومكافحتها إلى حدٍ ما إذا وردت الأدوية والسموم وأدوات الرش التي كنت ذكرتها في كتابي المؤرخ / ٢٠ صفر .

بيد أنني أعود للتصريح والنصح أن الأدوية والسموم المذكورة لا تجتث العلل من أصولها وتشفيها بتاتاً مالم تزل وتتبعد الأسباب والمقدمات المؤدية لهذه العلل . وذلك بأن يقلع ما يقرب من نصف أو ثلث الأشجار الموجودة ويعتني بتقليمها وتسميدها وعزق تربتها كيا تنتعش وتقوى على احتمال طوارئ العاهات . فالجسم الصحيح يقاوم الأمراض عادة أكثر من الجسم الهزيل ، وقديماً قيل درهم وقاية خير من قنطار علاج . واقبلوا

(١٥)

القاضي عبد الله العمري

حضرة العلامة الجليل القاضي عبد الله العمري حفظه الله ووفقه

غب تقديم التحيات والاحترامات الوافرة ، أبدي أنني لما رأيت عدم لزوم الحصان المخصص لي أعدته قبل بضعة أيام إلى الجيش مع الجندي خادمه ، وبقيت بدون من يحرس البيت وينظر في بعض أعمالي الرسمية ، لهذا جئت راجياً تخصيص جنديين على أن يكونا صالحين ، وسلفاً أشكر فضلكم ، والله يوفقكم ويعافيكم سيدي .

(١٦)

السيف عبد الله / ١٣ ربيع الأول ١٣٥٥ هـ

إجابة عن أسئلتكم بشأن كتابة تعليمات عن الأمراض والعاهات المستولية على أشجار التفاح والدراق والرمان في قرية الروض ، فقد كتبت في الورقة المربوطة في طيه وصف كل مرض على حدة وكيفية مكافحته . ومن مطالعته ترون أن مرض التفاح يحتاج لوجود الصابون الخاص الذي يستعمل في مكافحة الحشرات واسمه (الصابون الأسود) ، ومرض الدراق يحتاج لوجود الكبريت الطبي ولآلة النثر الذي ينثر به . فإذا وردت العلاجات والآلات التي كنت عرضت لزوم استيرادها تأمرون وقتئذ باستعمالها حسبما ذكرته في التعليمات .

هذا فضلاً عن أنني كتبت فصلاً خاصاً في آخر رسالة (فن زراعة الأشجار المثمرة) تحت عنوان أمراض الأشجار وعاهاتها وطرائق الوقاية منها . إذا قرأه القراء وعملوا به وبما أوصيته في التعليمات المربوطة في طيه يرجى أن يفوزوا بإنقاذ هذه الأشجار وغيرها مما أصابها ، واقبلوا فائق الاحترام سيدي

إن تعليمات الأسمدة ستقدم بعد .

إن مسودات رسالة فن الأشجار حاضرة جاهزة ، تفضلوا بالأمر إلى المطبعة كيما يسرعوا بالطبع ، وأن يسلموني الكراريس التي تم طبعها ...

(١٧) .

السيف عبد الله / ١٤ منه

إن أغراس البرتقال التي لا تزال في تنكاتها صارت بحاجة للإسقاء المتكرر في الأسبوع مرتين . ولا سيما بعد أن سمدت بالأسمدة الكيماوية واشتد الحر منذ أسبوعين ، وعلى الرغم من هذه الحاجة فإن الساني الموكل بهذا الإسقاء يتقاعس عن أداء هذا العمل معتذراً بأنه لم يعط له أجرة على عمله هذا ، وبعض الأغراس جفت أوراقها من العطش ، والخطر يهدد البقية ، وقد نبهت عليها الساني فلم

يسمح لي قولاً ، وليس أمامي أحد أستعين به على هذا الأمر ، بهذا بادرت لإخبار سموكم ، كي تبرقوا إلى من يجب بلزوم تأمين ماء الإسقاء لغراس البرتقال أولاً ، وكي تسعوا لنقل هذه الغراس إلى حيث تشاؤون غرسها فتغرسونها وتخلصونها من هذا الانتظار الذي طال أمده ثانياً ، وعلى كل حال الرأي لسموكم . واقبلوا فائق الاحترام سيدي .

(١٨)

السيف عبد الله / ١٥

إجابة عن كتاب سموكم المؤرخ / ١٤ ربيع الأول أبدي :

١ً ـ إن الحقيقة التي تأمرونني بمعرفتها وتبعتها هي كما عرضتها في كتابي أمس ، ولو علمت بأن سموكم سوف تكذبونني وتصدقون صالح الكيز لما صدعتكم بما عرضته . ولتركت الغراس تحترق بعطشها ، فأستميحكم العفو على مخالفتي الأصول .

٢ً ـ إن قائمة الغراس المرسلة تحتوي على أرقام تجمع أثمان الغراس ونفقاتها كلها . وكان المطلوب أن يرسلوا مفردات الأثمان لكل جنس من الأشجار على حدة ليمكننا معرفة عدالة هذه الأثمان أو فداحتها . لهذا أرى إن وافق ذلك رأي سموكم أن يكتب ثانيةً بطلب هذه المفردات من مشاتل الليغرافي ناتانيا .

وتفضلوا بقبول فائق ...

(١٩)

للسيف عبد الله / ١٦ منه

جرت في الأسبوع الماضي من ٩ ربيع الاول ١٣٥٥ هـ حتى ١٤ منه الأعمال الآتية :

تلقى التلامذة من الدروس النظرية أبحاث : آلات تمشيط الحقول

والزروع ، آلات العزق ، آلات البذر ، آلات التذرية ، آلات الغربلة ، الدورة الزراعية وأسبابها .

وقد تمت بذلك مواضيع الجزء الثاني وكلفنا التلامذة بالاستعداد لأداء فحص تحريري خاص عن الموضوعات المذكورة ، وضربنا لهم مهلة عشرة أيام إلى السبت القادم / ٢٣ الجاري . واقبلوا ...

(٢٠)

كذا

تفضلتم وذكرتم في كتاب سموكم ذي الرقم ٢٤٩ والتاريخ ١٠ ربيع الأول أنه قد تحرر إلى الحديدة ما يتعلق بخصوص رواتب الداعي ونفقات الطريق . فأشكر سموكم على ذلك الشكر الجزيل ، إنما علمت بعد حين أن البرقية المرسلة إلى الحديدة قد حررت نفقات الطريق فيها أربعون جنيهاً إنكليزياً ، في حين أنني كنت عرضت إلى سموكم في كتابي المؤرخ / ٥ ربيع الأول أن هذه النفقات أربعون جنيهاً مصرياً ، ولما كان بين المبلغين فرق قدره ليرة مصرية لا ترضون سموكم بأن أتعرض لخسرانه . أرجو المآل العطف والمعروف بتصحيح هذا السهو الذي حدث ، وذلك إما بأن تتفضلوا بإعطائي من الآن الفرق المذكور أو أن تتفضلوا وتسلموني أمراً خطياً آخذه بيدي إلى الحديدة يوم ذهابي بجعل الليرات الإنكليزية مصرية ، واقبلوا ...

(٢١)

كذا

العادة المتبعة في مطابع الدنيا كلها أن تعاد إلى المؤلفين مسوداتهم التي تم طبعها وترتيبها وتسلم إليهم الأوراق التي تم طبعها ليحتفظوا بها لأنها من حقهم ، لا حق سواهم . وعلى الرغم من ذلك فإن مدير المطبعة التي تطبع رسالتي (فن

زراعة الأشجار) يصر على حفظ مسوداتي لديه ، وعلى عدم إعطائي الكراريس التي تم طبعها ، وهذه حالة مستغربة يعامل بها مؤلف مثلي تمنع عنه آثار أتعابه ومجهوداته التي تبرع بها تبرعاً فلا يعود يعرف ما عمل وكيف ابتدأ وكيف ينتهي .

وقد وردني اليوم كتاب محول من سموكم بطلب هذه المسودات ، لذلك أردت أن أعرض القضية إلى سموكم بما يجب واقبلوا ...

(٢٢)

إلى عامل صنعاء / ١٦ منه

حضرة صاحب السيادة والسماحة العلامة الجليل سيدي حسين بن عبد القادر عامل صنعاء حرسه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

أعرض أولاً ، أن الأوراق المصرية الخمس والثلاثين التي تفضلتم بتسليمها لي في منزلكم العامر مساء الأربعاء الماضي / ٧ الجاري وذكرتم والدكم أن قيمة كل منها عشرة ريالات ونصف ، لم تأت بهذه القيمة في اليوم الثاني لسوء حظي ، لأنها عند عرضها على الصيارفة لم يصرفوها إلا بعشرة ريالات ، فأوجب ذلك خسراني نصف ريال عن كل ورقة مما يبلغ مجموعه في الست والثلاثين ورقة الموافقة لراتبي ثمانية عشر ريالاً ، ولما كنت أعتقد أن عواطف سيادتكم ومكارم سماحتكم لا ترضى لي بهذه الخسارة الباهظة جئت راجياً تأمين هذا الفرق وإرساله لي ليزداد حمدي وثنائي على ألطافكم .

ثانياً ، كنتم تفضلتم ووعدتموني بأن تبعثوا لي الورقة السادسة والثلاثين التي لم تكن لديكم حين تسليمي الراتب ، وهذه أيضاً أرجو التفضل بإنجاز الوعد بشأنها ، وسلفاً أشكر معروفكم والله يجزل ثوابكم ويعافيكم سيدي .

(٢٣)

للسيف عبد الله / ١٨ منه

إجابة عن كتابكم ذي الرقم ٢٥٠ والتاريخ / ١٦ ربيع الأول ١٣٥٥ هـ :

أ ـ إن الغراس التي أرسلت من إيطالية بدون طلب هي :

عدد

دلب ١٠٠

قيقب ٥٠

والتي طلبت ولم ترسل

عدد

اللوز ١٠٠ أرسلوا عوضه ١٠٠ كمثرى زيـادة بسبب مضي الوقت وتفتح أزهار اللوز

الزيزفون الفضي ٥٠
نخل الزينة ٢٠ } أرسلوا عوضها الدلب والقيقب المذكورين أعلاه

ويفيد أن أعرض : أن التعويض والتبديل المذكورين لم يكن فيهما بأس

٢ ـ إن طلبنا كان متجهاً نحو وجوب إرسال غراس صغيرة السن (أبناء سنـة أو سنتين) فالأشجار المثمرة التي وردت كان كلها موافقاً لهذا الطلب ، لـذلـك كان نجاحها أكثر من تسعين في المئـة . ولا ريب في أن حزم الأغراس كلهـا وانتقـاءهـا كانا جيدين جداً ، وأنه لولا بعد المسافة ووعوثة الطريق **لكانت** نسبة النجـاح في التأمل أكثر من ذلك .

(٢٤)

للسيف عبد الله / ٢١ ربيع الأول

جرت في الأسبوع الماضي من ١٦ ربيع الأول إلى ٢١ منه الأعمال الآتية :

تلقى التلامذة من الدروس النظرية الأبحاث الآتية :

معنى الدورة الزراعية وأسبابها وأقسامها وكيفيـة تـأسيسهـا ـ العلف ولزومـه للمواشي .

المراعي والمروج ـ المروج الطبيعية ونباتاتها ، المروج الصناعية ونباتاتها .

زراعة العصفة والبيقية والحلبة

(الاشجـار المثمرة) ـ زراعـة الخروع ، زراعـة البرتقـال والليمـون ، زراعـة الزيتون ، الكرمة ، الرمان ، الفستق ، التوت .

الحراج ومكانتها وكيفية الاعتناء بها ، منافع الحراج .

تعليمات بشأن مرض الصمغ الذي يعتري أشجـار البرتقـال والليمون والفرسك والمشمش والإجاص واللوز ..

مرض الصمغ : هـو خروج مـادة الصمـغ من سـوق الأشجـار وجـذورهـا ، وأحياناً من أثمارها وأوراقها . وهو مرض قتـال أكثر مـا يحصل في الأراضي الرطبـة وفي الأشجـار التي تسقى أكثر من اللزوم ولا سيا التي لا ينفـذ إليهـا الهواء وشعـاع الشمس إلا قليلاً . ولمنع تفاقم داء الصمغ أوصى علمـاء الحشرات استعمال الـدواء الآتي في فصل الشتاء :

يذاب نصف كيلو من كبريتات النحاس (شبه الزرقاء) في ثلاثة كيلو يات من الماء داخل وعاء من فخار . ويصب في وعاء ثانٍ ثلاثة كيلو يات من الماء على كيلو ين من الكلس . وبعد أن يبرد محلول الكلس يخلط مـا في الوعـاءين ويطلى كل ساق الشجرة المصابة بهذا الخليط . أما الجروح التي يخرج الصمغ منهـا فبعـد أن تنظف بسكين حتى يزال جميع القشر المريض يطلى بطـلاء من الـزفت المـذاب في البنزين .

تعليمات بشأن أوراق الأترج المغضنة التي أرسلت

لا تتبين حقيقـة هـذه الغضـون والقروح الظـاهرة على الأوراق والأغصـان ،

مالم يجر فحص الشجرة كلها في أوقات مختلفة ، بيد أنه يمكن أن نوصي بالتدابير الآتية التي تستعمل في فصل الشتاء :

١ ـ تقلم بالمقص جميع الأغصان التي تظهر عليها القروح المذكورة .

٢ ـ إذا تبين أن هذه الغضون والقروح بفعل حشرة يفيد استعمال مسحوق البيرتر الذي أوصينا عليه . وهو أن ينقع المسحوق في ماء ساخن بضع ساعات ، ثم يضاف إليه قليل من الصابون يسهل التصاقه على النباتات ثم يرش على الأشجار بالمرشات .

والأمر المهم بل الأهم ليس في تعليم الأسمدة أو التربة لهؤلاء التلامذة بل في أن يعلقوا الآمال على مستقبل هذا التعليم ، وفي أن يرجوا الانتفاع من هذه الفنون الزراعية وإمكان فائدتهم منها . لأن هذا الأمل والرجاء كان وما برح مفقوداً من أفئدتهم كما ذكروا لي ذلك مراراً ، لذلك قاسيت ولا أزال أقاسي الصعاب في تدريس هؤلاء التلامذة الخائري العزيمة الذين لا يعبؤون بما يعتقدون أنه ضائع بعد سفري هدراً ، وأنه سوف لا يسمنهم ولا يغنيهم من جوع ...

(٢٥)

للسيف عبد الله / ٢٥ ربيع

أقدم إلى سموكم في طية رسالة من رجل مصري ، لاأعرفه يظهر في توقيعه أن اسمه (محجوب محمد سليمان) وأنه مندوب شركة الصناعات السويدية ، وهو يخبرني أنه قادم إلى اليمن وأنه جلب معه الكتب التي كنت طلبتها من وزارة الزراعة ويرجو إجراء التسهيلات .

وقد أرسل المومى إليه بالمعنى نفسه رسالة أخرى إلى الدكتور زكي بك كرام . كما أرسل من عدن برقية بأنه متوجه إلى الحديدة ويلتمس التسهيلات .

لهذا جئت راجياً أن تتوسطوا سموكم بإرسال برقية إلى حضرة عامل الحديدة

بشأن السماح بنزول الموما إليه ومجيئه إلى صنعاء ، هـذا إذا لم يكن ثمـة مـانع مـا ، والإرادة إليكم على كل حال .

واقبلوا فائق الاحترام سيدي .

(٣٦)

للسيف عبد الله / ٢٨ ربيع الأول

إجابةً عن كتابكم ذي الرقم ٢٦٨ والتاريخ / ٢٧ منه أبدي :

١ً ـ أن السويد من الأشجار التي طلبناهـا ، وأظن أنني قيـدتـه في القـائمـة ، تلك القـائمـة التي لم أحتفـظ بصورتهـا ، بـالنظر لوجود المقـالـة الإفرنجيـة لـدعوة العربية المقدمة إلى سموكم في أول مجيئي .. فإذا لم يكن مذكوراً في تلك القائمة بهذا الاسم الذي أطلقته عليه عقيب وصوله فقـد يكون مـذكوراً بـاسمـه الإفرنجي وهو (الأولم) ، وإن لم يكن مذكوراً بهذا أيضاً يكون عدم قيده وقتئذ أثر سهو .

٢ً ـ إن بحث الأسمدة جميعها بما فيها الأسمدة المعدنية الكيماوية سبق إيضاحـه إلى التلامذة ، كما سبق عرض ذلـك في تقريرنـا الأسبوعي المؤرخ / ٢٩ صفر .. كما سبق تفهمهم أبحاث الأتربة منـذ أربعـة أشهر ، ونحن نكرر ذلـك في كل منـاسبـة عند الكلام عن كل جنس من أجنـاس الزروع أو الخضر أو الأشجـار وإذا وصلت الأسمدة الموجودة في عدن إلى صنعاء قبل سفرنا نعيد الكرة بالقدر الكافي .

٣ً ـ إن كتابة أسماء الأشجار على قطع الخشب قـد تم بحضور التلامـذة الـذين علمناهم تمييز هذه الأشجار بعضها عن بعض ومعرفة أسمائها .

٤ً ـ كنت قدمت إلى سموكم / ١٦ الجاري كتاباً بشأن الجنيهـات المصريـة التي كتبت إنكليزية في برقية جلالة مولانا أمير المؤمنين أيده الله المرسلة إلى الحديدة .

ولبثت أنتظر جواب كتابي المـذكور كل هـذه المـدة فلم يـأتني شيء ... لهـذا

أعود لتذكير سموكم بفرق الجنيهات كيلا أسافر بعد عشرة أيام مكسور الخاطر . فوق ماأصابني من الكسر المتوالي حتى الآن ، وآخره النقص الفادح الذي ضربني به حضرة عامل صنعاء عن الشهر الرابع ...

واقبلوا فائق الاحترام .

(٢٧)

للسيف عبد الله / ٣٠ ربيع الأول

تلقى التلامذة خلال الأسبوع الماضي من ٢٣ ـ ٢٨ الجاري الدروس الآتية :

حالة الحراج في البلاد العربية ، أشجار الحراج ، أحداث الحراج .

المواشي ومنافعها ، منافع الخيل ووظائفها ، كيف تكون خيول الامتطاء ، كيف تكون خيول الجر ، خيل العرب ، خيل الإنكليز . (تربية الخيل) التأصيل ، الحمل ، الوضع ، الاعتناء بالفلو ، الفطام ، تربية الفلو ، علف الخيل وكميته ، الإصطبل وكيف يبنى ، الفرجنة ، أوصاف الحمار ومنافعه ، عروق الحمير ، البغال ، أوصاف البقر ومنافعه ، عروق البقر ، تربية البقر ، أمراض البقر ، الجاموس ، الغنم ، المعز .

صناعة الحلابة ، طرق الانتفاع من الحليب ، العوامل التي تؤثر في الحليب ، معرفة غش الحليب ، طريقة استخراج الزبدة في الشرق وفي الغرب ، الغرازات ، مخضات الجبن وكيفية عمله .

تربية الطيور الداجنة ومنافعها . مايجب أن تكون عليه حظيرة الدجاج ، مايجب أن يكون عليه الخم .

إن بقية مسودات (رسالة فن زراعة الأشجار) حاضرة كلها . ماعدا بحث (البن) الذي تقدم إلى سموكم في تقرير خاص / ٤ محرم وقد قدمتها جميعها في

طيه راجياً العناية بعد سفري في حسن تصحيح الأغلاط المطبعية التي تقع كثيراً وتتكرر سيدي .

(٢٨)

السيف عبد الله ٣ ربيع الثاني

إجابة عن كتابكم ذي التاريخ / ٢ ربيع الثاني ١٣٥٥ هـ الذي تطلبون فيه إيضاحاً عما سلمه لي سماحة مفتي فلسطين السيد أمين الحسيني وعما أنفقته من ذلك .

قد قدمت في طيه قائمتين : الأولى تتضمن مجموع ماأنفقته على سفري في السيارات والقطارات والبواخر وعلى نقل أشيائي الذاتية وعلى أجور الإقامة في القدس حينما هبطتها للاتفاق مع سماحة السيد المشار إليه ، وفي القاهرة وبور سعيد حينما هبطتها لرؤية ومشترى الغراس والبزور والأسمدة الكيماوية التي طلبتموها ، ومجموع ماتحويه هذه القائمة الأولى ٥١٣٨,٥ قرشاً مصرياً ، والقائمة الثانية تتضمن مجموع ماأنفقته على اشتراء الغراس والبزور والأدوات من حلب وبيروت ودمشق ويافا والقاهرة ورسوم جمارك وأجور تحميل في البر والبحر ، ومجموع ماتحويه هذه القائمة ٤٨٥٤ من أصلها ٣٠٠٠ أودعت إلى محمد علي عبوسة باشا الذي أنفق منها قسماً وبقي لديه قسم لعله أعاده إلى القدس .

٢ ـ إن السلفة التي كنت استلمتها من يد سكرتير مكتب المؤتمر الإسلامي في القدس بأمر سماحة المفتي المشار إليه مئة جنيه فلسطيني معادلة لسبعة وتسعين جنيهاً مصرياً ، أنفقت منها حسبما يظهر من القائمتين ٩٩٩٢,٥٠ قرشاً مصرياً أي أكثر مما استلمت بـ ٢٩٢,٥ معادلة لثلاثة جنيهات فلسطينية وهذا الفرق قد طلبته من السكرتير المذكور ولما يلبني بعد ، فحبذا لو تتفضلون بتسليمي هذا الفرق من عندكم مادام أول هذا الجواب وآخره عائد لكم .

٣ ـ إن بزور الفستق والصنوبر والجوز وبزور الاشجار المختلفة قد زرعت كما تعلمون في بستان أبي مسحر وبستان الجرموزي في القسائم والقصارى ، وبزور الخضر المتنوعة والأدوات الزراعية المختلفة (مناكيش ومقصات كبيرة وصغيرة ومناشير ومخططات .. الخ) قد سلمتها إلى صالح الكيز .. أما السرج الأفرنجي والآلة الهندسية مع مشجبها وشريط المساحة فهي حاضرة ، أرجو انتداب من يستلمها ويعطيني إيصالاً بها .

٤ ـ وأخيراً ألفت نظر سموكم إلى أنني لما طلبت منكم نفقات سفر رجوعي لم أطلب كل مجموع القائمة الأولى بل حذفت النفقات التي كان لا بد منها أثناء مجيئي ، واقتصرت على أربعين جنيهاً مصرياً وهو ما رأيته ظنية كافياً لإرجاعي ..

٥ ـ إن صور هاتين القائمتين والأسناد المثبتة لأكثر النفقات المندرجة فيها قد قدمتها إلى سكرتير مكتب المؤتمر الإسلامي قبل وصولي إلى الحديدة ..

(٢٩)

كذا / ٣ ربيع الثاني

إجابة عن كتابكم الباحث عن رغبتكم بإجراء امتحان الطلبة ، أبدي :

إنني كنت ذكرت إلى سموكم في تقريري الأسبوعي المؤرخ / ١٦ ربيع الأول عزمي على امتحان الطلبة ، وإنني ضربت لهم موعداً .. الخ .

إن هؤلاء الطلبة الذين يعلم الله مبلغ المشاقّ التي قاسيتها في تعليمهم وتفهيمهم لما بلغتهم الامتحان المذكور أعلاه أرسلوا لي وقتئذ الورقة المقدمة في طيه ، ومن مطالعتها ترون سموكم أنهم فيما يخصهم لم يراعوا واجب الأدب وحق التعب مع أستاذهم ، وأنهم تململوا من الامتحان ، وأرادوا إطالة مدة الموعد المضروب ، فغضضت الطرف عن سوء خصّ بهم ، ومددت لهم الموعد إلى ٢٣ ربيع الأول ،

وعلى الرغم من التنبيه والنصح المكررين ، أظهروا في يوم الموعد المذكور عجزهم عن أداء الامتحان معتذرين بنقص تحصيلهم الابتدائي وعدم اعتيادهم على الامتحان بالشكل التفهمي الذي أطلبه منهم ، وعدم استعدادهم ... إلى آخره ... فاضطررت ثانية لغض الطرف وعدت لاستئناف الإلقاء والتدريس إلى أن كدت أنتهي من الجزء الثالث كما ترون من تقاريري الأسبوعية .

واليوم بعد أن تلقيت أمركم بلغتهم مضمونه ، فشرعوا يستغيثون ويشكون ويرجون عدم تحميلهم ما يعدونه فوق طاقتهم .. إلخ .

فأنا ياسيدي قد قمت بواجبي أكثر من واجبي الوجداني في سبيل تعليم وتفهيم مواضيع الأجزاء الثلاثة من كتابي (الدروس الزراعية) ولم أترك شاردة ولا واردة من هذه المواضيع وما حولها إلا شرحتها لهم بأبسط الأساليب وأبسط اللهجات ... وكنت أحاول حملهم على الإصغاء والتأمل لما عسى أن ينالهم من الفائدة في المستقبل لأنفسهم ولإمكانهم ...

فإذا كانوا هم لم يسمعوا النصيحة ولم يعيروا هذه الدروس الاهتمام الكافي اعتقاداً منهم بأنها سوف لاتسمنهم ولا تغنيهم من جوع ، وأنهم بعد سفري سوف يلقون شملاً مبدداً وعيشاً مشرداً ، وقد عجزوا الآن عن أداء الامتحان فعلى من تقع تبعة قصورهم هذا ؟

وقد سبق من عدة مرات كتابة وشفاهاً أن عرضت إلى سموكم حالة هؤلاء الطلبة وشكوت كسلهم وقلة دوامهم ونقص اجتهادهم ثقة بملء قلوبهم بالأمل والرجاء في المستقبل وترغيبهم عوض ترهيبهم ، ورجوتكم إعانتي على تقويم اعوجاجهم هذا . فاكتفيتم سموكم بقصاصهم بقطع رواتبهم ، ولكن هذا القصاص لم ينجع فيهم ولم يصلح من خللهم ... واستمرت العلة التي شكوت منها وتكررت . وعلى الرغم من القنوط المستولي عليّ بسببها وبسبب غيرها فقد عدت لذكرها في

كتابي الأخير المؤرخ / ٢٨ ربيع الأول ـ فأجبتموني أمس عنها بجواب غامض لا يجلو الموقف أصلاً ، لهذا عرضت القضية على سموكم ، آملاً إما أن تعدلوا عن الامتحان وتدعوا لي هذه الأيام الباقية القليلة لأتم أبحاث الجزء الثالث وهي أبحاث هامة تتعلق بالأمراض والحشرات والصناعات الزراعية ، وليكن امتحان هؤلاء الطلبة في معترك حياتهم وميدان عملهم في المستقبل الذي ينتظرهم ، وإما أن تأمروا بما ترونه مناسباً واقبلوا ...

(٣٠)

كذا / ٣ منه

قدمت إلى سموكم ٣٦ عدداً من مجلة (الفلاح المصري) و ٢٩ عدداً من مجلة (زميل الفلاح) وعدداً من المجلات والنشرات التي أصدرتها وزارة الزراعة المصرية في مختلف الموضوعات ، وهي هدية مني إلى إخواني اليمانيين ، راجياً التفضل بإرسالها إلى مكتبة الجامع الكبير لتعم الفائدة بقراءتها من قبل أولئك الإخوان الذين قد يوجد بينهم يوماً ما من الذواقة من قد تروقهم هذه الأبحاث ويرغبون الاستفادة منها ، وهذه المجلات والعجالات والنشرات غير مجاميع مجلة الزراعة التي كنت سعيت لاستحصالها من الوزارة المشار إليها ، وقد أتم سعيي هذا محجوب أفندي سليمان الذي كتبت إلى سموكم عنه ، فلعله يصل قريباً ويسلمكموها .

(٣١)

كذا / ٣ منه

لما كان يوم دخولي إلى صنعاء وقع في ثاني شوال الماضي ينبغي أن يقع خروجي منها صباح يوم الاثنين المصادف للثامن من ربيع الثاني القادم . لأجل ذلك أرجو سموكم أن تتموا فضلكم بتسهيل أسباب سفري في الصباح المذكور ، كإعطاء الأمر منذ الآن بشأن السيارة ولوازمها في الموعد المذكور . وتسليمي مبلغ

الفرق الذي طلبته / ٢٨ ربيع الأول ، أو إخبار الحديدة بأمر هذا الفرق وبأمر تسهيل أسباب نزولي فيها وخروجي منها ، وأخيراً بكتابة شهادة مصدقة للخدمات العديدة التي أجريتها خلال هذه ستة الأشهر لديكم ، واقبلوا ...

(٣٢)

كذا / ٤ منه

إن تأخري عن إرسال تعليمات الأسمدة الكيماوية كان لانتظاري ورودها ووصولها إلى صنعاء ورؤيتي حالتها ليكون التعريف حسب ذلك ، أما وقد أكدتم بطلب التعليمات فها أنني مرسلها إلى سموكم في طيه ، فعسى أن تجربوا في استعمالها في الأشجار المثمرة على الأقل ، ولا سيا في البن ، الذي عليه الاعتماد في اليمن ، والعنب والبرتقال وسواها وتحصل الفائدة إن شاء الله وتفضلوا ...

(٣٣)

كذا / ٦ منه

إجابة عن كتاب سموكم المستعجل ذي الرقم والتاريخ / أبدي أن التفصيلات التي تطلبونها بشأن الأسمدة الكيماوية قد درجت على خير ما يمكن من الإيضاح في كتابي (الدروس الزراعية) (الجزء الثاني) صحيفة ٣٤ ـ ٣٨ الموجود في يد الطلبة ، وفي كتابي المفكرة الزراعية صحيفة ... ـ الذي كنت أول مجيئي أهديت منه نسخةً لكل من جلالة مولانا الإمام حفظه الله ولسموكم . فأرجو الرجوع إلى الكتابين المذكورين . وإن كان لا بد من إطلاع سموكم على إيضاحات وافية في حق جميع الأسمدة الكيماوية ، فهذه الإيضاحات قد أدرجتها على خير ما يمكن أن يسطر ، وذلك في كتابي (الدروس الزراعية) .

أما المعلومات الزائدة التي تطلبونها عن جميع الأسمدة الكيماوية فتحتاج لكتاب لا تقل صفحاته عن المئة ، لم يبق وقت لتحريره ، حتى ولا لزوم أو نفع

لتأليفه بالنظر لعدم وصول اليمن إلى الدور الذي تبدأ فيه الحاجة لاستعمال الأسمدة الكيماوية ، والأكمات المستخرجة من القمامة الممتدة في المحل المسمى (السيالة) وسط صنعاء وحدها ما يغني الآن حتى عشرات من السنين عن استعمال الأسمدة الكيماوية التي تعد من (الكماليات) بينما الأسمدة البلدية العضوية كتلك القمامة تعد من (الضروريات) فالأولى فرع والثانية الأصل .

ولزيادة الإيضاح قدمت إلى سموكم مع هذه الرسالة . رسائل أصدرتها الجمعية الزراعية الملكية في مصر عن (الأسمدة وتسميد الحاصلات المصرية) وعن (الأسمدة الفسفاتية المنوعة) وعن (حمض الفوسفوريك) وعن (سماد سياناميد الجير) وفيها أيضاً تفصيلات وافية عن كل ماترغبونه مما ذكرتموه في خطابكم .

ومن مطالعة هذه الرسائل . يظهر لكم أن استعمال الأسمدة الكيماوية حتى في بلاد راقية بزراعتها كمصر ليس من الأمور السهلة التي تجري دون فحوص . وتجارب فنية عديدة يقوم بها (أقسام الكيمياء) التابعة للجمعية المشار إليها ولوزارة الزراعة ، ومن مطالعة الصحائف ٣ و ٤ و ٥ و ٣٠ الفصول من الرسالة المسماة (مذكرة إجمالية) بمعرفة كيماوييها ومهندسيها العديدين ، يظهر لكم أيضاً أن استعمال السماد البلدي (كالزبل المعروف في اليمن بالتخيتة وقمامة الأزقة والرماد وأمثاله) هو المقدم على كل تسميد ، وبعبارة أوضح : إن السماد البلدي العضوي من الضروريات والسماد المعدني الكيماوي من الكماليات ..

وإني أنصح سموكم بعدم استجلاب أسمدة كيماوية بعد هذه التي سوف تأتي من محل (ثابت ثابت) مالم تؤسسوا (دائرة زراعة) حسب الأصول وتعهدوا بإدارتها إلى مهندسين أكفاء يفحصون بادئ ذي بدء أراضيكم وأقاليمكم وحاجات زروعكم وأشجاركم على النحو الذي ترونه في إرسال القيمة ، ومن ثم يشرعون باستعمال ما يرونه لازماً . لأن هذه الأسمدة الكيماوية كالعقاقير الطبية التي لا يجوز أن يمد

يده إليها إلا الطبيب أو الصيدلي ، ولا يجوز أن يستعملها إلا من تلقى إرشادهما على التمام كيلا تحصل نتائج معكوسة مضرة .

والتعليمات التي قدمتها أمس هي وافية كافية لكل الأشجار المثمرة ، وأساليب الاستعمال وأوقاته والمقادير المستعملة هي مناسبة لكل أنواع الأسمدة الأربعة الآتية . كما أنني ـ كما عرضت مراراً ـ قد أوضحت ذلك للطلبة حتى إنني سلمتهم صورة عن التعليمات المذكورة ليقيدوها لديهم ويعملوا بها ويحفظوها وعساهم فاعلين ، وتفضلوا ...





وُضعت هذه الخريطة لمدينة صنعاء ورُفعت إلى الوالي العثماني
مُصطفى عاصم باشا سنة ١٢٩١هـ . وقد تم نقلها طبق الأصل
بوزارة الأشغال العامة في الجمهورية العربية اليمنية في ١٩٦٨/٥/١٥

ما نشر في مجلة التربية الصادرة بحلب العدد ٢٩٢٧

بتاريخ ١٧ / ١ / ١٩٦٣ السنة (١٧)

مهندس زراعي متقاعد يتحدث عن ثورة اليمن

● ويبدي اعتزازه بموقف « التربية » من ثورة اليمن التحررية ●

وردتنا من قارئ كريم رسالة قيمة يتحدث فيها عن الأوضاع التي أدت إلى ثورة اليمن التحررية ويعرب فيها عن اعتزازه بموقف « التربية » من تأييد هذه الثورة العربية التحررية .. ونظراً لأهمية هذه الرسالة . فإننا ننشر نصها شاكرين لمرسلها النبيل عواطفه الطيبة :

حضرة الأستاذ عبد السلام الكاملي صاحب جريدة « التربية » المحترم :

تحية وسلاماً وبعد ، فقد وقعت في يدي نسخة من جريدتكم الغراء ذات الرقم ٢٩٢٣ والتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٩٦٣ ، وإذ بي ألمح في العمود الأول منها مقالاً عنوانه « ثورة اليمن لافتة شرف في التاريخ العربي » فقرأته بشغف وتعجب وتقدير ... حملني كل منها أن أكتب إليكم هذه الرسالة وإن لم يسبق بيننا معرفة وذلك للأسباب الآتية :

لأنني كنت في اليمن سنة ١٩٣٦ م وخدمت اليمن خدمات جلى ، وبحثت ودرست حاضره وغابره وعرفت مخازيه ومآسيه وبواعث هذه المخازي والمآسي - التي لحتم أنتم إليها - .

وقد كتبت بعد رجوعي سلسلة مقالات عما شاهدته في اليمن واستقصيته من الأوضاع الجغرافية والعمرانية والاجتماعية .. إلخ في مجلة « المقتطف » المصرية المحتجبة « أعداد سنة ١٩٣٧ » كما كتبت عن تاريخ اليمن القديم والحديث في أجزاء متتابعة من مجلة « التمدن الإسلامي » الدمشقية ، وعلى ذلك فأنا أعرف الناس

باليمن وأحواله وأسباب ثورته الأخيرة ومسببيها ، تلك الثورة المباركة التي رأيتكم تؤيدونها وتكتبون في جانبها كتابة أثارت تعجبي الذي ذكرته ، إذ لم أجد غيركم سار في هذا الطريق السوي ..

إن ماكتبتموه ، أيها السيد ، صحيح . وحتى تأييدكم لثورة اليمن فيه كل الشهامة والمروءة ، لأن كثيراً من الصحافيين ـ هداهم الله ـ خذلها وكتبوا وما زالوا يكتبون ضدها ويودون إخفاقها وإطفاءها ، لكي يرضوا أخصامها من الطواغيت نصراء الضلال والباطل .

فأنتم بمقالكم هذا الذي أوقعته المصادفة الحسنة في يدي شفيتم غليلي ، شفى الله غليلكم ووفقكم لإحقاق الحق وإزهاق الباطل وأعطاكم العافية والسلام عليكم .

دمشق ـ مهندس زراعي متقاعد

قصيدة السيد عبد الله بن أحمد بن عمر العلوي الحضرمي

الله في قلب رأى فتفطرا ... حـــزنـــاً وشب أواره وتسعرا
كيف السلو وكلما اندمل الأسى ... ســالت مــآسٍ جَمَّــةٌ وتَفَجَرا
عَقَــلَ الجــوى تبيــانَــه لاميتٌ ... يُنعى ولا حيٌّ فيرجى أو يرى
قلب يضم مــودةً ومحبـــــةً ... لكُمُ بني اليمن الجميلـــــةِ منظرا
أمضى الحيـاة مجـاهـداً في حبكم ... ومكافحــاً عنكم وصـــال وحبّرا
في قلبِ مصرَ يــذود عنكم جهرة ... ويرد كيـدمن اعتـدى ومن افترى
حتى إذا وضـــع الــوغى أوزاره ... وجـلا عجـاجَ جيـاده والعِثْيرا
ومضى المجـاهـد للـديـار مهـلـلاً ... ومكبراً وافى إليكم منــــــذرا
يسعى إلى أفيـــائكم وديـــاركم ... ماطـالبـاً مـالاً ولا يرجو القرى
وافى يحـدث يـالهـول حـديثـه ... عن حـالـة الإسلام عن شر سرى
وافى يقبــــــل راحتي يحيي أميـ ... ـر المؤمنين وخيرمن ساس الـورى
ملك صحـائف مجده ختمت فـذا ... فرقـانــه يحـوى الفخـار الأكبرا
وقفت أفـانين البيـــان تجـاهــه ... حيرى فسجلـه الـزمـان مكبرا

☆ ☆ ☆

يــا أمــةَ اليمن الكريــة هــذه ... أنيـاب أبنـــاء الفرنـــج وقيصرا
ترتـــاد أنجــدةَ البـــلاد وسهلَهــا ... وتحش نفس الشعب حشـــاً أبترا
فينـا مخـالبـه الطـويلـة أنشبت ... نـــاراً تهب على المـــدائن والقرى
صفرَ الأديم أرى هنــاك رنينهــا ... حجر يليّن مـــاعتصى وتحجرا
إني لأبصر للهيب دخــــانــــه ... إني لأبصر ثَمَّ ريحـــــــاً أصفرا
إني لأبصر مَيْكروبَ الشّر في ... أحيائنـا يرعى النبـات الأخضرا
الشعبُ طراً نــــــاقمٌ وكأنني ... يــاقـوم أسمع صوتــه إذ زجراً

هــل أنتم مثلي ترونَ شرارهـــا وتعـون غمغمــة النفـوس كما أرى

اليــومَ خمرٌ مُثْمِــلٌ وغــداً يرى أمرٌ وبعض المــوت أوّلُــه الشرى

ماذا لديكم من هـدى مـاذا عَـدَدْ تُمْ من قوى ماذا ادخرتم من قِرَى

حتــامَ يقتلنــا العري حتــامَ نر تـاد الكرى حتـامَ نمشي القهقرى

الشيب أقبـل منــذراً والجهـل خيْـ ـيَم في القرى والشعب منفكُ العرى

أعــداؤنـا متربصـون لحـالنـا لا يتركــون لنــا السبيــل لنعبرا

الـــدهرُ أرودُ مستبـــدّ صـــارم والـوقت سيف والحيـاة لمن درى

ومرور ثـــانيـــةٍ بغير صنيعـــة خطر يهدد بـالثبور أخـا الكرى

الحرب درس للشعـــــوب وعبرة فهل اتخذنا الدرس منهـا يـا ترى

هيـا اعملـوا لبـلادكم وابنـوا لهـا مجداً فمن رام العلا طلب السرى

كونـوا جنـوداً مخلصين لسيـد الـ ـوادي إمام الحق بل أسـد الشرى

أنـا ذلـك الجنــدي لا أرضى بغيـ ـر الجـد بيتـاً والمعــالي مشعرا

حسب المجاهـد في سبيـل بلاده وبنيـه أن يشقى ليَحتـل الـذرا

إني لأخشى أن تضيـع بـلادنـا إن لم نعـدّ لهـا العــديــد الأكبرا

ونصــد تيــار العـدو بقـوة الـ إيـلاف والعرفــان صــداً منكرا

ياشاعر اليمن الخصيب أجب على من جاء ينشدك البيان الأخضرا

إني وربـــك خـــائف متشـــائمٌ وأرى على الأبواب يومـاً مـذكرا

من ذا يرد إليَّ قلبي من يرى رأيي ومن منكم أراه الأشعرا[1]

☆ ☆ ☆

(١) نظمت هـــذه القصيـــدة في رجب سنـــة ١٣٥٣ ، ونشرت في ٢٩ محرم ١٣٥٥ ، وهي من البحر الكامل .

مسرد فهارس الكتاب

درجنا في هذه المسارد على ذكر ماورد من المواد في هذا الكتاب ، متناً أو تعليقاً ، وقد أهملنا في مسرد الأعلام مادتي (العرب) و (الإسلام) وفي مسرد الأماكن مادة (اليمن) لأنه قلما تخلو صفحة منها .

(حموش)

١ ـ مسرد الآيات الكريمة

﴿ لَقَدْ كانَ لِسَبَأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَن يَمينٍ وشِمالٍ ، كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُم ، واشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُور ﴾ [سبأ ١٥/٣٤] ص ٢٤

٢ ـ مسرد الحديث الشريف

الإيمان يمان والحكمة يمانية ص ١٢٢

٣ ـ مسرد الشعر

السيف أصـــدق أنبـــاء من الكتب ... في حـــده الحـــد بين الجـــد واللعب

أبو تمام ٢٥

إذا الشعب يـــومـــاً أراد الحيـــاة ... فـــلا بـــد أن يستجيب القـــدر

أبو القاسم الشابي ٢٥

لست بـــالتبـــع اليماني إن لم ... تركض الخيـــل في ســـواد العراق

أو تـــؤدي ربيعـــة الخرج قسراً ... لم يعقهـــا عـــوائـــق العـــوّاق

تبع اليماني أبو كرب ٣٣

وقـــد أســـوا براقش حين أســـوا ... ببلقعـــة ومنبســـط أنيـــق

وحلـــوا من معين حين حلـــوا ... لعـــزهم لـــدى الفـــج العميـــق

علقمة ذو جدن ٤٢

وبـــالربـــوة الخضراء من أرض يحصب ... ثمـــانـــون ســـداً تقلس المـــاء ســـائـــلا

١٠٣

كل الشجر فـــديـــه ... على البيـــذان أكل وظـــل ١١٨

مكحـــول من ربـــه ... وفي صدره حبوب النارجيل ١١٨

الله في قلب رأى فتفطرا ... حـــزنـــاً وشب أواره وتسعرا

....

(مطلع قصيدة) عبدالله بن أحمد بن عمر العلوي الحضرمي ٢٠٩/٢١٠

٤ ـ مسرد أعلام الأشخاص والقبائل والشعوب والأمم الواردة في الكتاب

- ب -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- ن -

- هـ -

٥ ـ مسرد الأماكن والبلدان والمواضع وبعض التعاريف الواردة في الكتاب

- ت -

ـ ح ـ

- خ -

- ض -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

٦ ـ مسرد أسماء الكتب والمطبوعات الواردة في الكتاب

٧ ـ مسرد عناوين الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

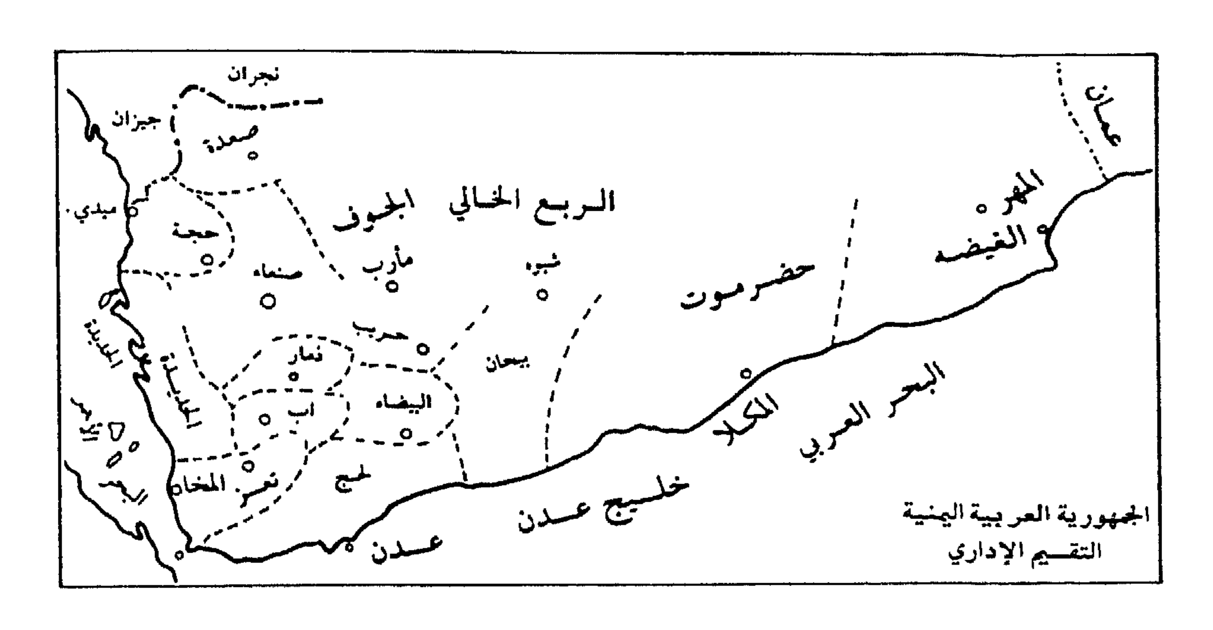
الموضوع	الصفحة

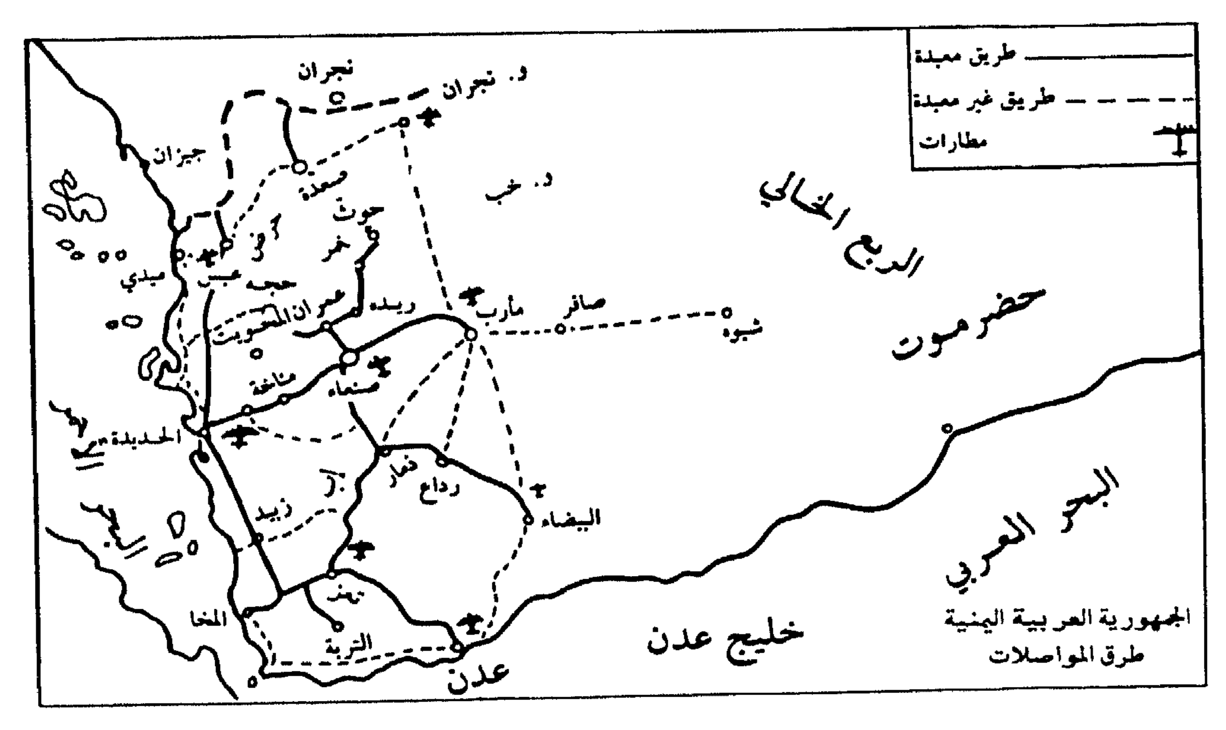
الموضوع	الصفحة

العلامة أحمد وصفي زكريا

- ولد بدمشق عام ١٨٨٩ م . وأتم فيها دراسته الابتدائية والثانوية .
- انتقل إلى إستانبول والتحق بالمدرسة الزراعية العليا وتخرج فيها عام ١٩١٢ م مهندساً زراعياً .
- عاد لدمشق وعمل في مدرسة السلمية الزراعية مدرساً ثم أصبح مديراً لها .
- عمل في لبنان مديراً لدار الحرير في بيروت عام ١٩١٤ م ثم عمل في فلسطين مدرساً في مدرسة (الأطرون) الزراعية .
- عمل مستشاراً فنياً زراعياً لحكومة اليمن عام ١٩٣٦ م .
- وعمل في مدرسة دار المعلمين الريفية في بغداد عام ١٩٤١ م .
- عاد لسورية حيث عين مفتشاً عاماً لأملاك الدولة حتى أحيل على التقاعد عام ١٩٥٠ م .
- توفي بدمشق عام ١٩٦٤ م .
- له مؤلفات تاريخية عديدة منها عشائر الشام ، وجولة أثرية ، والريف السوري وله مؤلفات زراعية منها الدروس الزراعية ، والمفكرة الزراعية ، والمحاصيل الزراعية .
- كان رحمه الله رائد العلوم الزراعية في وطننا العربي ، وآثاره القيمة تدل على سعة علمه وغزارة اطلاعه .




نجران
جيزان
صعدة
عمان
ميدي
حجة
صنعاء
مأرب
الربع الخالي
الجوف
شبوه
حضرموت
المهره
الغيضه
حريب
ذمار
بيحان
اب
البيضاء
تعز
المخاء
لحج
عدن
المكلا
خليج عدن
البحر العربي
الجمهورية العربية اليمنية
التقسيم الإداري


طريق معبدة
طريق غير معبدة
مطارات
نجران
و. نجران
جيزان
صعدة
حوث
خمر
د. خب
الربع الخالي
حضرموت
ميدي
عمران
ريده
مأرب
صافر
شبوه
المحويت
مناخة
صنعاء
الحديدة
ذمار
رداع
البيضاء
زبيد
تعز
المخا
التربة
عدن
خليج عدن
البحر العربي
الجمهورية العربية اليمنية
طرق المواصلات

ظـل اليمن في عـزلـة عن العـالم ـ إلاّ من رحم ربي ـ حقبـة طويلة من الزمن ، كانت فيهـا محـاوَلـة الوصول إليـه ضرباً من المغامرة ، لا يجرؤ عليها سوى الرحّالين والأثريين ، والصحفيين الطُلَعيين كعبد المسيح الأنطاكي ونزيه المؤيـد العظم ، في الزمن الـذي كان فيـه أحمـد وصفي زكريـا ـ مـؤلف هـذا الكتــاب ـ مستشاراً فنياً زراعياً في اليمن بأمر الإمام يحيى .

ويبدو أن سحر اليمن آسرٌ لا ينساه زائره ، وإن مرّت عليه السنون . فمـؤلف هـذا الكتـاب ظـل يكتب المقـالات ، ويلقي المحاضرات عن اليمن ، منذ سنـة ١٩٣٦ م حتى قبيل وفـاتـه سنـة ١٩٦٤ م .

والمعتقد أن حبّ اليمن لهذا المهنـدس الزراعي الرائـد ـ وهو الذي نقل إليه زراعات من بلاد الشام والعراق ومصر وإيطاليـة تلائم البيئة اليمنية ـ جعله يبادله عشقاً بحب

وكتاب أحمد وصفي زكريـا هـذا وصف مستفيض لرحلتـه إلى اليمن السعيـد . وأروع مـافي هـذا الكتـاب أن لمـؤلفـه عينــاً لاقطة شديدة الملاحظة .